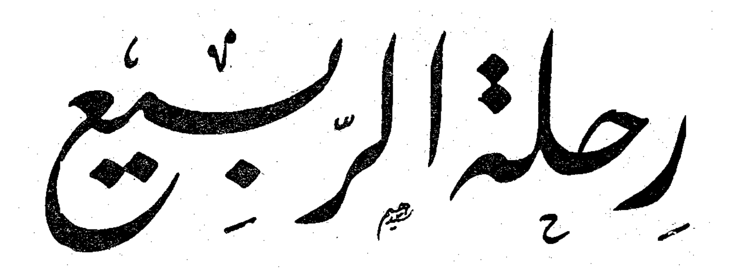


رحلة الربيع

بقلم

فؤاد شاكر

١٣٦٥هـ — ١٩٤٦م

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية
لأصحابها عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

١ — يرى القراء أننا افتتحنا الكتاب بعد اسم الله تعالى ، بمقتطفات مختارة من أقوال حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ولقد وجدنا فى أقوال جلالته بحاراً زاخرة بأفانين الحِكَمْ ، وجوامع الكَلِمْ ، لا يمكن أن يتسع لمختاراتها نطاق محدود كهذا، ولكن حرصنا على أن نتوّج افتتاح الكتاب بما يستطاع اقتناصه من نفائس تلك اللآلىء الخالدة .

٢ — لم يكن الغرض من وضع هذا الكتاب هو مجرد تسجيل حركات رحلتنا ولكن الغرض الذى استهدفناه هو تسجيل المعلومات المنطوية عليها هذه الرحلة فيما يمس الصالح العام عن قرب أو عن بعد .

٣ — لم نتوخّ فى تأليف هذا الكتاب أن نحشو الأذهان بالمعلومات الجغرافية الجافة ، أو التاريخية المملة ، وإنما قصدنا أن نضع تحت نظر القراء الصور الواقعية ، عن حقيقة المشاهد التى هى فى قلب نجد ، وما تقتضيه المناسبة الملحة من سياق أدبى ، أواستطراد تاريخى ، أو تحقيق اجتماعى، أو توضيح ذى شأن ومساس.

٤ — حرصنا على أن نعطى القراء صورة واضحة عن أمراء آل سعود ، ولكن الظروف العاجلة التى طبع فيها الكتاب لم تهيىء لنا تحقيق ما نبتغيه ، مع أسباب أخرى ستتيسر فى الظروف المقبلة إن شاء الله . وكذلك فيما يختص بالجانب التصويرى فى الكتاب ، فقد كنا نحرص على أن نزينه بأكثرعدد ممكن من الصور ، ولكن نفس الأسباب المتقدمة هى التى حالت دون أداء هذا الواجب وتحقيق تلك الأمنية .

فؤاد شاكر

مقدمة

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

يصف الاجتماعيون الأوربيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو ـ على الأصح ـ أمة مؤرخة .

ولا يعنون بذلك أنها أمة عريقة فى التاريخ ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الأجناس ، وإنما يعنون أنها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الأنباء والروايات من السلف إلى الخلف بغير انقطاع فى سلسلة الاسناد ، وإنك إذا صادفت منها رجلاً فى عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه إلى زمن بعيد ، أو أن تعرف منه مالست تعرفه من كل فرد فى كل أمة ، ولو كان لها تاريخ مدوّن مذكور .

وهذه مزية « مخصوصة » وليست بالمزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة . فإن من الأمم العريقة أمماً تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ إليه فإذا هو لا يذكرها بغير المراجعة والسؤال ، وهذه هى الأمم التى توصف بأنها « حاضرية » مبتوتة أى تعيش فيما حضرها من الزمان ، ولا تعنى كثيراً بما بينها وبين الماضى من الأواصر فى حياة الفرد أو حياة الجماعة .

تتجلى هذه الحقيقة فى طريفة من الطرائف الممتعة التى رواها لنا الشاعر الأديب صاحب هذه الرحلة وهو يبحث عن منزل من المنازل التى ذكرها امرؤ القيس فى معلقته الخالدة حيث يقول :

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقد دعاه إلى هذا البحث انه اقترب من محلة تعرف باسم « مرات » وفى جوارها « التوضحية » وعندها غدير مشهور ، وقيل له فيما قيل ، إنما هى المقرات التى ذكرها

حامل لواء الشعراء فى الجاهلية . ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال « ليس بكثير على أربعة عشر قرناً أن تلحس قافاً واحدة فتحرف الـكلمة من مقرات إلى مرات وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات . . . »

إلا أنه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال : « ... التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه ، فقلت : لاشك أن هذا من أهل القرية . فبدأته السلام ثم قلت له : يا رجل ! أهذه قرية امرىء القيس الشاعر المعروف ؟ ... فتدفق كالبحر الزاخر يدلى إلىّ بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبيـة والتاريخية المتصلة بهذه القرية . وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور ، وأن الأول تميمى والآخر كندى ، وأن امرأ القيس التميمى رجل دميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله ، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين ... »

قلت وأنا أقرأ هذه القصة لاجرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضرها ، بل لاجرم تـكون الرحلة كلها دليلاً على هذه الصفة الاجتماعية ، فإنه لولا « الروح العربى » قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه فى قلمه لما ظهر هـذا « التاريخ المصرى » فى حيز الـكتابة ، ثم فى حيز الطباعة . فما نخاله إلا صدى صادقاً يردد ماتجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة فى أرجاء الجزيرة العربية ، لأن الإله القدير الذى جعل الرمال سافية لاتبقى على أثر قد جعـل سكان الرمال سجلاً واعياً لجميع الآثار ، ولا سيما هـذه الآثار الـكبار ، وهى تروى تاريخ الضيافة الملـكية من الحجاز إلى نجد ومن نجد إلى الحجاز .

على أن الإله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الإسلامى كله سجلاً واعياً لأنباء هذين القطرين الخالدين ، وأن يكون سكانهما بالأرواح والأذهان أضعاف من

سكنوها بالعيان والجثمان . فمن من قراء العربية لايحسب بين ساكنى الحجاز فى عالم الروح والضمير ؟ ومن منهم لايحسب بين ساكنى نجد فى عالم العاطفـة والخيال ؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية ، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية . فـكل من عرف وحى السماء فى آيات القرآن ، ووحى الطبيعة فى ألسنة الشعراء فقـد عاش فى نجد والحجاز وشغله الحديث عنهما زمناً ولا يزال يشغله إلى الآن .

ولهذا نعتقد أن قراء العربية يطلعون على أنباء هـذه الرحلة الحجازية النجدية ، وينطلقون معها فى أودية الخيال ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم ، ويعجبوا مع الصحراء اركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحداء . ويطمئنوا إلى تطور الزمن حين يستمعون إلى الملك العصامى العظامى وهو يقول : «إن بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقـدم فى نظرهم إلا بتقليد الأوربيين ، ولـكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بمـا كان سبب قوتهم ومتعتهم بل قلدوهم فيما لايسوغه دينهم من الأمور الأخرى . فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس فى السر والعلن ، بالقول والعمل، لتقليد الأوربيين . ولـكن من منهم عمل إلى اليوم إبرةأو صنع طيارة أواخترع بندقية أو مدفعاً ؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك..»

فالحق إذن أن الناس ليستمعون من هذه الـكلمات آية أخرى من آيات «العروبة المؤرخة» أو العروبة التى تتصل فيهـا الأواصر بين حاضرها وماضيها ، وتتغير مع الزمن ولـكنها لاتنقطع عن حقائقها ومعانيها . فالخير كل الخير مرهون بهذه الحـكمة العملية الواضحة التى تحفظ لنا خير ماعندها وتعطينا من غيرنا خير ماعندهم : قوام بين القديم والحديث ، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث ، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم .

والأستاذ فؤاد شاكر شاعر ناثر . فقـــد استعان فى وصف الرحلة بمنظومه

ومنثوره» واعتمد فيها على مسموعه ومنظوره ، فأحسن الوصف إحساناً لاتغض منه هفوة هنا وهفوة هناك ، وأجاد تصوير الركب والزملاء ، كما أجاد تصوير الضيافة الملكية فى القصور وفى الصحراء ، وقد رأينا مصداق وصفه فيما نظرناه وسمعناه من حفاوة المليك الجليل ، وصراحته ، ودوام سهره على شئون رعيته وشئون ضيوفه ، ونعتقد أن هذه الرحلة الملكية الرياضية ستلقى من عناية الشعراء كل مالقيته أنباء مكة والرياض فى تاريخها القديم وتاريخها الحديث . فهى حلقة موصولة من حياة « أمة مؤرخة » نرجو أن تظل أبداً فى صدر التاريخ بما تبرزه له من عظائم الآثار ، وتشترك فيه من حفاوة السابقين واللاحقين ، إلى ماشاء الله

عباس محمود العقاد

مقتطفات رائعة مختارة

من أحاديث وأقوال

جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

أيده الله

إنني والله لا أحب إلا من أحب الله حبًا خالصًا من الشرك والبدع ، وأنا والله لا أعمل إلا لأجل ذلك ، ولا يهمني أن أكون ملكًا أو فقيرًا

والله ثم والله إني لأفضل أن أكون على رأس جبل آكل من عشب الأرض وأعبد الله وحده ، من أن أكون ملكًا على سائر الدنيا وما فيها

" إنني أفخر لكل من يخدم الإسلام ويخدم المسلمين واعتز بهم بل أخدمهم وأساعدهم وأؤيدهم ، وإنني أمقت كل من يحاول الدس على الدين وعلى المسلمين ولو كان من أسمى الناس مقامًا وأعلاهم مكانة .

إنني أدعو المسلمين جميعًا إلى عبادة الله وحده والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح ، لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهذا ، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه "

" إن المسلمين لا يرقون ولا ينهضون بالبهرجة والزخارف ، إن سبيل رقي المسلمين هو التوحيد الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان رسوله الكريم

إن الإسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا والآخرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة فلم يمنع الإسلام الناس من السعي في الأرض والعمل على كل ما يرفع شأن الملة "

إن تقدم المسلمين ونهوضهم هو من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله .

ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة . والاعتصام بحبل الله ، والطريق إلى ذلك واضح مُعبد لمن أراد سلوكه وهو افراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالى من الشرك والبدع ، والعمل بما يأمرنا به الدين لأنه لا فائدة من قول بلا عمل ،

وإن بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقدم فى نظرهم إلا بتقليد الأوربيين ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم ومنعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الأخرى ، فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس فى السر والعلن ، بالقول والعمل لتقليد الاوربيين ولكن من منهم عمل إلى اليوم ابرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعًا ، لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك !

" والله ثم والله ، إن العجوز القابعة فى وكرها
والتى لاتملك من الثياب إلا الأطمار البالية
وهى تعبد الله وحده عبادة خالصة ، هى أحب
إلى قلبى من أى إنسان بلغ من العظمة والشأن
ما بلغ ، إذا كان لا يؤمن بالله إيمانًا صادقًا
خالصًا ولا يعمل بما جاء فى كتاب الله "

أنا لست من رجال القول الذين يرمون
اللفظ بغير حساب ، فأنا رجل عملى إذا قلت
فعلت ، وعيب علىّ فى دينى وشرفى أن أقول
قولًا لا أتبعه بالعمل لأن هذا شىء ما اعتدت
عليه ولا أحب أن أتعوده أبدًا

كثيرًا ما يقول الناس : لماذا لا أؤسس
جمعيات أو أنشىء مكاتب دعاية لأعمالى .
ولكن هذا شىء أتجافاه بطبيعتى لأنه لا يلائمنى
وليس من طبعى

فإذا كان الذى بينى وبين الله عامر فعسى

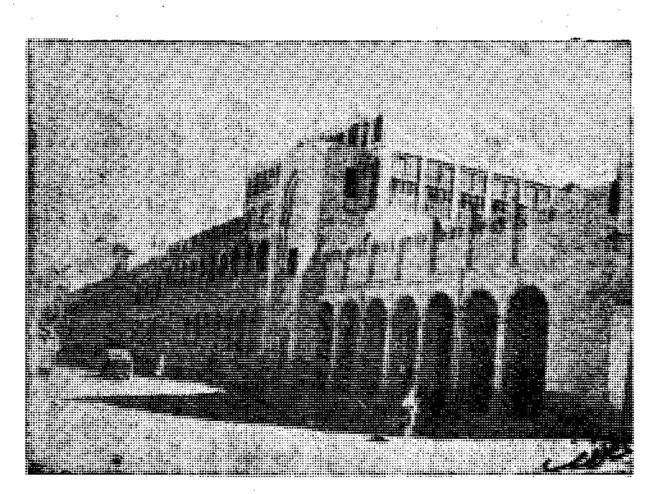
الذي بيني وبين العالمين خراب

"يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره بصراحة تامة ، وان لا يخشى في الحق لومة لائم ، ويجب أن يصرح كل فرد بما يعتقد فيه المنفعة لأن مجال البحث والتوفيق والتمحص يوصل إلى خير النتائج وأحسنها ، فعلى الإنسان الاجتهاد ومن الله التوفيق"

الناس في رأيي ثلاثة ، واحد منهم من أهل الحق ، وهذا أساويه بنفسي وأفديه بها . وثانيهم من أهل الخير والشر ، وهذا أدعو له بأن الله يعلى خيره على شره ، ويكفينا شره . والثالث من أهل الشر والعياذ بالله وهذا أسأل الله له الهداية وأن يجنبه وغيره شر نفسه ويرشده إلى الصواب

اثنتان أحمد الله على واحدة منهما وأشكره على الأخرى ، أحمد الله على اني أكره أهل الضلال وعلى كراهة أهل الضلال لي ، وأشكره على محبة أهل الخير لي ، ومحبتي لهم ؟

« لا توجد مدنية فى العالم تؤمن سعادة البشر غير المدنية الإسلامية ، وما اشتملت عليه من الأحكام المؤدية إلى رفاهية العاملين بها ، فإذا كان أساس المدنية العصرية هو الحرية المطلقة فانه لايوجد نوع من الحرية والمساواة ، يعادل الحرية التى منحها الله لعباده فى سائر معاملاتهم واجتماعاتهم وما يكتنفها من المساواة والعدل فى دائرة الشرع الشريف، ذلك بأن الدين الإسلامى قد



قصر حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود فى أعلا مكة بالابطح

كفل لجميع المسلمين أفراداً وجماعات حريتهم بأوسع معنى ، إلا ماحرمه الله (ألا أن لكل ملك حمى ـ وان حمى الله محارمه) فإذا تجنب الإنسان محارم الله ، فهو حر فى جميع أعماله ، يتساوى الغنى والفقير ، والصغير والكبير، أمام عظمة هذا الدين الإسلامى الحنيف ولا فرق بين عربىّ وعجمىّ إلا بالتقوى ، وقد أعز الله الإسلام بسلمان الفارسى ، وبلال الحبشى ، وأذل الله الشرك بأبى جهل وأبى لهب .

« أما إذا كان المقصود من الحرية اتباع شهوات النفس ، والنفس

أمارة بالسوء ، وانتهاك حرمات الله ، فان هذه هى الهمجية بعينها ولا يوجد قانون فوق ظهر الأرض يعدل ذلك الكتاب السماوى الذى فرضه الله على عباده ، وهو الذى خلقهم ويعلم خائنات الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم مصالح عباده وما ينفعهم وما يضرهم ، ذلك هو القرآن الذى هبط به أمين السماء (جبريل) على أمين الأرض (محمد) صلى الله عليه وسلم وفيه آيات مفصلات من تدبرها ووعاها كان من الفائزين ، وقد قال سبحانه وتعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فهل من المدنية أن ينتهك الإنسان محارم الله وأن يرتكب الذنوب والمعاصى بما اقترفه من التهاون فى أمور دينه وبما يبيحه لنفسه من مجاراة النفس فى شهواتها الجامحة ؟! فإذا كانت هذه هى المدنية التى يتصورها بعض الناس فاللهم إنى برىء منها ، أنا وأهلى وبلادى ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلنى أرى شيئاً من تلك الأحوال السيئة المفسدة التى هى مجلبة الضرر والفساد والتى هى مغضبة لله ولرسوله ، وإننى لو فعلت ذلك أسأل الله أن يجعلنى وأهلى وأولادى تراباً تذروه الرياح . وسأحافظ على بلادى مادمت حيا فلا تتعرض إن شاء الله لأية شائبة من تلك الشوائب ، وانه ليس للانسان مايفتخر به إلا إسلامه وعروبته ، فإذا أضاع الإنسان دينه بتلك المعاصى وتهاون فى عربيته بذلك التقليد السخيف ، فماذا يبقى له من صفات القومية والرجولة ، وبماذا يفتخر إذا فرّط فى دينه وعرضه .

« إن الصحيح أن يتمسك الإنسان بدينه ويعمل بأوامره ويجتنب نواهيه وهو دين كريم أغدق الله به على عباده السعادة والخيرات فى الدنيا والآخرة ، دين يفرض الحرية ، ويفرض العمل ، ويفرض المساواة ، ويفرض مراعاة الحقوق ، ويفرض البر بالوالدين ، ويفرض عطف الغنى على الفقير ومراعاة الكبير للصغير ، هو دين الرحمة والبر والإحسان ، قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) الآية

« والمسلم لا يكون مسلما حتى يؤمن بعيسى وما أنزل عليه من الانجيل وموسى وما أنزل عليه من التوراة ، ومحمد وما أنزل عليه من القرآن ، ومن لم يؤمن بعيسى وموسى لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

« فالمدنية الصحيحة ، هى التمسك بكتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم واتباع السلف الصالح وأن يحافظ الانسان على عروبته وشرفه فإذا وضع الانسان هذه المبادئ نصب عينيه أمكنه أن يعيش سعيداً بمراعاة التقوى سواء بينه وبين ربه ، أو بينه وبين أهله وذوى قرابته ، أو بينه وبين عموم الناس ، وهو بعد ذلك له مطلق الحرية فى تصرفاته وأعماله فى ضمن هذه الدائرة التى هى دائرة الاسلام . والدين الاسلامى الحنيف ما نزل إلا لسعادة البشر ورفاهيتهم وأمنهم وسلامتهم ، ولكن هذا لا يتحقق إلا باتباعه والعمل به .

« أما من أضلهم الشيطان وزين لهم الباطل من زخرف هذه الدنيا

الفانية فارتكبوا المعاصى وانقادوا مع هوى أنفسهم ، واسترسلوا فى الشهوات فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة ، نعوذ بالله منهم .

« اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزُقنا اجتنابه وأسأل الله أن ينصر دينه ويعلى كلمته ، وأن يعز الإسلام والمسلمين.

* * *

« انكم يا الرعية ، لكم علينا حقوق لانجهلها ولا نغفلها ، وإنى إن شاء الله عامل بها فى الحاضر والمستقبل ، ومع أن واجباتكم علينا كثيرة لم نستطع النهوض بحقها ، إلا أنى أحمد الله على مايوفقنى إليه من القيام به جهد الاستطاعة ، ووالله انى لن أدخر فى نفسى جهداً أو مالا إلا أنفقته فى سبيل راحة رعيتى وهنائها ورفاهيتها وإنى أبذل فى ذلك كل جهد مستطاع ، ولا أطلب منكم مقابل ذلك غير ماأمر الله به ورسوله (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فعليكم لنا الطاعة فيما أمر الله به وعليكم الاستقامة فى أعمالكم والإخلاص فى نياتكم

« وكذلك عليكم واجبات نحو بعضكم البعض ، فكلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فالإنسان فى دائرة عمله ، أو فى بيته بين أهله وأفراد أسرته أو مع أصدقائه وأصحابه ، وبالجملة فان كل إنسان مسئول عمن هم فى رعايته ومن ألزمه الله بهم ، فاتقوا الله فيمن هم تحت أيديكم من الأهل والأولاد وغيرهم واتقوا الله فى معاملتكم لهم فى السر والعلن واعلموا أن الله لايغفل ولا ينام وانه مطلع على السرائر وما تخفى الصدور

فإنه لايصلح راع بلا رعيـــة ، ولا رعية بلا راع . فإذا راقبتم الله فى معاملاتـكم الشخصية بينـكم وبين أنفسكم فإنـكم تفلحون وأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » .

زهد الملك العظيم

« يقولون فلان تشرف بمقابلة الملك ، والحقيقة أن من نعمة الإسلام علينا ، أن جعلنى الله لا أحفل بما يسمونه المُلْك ، وما يحيطونه به من عظمة وإكبار،وأن من نعمة الاسلام علينا أن أجلس معكم وأن تجلسوا معى ، نتبادل الأحاديث ونتجاذب البشر والسرور ، أفليست هذه هى نعمة الاسلام وحريته أن يكون بابى مفتوحا للجميع يدخلون علىّ من غير استئذان ولا حجابة ولا رقابة ، فأنا ـ ولا أقصد الدعوة إلى نفسى ولا امتدحها ـ ولله المثل الأعلا ـ أشعر بشعوركم وأعلم أنـكم تشعرون بشعورى فنحن جسد واحد وروح واحدة .

« لقد قال لى مرة أحد الـكبراء ، لماذا لاتجعل لك حجابا فلا يدخل عليك أحد إلا بإذن ، فقلت له : أيكون بينى وبين رعيتى حجاب، أيكون بينى وبين شعبى باب ، هذا أمر لا يقبله ضميرى ولا تقبل عليه نفسى ، ليقل عنى الناس إننى ملك ، وليقولوا مايشاءون أما أنا فلا أرى فى نفسى إلا أننى أدعـو المسلمين إلى الله بالأفعال والأقوال وقد أفلح من تبع دينه وخاب من تبع دنياه » .

الفَصلُ الأوّل

أسباب وعوامل فى تكوين الرحلة

لا جدل فى أن أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على عباده ، وأجدرها بالشكر والتقدير ، نعمة الإسلام الذى هدى إليه عباده المخلصين . ومن أكبر نعم الله على المسلمين قاطبة ، أن خلق لهم هذه البلاد الإسلامية المقدسة التى جعلها مثابة للناس وأمناً ، فهى موئل الإسلام والمسلمين منذ عرف الإسلام إلى أن تقوم الساعة . ومن أهم مظاهر إكرامه جل وعلا لهذه البلاد ، أن جعل قداستها مقرونة بمعجزة كبرى من لدنه ، هى معجزة الأمن من الخوف والجوع ؛ وقد ذكر ذلك فى كتابه العزيز .

وما سنرويه هنا يضيف برهاناً جديداً على اكرام الله لهذه البلاد ، فقد يعرف الجميع أن العالم من شرقه إلى غربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، اضطرم بحرب لا لين فيها ولا هوادة منذ أواخر عام ١٣٥٨ هجرية ، أى منذ شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ م . فالعالم منذ هذه الفترة يعج بتلك الحرب الضروس ، ويشتعل بذلك الأتون المتوهج بلا استثناء أية جهة من جهاته ، ومن سلم من نار الحرب لم يأمن مسغبة الجوع ، وهناك من عانى الأمرّين ، وكابد النارين .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر معجزته الكبرى على الإسلام ، بتأمين هذه البلاد من الخوف والجوع ، فسبق فى علمه أن يسند أمر ولايتها إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وأجرى على يدى

جلالته رفاهيتها وسعادتها . وما زال هـذا الملك الحكيم العادل الراشد ينتقل بأمور بلاده على ظهور السنين والأيام ، انتقال حكمة ورشد ، حتى وقعت الواقعة العالميـة الهائلة ، ونزلت بأمم الأرض وحكوماتها الكوارث والمحن ، وإذا بجلالته يسير على ما ألهمه الله من السداد ، وإذا ببلاده تتجنب على يديه الكوارث المدلهمة التى لم تسلم منها أمة فى الأرض ، فتمضى سنوات الحرب الضروس وهـذه المملكة كأنها من العالم بمعزل ومنتأى ، بينا هى من العالم كالقلادة من الجيد ، بالنظر لموقعها الجغرافى ، ولأهميتها الدينية والاقتصادية . وإذا بثمرات الأرض ، وخيرات الدنيا ، تجبى إليها بالغدوّ والأصال ، بصورة منقطعة النظير بعـد أن ظن ضعاف النفوس ، الظنون والهواجس ، عما افترضوه من المجاعة والهول لمستقبل هذه البلاد فى غضون سنوات هـذه الحرب ، خصوصاً وأن مما افترضوه أيضاً فى أذهانهم ، انقطاع ورود الحجاج ومواردهم المالية والاقتصادية عن المملكة فى خلال سنىّ الحرب ، ومعنى ذلك ، انقطاع الموارد المالية للبلاد ، وانقطاع ورود الأقوات والحاجيات ، وفى ذلك الموت المحقق والبلاء المطبق .

ولكن ما الذى كان ؟ ! وما علاقة ذلك بهذه الرحلة ؟ !

كان أن قيّض الله لهذه البـــلاد ، جلالة الملك عبد العزيز ، وكان أن ألهم جلالته الرشد فى السير بسياسته إلى الطريق الذى جنب بلاده الشر والأخطار ، وأمّن لها أمر معاشها من بين تلك العواصف العالمية الهوجاء والزوابع الخطيرة الجامحة ، وزاد الله فى نعمته على المملكة فى تلك الظروف العالميـة القاسية ، فيسّر لها من لدنه رزقاً حسناً ، بأن أمر ميازيب سمائه فتفتحت عن مياه غزيرة وأمطار متدفقة متدافعة هطلت على جميع أنحاء المملكة فى ظروف متقاربة عادت على الحواضر والبوادى بالإنعاش والازدهار ، وأحيت من الأرض مواتها ، وأخصبت منها ما كان مجدبا .

ولقـد كانت نجد وباديتها ، هى الهدف الأول لذلك الخصب ، إذ باكرها الغيث قبـل غيرها من أجزاء المملـكة ، وبارك الله لها فيما آتاها فربعت ربيعاً نضراً زاهراً مشرقاً لم تعرفه منـذ ربع قرن من الزمان ، أى ما بين مدتى الحرب الماضية والحرب الحاضرة ، وكان هـذا الربيع النضر المشرق ، هو السبب فى القيام بهذه الرحلة . والرخاء الذى ترتب عليه لهذه المملـكة هو همزة الوصل بين الحديث عن الحرب ، وبين الحديث عن هذه الرحلة ، وفيه الجواب على التساؤل الذى قلناه فى صدر هذا الـكلام عما هية العلاقة بين الـكلام عن الرحلة والـكلام عن الحرب .

* * *

لقد كان الربيع فى نجد ، هو السبب فى هذه الرحلة ، ولقد بدئت الرحلة بالسفر إلى « ربيع نجد » ، وختمت بأعظم حادث فى تاريخ هذه البلاد ، هو التثنية بربيع الحجاز ، فقـد هطلت أمطار على الحجاز وباديته ، بل على المملـكة كلها عقب انتهاء الرحلة مباشرة جعلت منها كلها ربيعاً واحداً ناضراً مشرقاً ، أحيا من موات الأرض فيها ما شاء الله ، وبعث من الخصوبة ما أراده الله .

فكرة الرحلة

بيّنا فيما تقدم ، بعض العوامل والأسباب التى أدت إلى تكوين الرحلة ، ومن الإنصاف للواقع ، أن نذكر بعض الشيء عن فكرة الرحلة .

فالمعروف أن حضرة صاحب الجلالة الملك ، يفد إلى مكة فى موسم الحج من كل عام فيمضى فيها شهرين أو ثلاثة حيث يتشرف أعيان المملكة وغيرهم بالمثول بين يدى جلالته طيلة مدة إقامته فى مكة ، وكثيراً ماتجرى فى هذه المجالس أحاديث الإخلاص والولاء لجلالته من الحاضرين ، فيحاول بعضهم فى معرض الإعراب عن الولاء أن يتمنوا على جلالته الاستزادة من أيام إقامته فى مكة ، فيشكرهم على عواطف ولائهم وإخلاصهم . وقد حدث فى مرة من تلك المرات ، أن قال لهم جلالته أنه « حقيقة لاتكفينى هذه المدة الوجيزة التى أقضيها معكم ، وإننى لو استطعت لقضيت العام كله عندكم ، ولكنكم تعرفون الحقيقة ، وتعرفون الأسباب التى تحملنى على تجزئة الوقت بين شقى المملكة ، وأهم تلك الأسباب شغفى بالبادية التى نشأت بها وقضيت الشطر الأكبر من حياتى فيها ، وإنما الواجب عليكم أن تزوروا نجد وتتعرفوا إليها عن كثب ، فلا أظنكم تعرفون عنها إلا الشيء القليل ، وأنتم شعب واحد وأمة واحدة ، وقد توفرت ولله الحمد أسباب المواصلات للانتقال والتزاور »

وبالطبع ، فقد أمّن الحاضرون على كلام جلالته ، وشكروا لجلالته هذا العطف الكريم ، وأعربوا عن صدق رغبتهم فى القيام بهذه الرحلة الممتعة فى الجزء الذى هو من وطنهم بمثابة القلب ، والذى لايعرفون عنه أكثر مما قرأوا فى كتب الأدب، والتاريخ

هذا هو بدء تكوين الفكرة عن الرحلة .

وقد غادر جلالته مكة بعد موسم الحج فى عام ١٣٥٩ عائداً إلى نجد ، وما كاد

يستقر بجلالته المقام حتى أصدر أمره الكريم بتنظيم الرحلة وتنفيذها ، ووكل ذلك إلى نائبه المحبوب حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل نجل جلالته ، وشبله الدارع فى العرين . وقد نهض الأمير فيصل المعظم بما عهد إليه ، وأصدر أمره بإعداد ترتيباتها الخاصة ، وكل ماهو متعلق بتنفيذها .

وقد شاءت المقادير الإلهية مشيئة لم تكن فى الحسبان من قبل ، وهى مشيئة أكسبت الرحلة حلة من البهاء والرواء ، وساعدت إلى حد بعيد فى إنجاحها وإبلاغها أقصى درجة من الروعة والرونق ، ذلك أن جلالة الملك أصدر أمره الكريم فيما بعد بسفر سمو الأمير فيصل إلى الرياض لأسباب وإن لم تكن لها علاقة بالرحلة ، إلا أنها صادفتها فى طريقها ، وكانت مصادفة سعيدة أن يسبق سموه الوفود إلى نجد بعد إصداره الأمر بتنفيذ الرحلة ، كأنما هو والرحلة كانا على ميعاد . وكان هذا من يمن الطالع للرحلة ، ومن أسعد المناسبات التى صادفتها .

وقد تفضل سموه حفظه الله ، فشمل كاتب هذه السطور بعطفه السامى ، فأمر بأن يكون عضواً فى هذا الوفد ، أو راحلاً فى هذه الرحلة مع الراحلين ، وهى عناية من سموه لاتكفى معها عبارات الشكر أو الثناء ، ولا كلمات الإطراء والدعاء ، لا لما انطوت عليه من تكريم لشخصى ، ولكن لما انطوت عليه من تكريم الصفات التى عُرفت بها وأهمها وأخصها ، صفة الأديب والشاعر والصحفى والكاتب ، فقد كرم الصحافة والأدب والشعر فى شخصية أصغر ممثل لها ، وهو تكريم اغتبط به كل منتسب إلى مهنة القلم فى المملكة ، من الشعراء والكتاب والصحفيين والأدباء ، لأنه تكريم يحمل أسمى معانى التشريف .

وغادر الأمير فيصل مكة ، يوم الإثنين ٢٨ محرم ١٣٦٠ إلى الرياض ، بعد أن اتفق على أن تكون رحلة الوفد فى يوم الإثنين الآتى الذى يقع فى ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠ .

الشعور بالرحـــلة
والشعور نحو الرحلة

من المهم ، ومن الإنصاف ، أن أتـكلم عن الشعور بالرحلة ، وعن الشعور نحو الرحلة ، فما كان موضوع الرحلة بالحادث الهيّن ، ولا هو بالشيء اليسير ، بل هو على التحقيق كان الشغل الشاغل الذى استولى على الأذهان وصرفها عما سواها حيناً من الدهر ، ولست أبالغ إذا قلت أنه الموضوع الذى أهم الجميع ، وأشغل أذهان الجميع ، واستولى على أفـكار الجميع، وتسربت فيه الظنون إلى جميع المسارب ، فقد كان ذلك حديث الأمة بأ كملها ، طيلة تلك الأيام التى كانت موضع الاستعداد ، فأما الراسخون فى العلم من المشتركين فى الرحلة وغيرهم ممن يمت إليهم بصلة ، فقـد كانوا يعلمون أسبابها كما سردناه فيما تقدم ، وأما غيرهم من الجمهور والعامة فقد كانوا يتناقلون مايتخيلون، ويشيعون من الـكلام والهواجس فى غير تحفظ ويذهبون فى التظنن شتى المذاهب ، فمن قائل أنها لـكذا !! ومن قائل أنها لغير كذا !! شأن الجماهير الغفيرة فى كل زمان ومكان !!

وهـذه نقطة تعمدنا الإشارة إليها لأنها حقيقة واقعة من حقائق تاريخ الرحلة ، ولأنها تمثل ناحية من نواحى تفـكير الجماعات فى بعض جماهيرها العامة ! !

هذا كلام عن الشعور نحو الرحلة قدمناه عن الشعور بالرحلة بما يختلف عن عنوانه ، وقد غلبت فى ذلك طبيعة الشاعر على الناثر ، ففى الشعر تراعى ـ أحياناً ـ من بين علوم البديع ، قاعدة اللف والنشر وما فيها من الترتيب والتشويش ونحن جارينا

العكس وإن كان جائزاً عن الأصل ، وما كان بنا حاجة إلى هـذا الاستطراد لولا استخدامه لتبرير هذا السياق !

أما الـكلام عن الشعور بالرحلة ، فذلك هو الـكلام . الـكلام عن الشعور بالرحلة هو الـكلام الذى يعرفه ويحسن التعبير به والتعبير عنه ، كل من اشترك فى الرحلة ، وأنت لو فتشت سويداء قلب كل من اشترك فيها لوجدت فيه أو لوجدته هو بذاته ، ألسنةً ناطقةً خافقةً ، قد تحسن التعبير ، أو قد يعجزها الإحسان فى الإفصاح عن التعبير ، لدقة ما كان يساورها من الشعور ، وما كانت تحس به من مزيج هو الفرح الـكامل ، والسرور المطلق ، والتطلّع إلى أفق كله سعادة وهناء ، للحاضر والمستقبل ، للفرد والمجموع .

فأما من الناحية العامة ، فقد كان شعور الأمة بأسرها هو هذا الشعور ، وكان الناس فيما بينهم يتناقلون ذلك بموجة طاغية من البشر والسرور حتى لـكأن فى كل بيت ، وفى كل جارحة ، وفى كل صدر ، موجة خاصة من موجات المرح ، تغمر صاحبها ، وتشيع فيه ، وتظفر منه بمكنون نفسه ، فتكاد تجعله تيّاهاً على سواه بما يشعره أنه اختُصّ به من ذلك السرور المتاح . ويرجع سبب ذلك إلى ماهو معروف عما سيلقاه الوفد من نعمة لقاء المليك فى مقره ، بما يشبه لقاء الأسد فى عرينه ، والحظوة باجتلاء طلعة الملك الذى هو أمل أمة ناهضة ، ومناط رجاء شعب كامل ، أضف إلى ذلك مافيه من جدّة الرحلة ، وطرافة رؤية تلك الديار التى هى من قديم الزمن ، موضع حديث الـكتاب والشعراء فى كل جيل وكل تاريخ وكل عصر .

أجل . لقد كانت الأمة كلها ، تود أن تـكون وفد نفسها ، لتمثل كيانها بكيانها ، وقد كان كل فرد من أفرادها يود لو أتيحت له النقلة بين طرفة عين وانتباهتها فيكون واحداً من المسافرين . فأما وإن ذلك ليس فى الإمكان ، فقد حلّ محل ذلك الأمل الباسم

شيوع الغبطة بين جميع الأفراد حتى ليأخذ كل منهم نصيبه منها بما يكاد يشعره أنه عضو فيها . ولقد قضى أعضاء الرحلة مدة أسبوع فى العاصمة يتهيأون فيه للسفر ، وهم يتلقون التهانىء الحارة المنبعثة من أعماق قلوب أصدقائهم ومحبيهم ، وأهلهم وذوى عشيرتهم الأدنين وغير الأدنين ، على ماقدره الله لهم من سعادة باختيارهم لتلك الرحلة الطريفة ، وما يترتب عليها من تشرف بلقاء المليك ، ومن ارتياد الديار التى هى بمثابة العرين للأسد ، والتى هى بالنسبة لمن لم يعرفها كالغيب الغامض المجهول ، وحسبك منها أنها الديار التى ربض فيها أسد هـذه المملـكة ، واستشرف منها على ايفاع مملـكته استشراف حاذق لبق .

ذلك بعد أن أشبعنا التاريخ وأسفار الأدب بالروايات المسلسلة عن نجد وماأحاطها به من المناظر والرؤى ، وما نقل عنها من الطرف الرائعة والأحاديث الطليـة الشهية !

أفلا تـكون الرحلة إلى نجد ، مع ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، مغرية جذابة !؟ إلى أقصى حدود الرغبة والإغراء .

هذا هو بعض الشعور العام .

أما كاتب هذه السطور ، فقد كان له شعور خاص لايستطيع التعبير عنـه إجمالاً إلا ما سيرد فى السياق مبعثراً بالنظر لعوامل عديدة ، أهمها صفته المشتركة التى قلنا عنها آنفاً ، أنها صفة الشاعر والـكاتب والصحفى ، فقد كان غرامه بنجد، وشغفه ببادية نجد ، مبعث اشتياق لاحدّ له من التشوف والحنين ، فـكثيراً ما قرأ فى أقوال المتقدمين ، وسير التاريخ ، وسيرة نجد فى القـديم والحديث ، وأخيراً سيرة نجد فى عصر آل سعود عامة ، وفى عصر الملك عبد العزيز مؤسس مجدها الحديث ، ما كوّن فى نفسه فـكرة خاصة عن تلك الديار ، وما أهاج فى نفسه ذلك ، الحنين .

فلا عجب بعد ذلك أن يـكون سروره بالرحلة متناسباً مع ماهو فى نفسه من الشوق إليها ، وبكل مايستطيع أن يشعر به من تـكوين السرور ، وشيوع الاغتباط .

هوامش ـ على ما تقدم

قد تكون الهوامش على ظروف هذه الرحلة وملابساتها ومناسباتها كثيرة ، وقد تأتى هذه الهوامش فى مواضعها من السياق مبعثرة بين السطور ، ولكن الشىء الذى يختص منها بهذا الفصل هو الذى تعمدنا إيراده هنا ، .ولذلك حصرنا حدود الهوامش على ما تقدم ، كما هو واضح فى العنوان !

كان أول رجل من كرام الرجال الذين لقيتهم ، بعد صدور الإذن بالرحلة ، حضرة صاحب السعادة « فلان ! » وهو رجل لا أود ذكر إسمه هنا ـ لأنه جندى مجهول وهو صديق كريم من كبار رجال الحكومة وقد عبّر لى خير تعبير عن شعوره بصفة عامة نحو الرحلة ونحو فكرتها ، وتمجيد ما تفضل به حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله من فكرة الرحلة ومؤازرتها بعطفه وكريم رعايته ، وما أبداه حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل من تأييدها وشمولها بعطفه وجميل عنايته.

وفى اليوم التالى ، اجتمعنا فى منزل « سعادة الشيخ عباس قطان » أمين العاصمة ـ وقتذاك ـ وكان هناك سعادة السيد صالح شطا النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى ، وجرى الحديث مع «أمين العاصمة» وليس هناك حديث غير حديث الرحلة والمشتركين فيها وميعاد سفرها وما إلى ذلك من الشؤون المتعلقة بها ، فقيل لسعادته ألا تشترك فى الرحلة ؟ فقال «إنى شديد الرغبة فى ذلك ، ومن ذا الذى لا يرغب فى رحلة يتشرف فيها بلثم يدى مولاى حضرة صاحب الجلالة الملك ، ولكن العمل فى أمانة العاصمة ، وعلاقة أمانة العاصمة بالجماهير والأسواق والحاجيات ، كل ذلك أو بعضه مما يدعونى إلى التفكير فى الاختيار بين السفر وبين الإقامة !! »

واسترسل الحديث وكانت رغبة الزملاء شديدة فى أن يكون الشيخ عباس قطان زميلا لهم فى السفر لأسباب منها الأنس بشخصه ، ومنها خبرته بشؤون الرحلات ، كما أن رغبته هو الآخر كانت متجهة إلى السفر لأسباب أهمها شرف المثول بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ومنها مرافقة زملائه وكلهم صديق عزيز عليه ، فى رحلة شائقة طريفة كهذه الرحلة .

ولم ينفض المجلس ، حتى كان الشيخ عباس قطان أمين العاصمة ، عضواً فى هذا الرحلة ، ثم لم يلبث أن صار فيما بعد شيخها على الإطلاق .

وفى المساء ، كان كاتب هذه السطور ، يجلس فى بيته إلى مكتبه مغتبطاً بما هو واقع من أمر الرحلة ، فخطر فى باله صديق من أكرم أصدقائه المحببين إلى نفسه ، وهو سعادة الشيخ عبد الرؤوف الصبان عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف ، ـ وقتذاك ـ ومدير الأوقاف وأمين العاصمة ـ الآن ـ وكان فى جدة مقيماً منذ بضعة أيام للاستشفاء وتغيير الهواء ، ولم تمض بضع دقائق حتى كان سلك الهاتف يصلنا ببعضنا ، وإذا بى وجهاً لوجه ، ـ أو أذناً إلى أذن ـ أمام صديقى ذاك بواسطة سلك التلفون.

- ترى ماذا أقول لصديقى ؟ ! لقد زففت إليه نبأ الرحلة ولم يكن يعلم عنها من قبل إلا الأنباء الإجمالية قبل أن تخرج فكرتها إلى حيز التنفيذ وأخيراً أحطته بما وصل إليه أمر الرحلة وأعضائها ، فكان شديد السرور بموضوعها وبإنجازه إلى حيز التنفيذ، وباختيار أعضائها ، ولكن ما هى النتيجة من هذه المحادثة ؟ ! وما هو بيت القصيد منها ؟ ! أما الهدف الذى قصدت إليه ، فقد أجملته لصديقى فى جملة مؤداها ، إن هذه الرحلة لا يمكن أن تفوتك ، وإن فرصتها لا يمكن أن تعوض ، فالبدار البدار ، فأجابنى بالتأمين على ذلك ، وقال «إننى مشترك فيها إن شاء الله ، ولن يفوتنى شرف الحظوة بها ، وبعد يومين أكون بمكة إن شاء الله» ، وانتهى الحديث بيننا بعد تأكيد منى وإجابة منه ، وكان ما أراده الله من تحقيق رغبتى فى مصاحبة صديق عزيز كهذا ،

فى رحلة ممتعة كتلك ، إذ حضر بعد يومين إلى مكة وانضم إلى عضوية الرحلة وزمالة أعضائها .

وكان لهذا الصديق فيما بعد ـ خلال أيام الرحلة ـ شأن معى شخصيا ـ سيأتى ذكره فى محله ، وشأن آخر مع حكومة جلالة المعظم ، سيأتى ذكره أيضا فى محله !

ومضت بضعة أيام، وانتقل موضوع الرحلة إلى المرحلة التالية ، فقدعملت وزارة المالية من جانبها ، أو بالأحرى سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية ، الترتيبات اللازمة للتنفيذ ، وكان لسعادة الشيخ محمد سرور الصبان المدير العام لوزارة المالية النصيب الأوفر فى السهر على تأمين ذلك التنفيذ. وأخذ المسافرون أهبتهم للسفر بعد أن أعلن ميعادها وهو يوم الاثنين ٥ صفر ١٣٦٠ . وما كان هناك من الحديث المستساغ بين الناس فى سرهم أو نجواهم إلا حديثها وموضوعها، خصوصا أعضاء الوفد ومن يمت إليهم بالصلات من ذوى القربى ومن الأصدقاء والمحبين ، كما عهد إلى مدير شركة السيارات الشيخ عبد الحى قزاز بأن يعد السيارات اللازمة لركوب أعضاء الوفد ومن معهم من التوابع والخدم والحاجيات ، فنهض بواجبه خير نهوض بعد أن علم بالساعة التى يتحرك فيها ذلك الموكب الحفيل .

وكان عدد السيارات التى خصصت للوفد كما يأتى ـ : ثلاث سيارات صغيرة لركوب الأعضاء ، وثلاث سيارات كبيرة لركوب التوابع والخدم وحمل الأثقال والأمتعة والأحمال .

أعضاء الوفد المكى

وانتهى تأليف الوفد الذى تقرر سفره من حضرات السادة الأفاضل الآتية أسماؤهم

١ — السيد صالح شطا : النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى

٢ — الشريف شرف رضا : عضو مجلس الوكلاء

٣ — عبد الرؤوف الصبان : عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف[1]

٤ — الشيخ عبدالله الشيبى : عضو مجلس الشورى والسادن الثانى لبيت الله الحرام

٥ — السيد عبد الوهاب : نائب الحرم ومدير الأوقاف (توفى إلى رحمة الله)

٦ — الشيخ عباس قطان : أمين العاصمة ـ حينذاك ـ

٧ — السيد عبيد مدنى : عضو مجلس الشورى

٨ — السيد على فضل : « « (توفى إلى رحمة الله)

٨ — كاتب هذه السطور

وقد رافق السيد صالح شطا أحد ذوى قرابته السيد صادق دحلان كما رافق الشيخ عباس قطان شقيقه عبد الرحمن قطان ورافق الشيخ عبد الله الشيبى نجله زينى الشيبى .

---

(١) وسعادته الآن يشغل منصبي « أمين العاصمة » و « مدير الأوقاف العام »

الفَصْلُ الثَّانِى

ابتداء الرحلة ـ يوم السفر

أصبحت مكة منذ فجر يوم الاثنين ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠ على حركة غير عادية ، وإذا كان هذا الاطلاق غير جائز ، فلا أقل من أن بضعة أحياء من أحياء مكة ، ومئات من أهلها ، قد أصبحوا فى فجر ذلك اليوم إصباحاً غير عادى ، ولم لا يكون ذلك كذلك وهـذا الوفد المكى يزمع السفر فى أصيل ذلك اليوم إلى نجد ، وقد بيّنا فيما تقدم ، الأهمية التى أحدثتها حركة ذلك السفر ، سواء فى نفوس المسافرين ، أو فى نفوس أهلهم وذوى قرابتهم الأدنين وغير الأدنين ، ثم أليس هؤلاء الذين يزمعون السفر ، وهم صفوة من أعيان مكة يمتون بمختلف الصلات إلى كثير من ذوى القربى ، ويمت بمختلف الصلات إليهم الكثير من ذوى القربى ؟ ! ثم أليسوا هم أيضا أصدقاء الكثير من الناس ؟ وأليس الكثير من الناس أصدقاء لهم ؟ !

وإذا كان ذلك صحيحاً ـ وأنه لصحيح ـ فلا نكون أسرفنا فى الإطلاق الذى قلنا فيه أن مكة صحت ذلك اليوم من نومها صحواً غير عادى ، تأهباً لحركة سفر أولئك المسافرين ، وتأهباً لتوديعهم والحفاوة بهم قبل سفرهم .

أجل . كان يوم الاثنين ٥ صفر ، يوماً تاريخياً مشهوداً فى مكة للأسباب التى قدمناها آنفاً ، وقد كان ذلك حقيقة واقعة شهدها الناس رأى العين ، سواء منهم ،

من له صـلة خاصة بأولئك المسافرين أو من لم تربطه بهم غير وشيجة الوطن وجامعة الأخوة الإسلامية .

وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية أشخاص، غير ملحقيهم الخصوصيين الذين ذكرنا أسماءهم ، وكان قد تقرر أن توزع السيارات بنسبة سيارة لكل ثلاثة من الأعضاء ، وقد وقع توزيع السيارات على الأشخاص ، بالصورة الآتية ـ :

سيارة لحضرات : السيد صالح شـــطا ، السيد عبد الوهاب نايب الحرم ، الشيخ عباس قطان ، ومعهم السيد صادق دحلان .

سيارة لحضرات : الشيخ عبـد الله الشيبي ، الشيخ عبد الرؤوف الصبان ، السيد عبيد مدنى ، ومعهم زينى الشيبي .

سيارة لحضرات : الشريف شرف رضا ، السيد على فضل ، فؤاد شاكر ، ومعهم عبد الرحمن قطان .

وبعد صلاة العصر كانت السيارات الصغيرة موزعة على بيوت ركابها وقد اجتمع ركاب كل سيارة فى بيت مختار من بيوت أحد الأعضاء، وكان الأعضاء قد أدوا صلاة العصر فى المسجد الحرام وطافوا بالبيت طواف الوداع ، ونزلوا إلى بيت الشريف شرف رضا الواقع أمام باب المسجد فى انتظار بقية الوفد للاجتماع والسفر بعد تقبّل سلام المودعين الذين كانوا مزدحمين فى المسجد وفى الشارع أمام البيت وفى داخل البيت .

ومن طريف ما وقع فى تلك الساعة الرهيبة ، ساعة السفر والوداع ، أن بحث عن السيد عبد الوهاب نايب الحرم ومدير الأوقاف ـ رحمه الله ـ فوجد فى بيته لازال نائماً ! ! وهنا اهتزت أسلاك التلفون فى غير جدوى ، فذهبت الرسل إلى داره تسأل عنه وتستحثه على الصحو ! ! وتستنجزه موعد السفر ، وكان الموكب متهيأ للسفر ، وكان المودعون قد غصت ببعضهم الطرقات ، وبعض الآخر وهو المهم ، تجشم عناء

الخروج من مكة إلى مراحل كثيرة من أجزاء الطريق ، والوقت علاوة على أنه ضيّق كل الضيق فهو يزداد ضيقا ، لأن الليل وشيك الحلول ، ولأن المودعين ينتظرون فى قلب العاصمة وفى خارجها ... كل ذلك والسيد ... نائم ، كأنما هو قد نسى أن وراءه اليوم سفراً احتشدت له مكة . ولقد أفلحت الرسل فى صحوه ، وها هو ذا قد صحا ، ولكن الاستعداد للسفر أين هو ؟ ! وقد عجز الوفد عن الاتصال به تلفونيا للاطمئنان إلى صحوه أولاً ، وإلى استكمال استعداده للسفر ، فبادر رئيس الوفد إلى إنقاذ الموقف فركب سيادته وذهب بنفسه إليه ، وعلم بأنه صحا ، واستنجزه أمر السفر ، فها هو ذا قد صحا ، ولكن أمامه بعد ذلك ، بعض حاجيات يريد مشتراها فى ذلك الوقت ووراءه بعدذلك زملاؤه ينتظرون على أحر من الجمر ، ووراءه غيرهم مئات من المودعين ، بينهم صفوة رجال الدولة وصفوة المحبين والأصدقاء !! وهم بين مكة وبين الشرايع ... ينتظرون . ألا فانتظروا ... وإلا فلا تنتظروا ...

وأخيراً وفق الله السيد صالح شطا إلى النجاح فى مهمته وهى اكتناف السيد عبدالوهاب من منزله إلى السوق ، ثم إلى المسجد حيث دخلوه من باب العتيق ثم إلى الطواف والخروج من باب الوداع ، حيث كانت الأمة محتشدة ، وحيث كانت الأعناق زائغة والأبصار متطلعة ، والهامات متشوفة متطاولة ... كل ذلك إلى ناحية المسجد ، مشرئبة إلى ناحية القادم منه ، إلى ناحية السيد عبد الوهاب ... وأخيراً ، ها هو ذا قد وصل ، ولكنه وصل فى عبوسة لاتسمح لأحد من الحاضرين أن يسأله ، لم هذا التأخير؟ وما أسبابه !! والسيد إذا غضب ، غضب معه الناس مجاملة لغضبه ، وإذا ابتسم ابتسم معه الناس ـ أيضاً ـ مجاملة لابتسامه !!

إلى الشرايع

وبعد الفراغ من طواف الوداع ، وتوديع المودعين تحرك الموكب قاصداً إلى « الشرايع » ، وهي أول مرحلة من مراحل الطريق بعد مكة ، على مسافة ٢٧ كيلو متراً منها . وفي الطريق إليها في المكان المعروف بالأبطح من أعالي مكة التقى الوفد بنخبة من كبار رجال الدولة كانوا قد سبقونا إليه للتوديع ، وهم أصحاب السعادة الشيخ ابراهيم السليمان رئيس ديوان سمو الأمير فيصل المعظم ، وسعادة الشيخ عبد الله الفضل نائب رئيس مجلس الشورى وسعادة مهدي بك المصلح مدير الأمن العام وغيرهم . وقد ودعهم بعض الرفاق وسافر إلى الشرايع فوراً ، وبقي البعض الآخر مع حضرات هؤلاء المودعين لحظات قصيرة حيث كانت الشمس قد أتمت غروبها في جوف الصحراء ، فوجبت الصلاة ، وصلى كاتب هذه السطور إماماً بالرفاق ! ومن ثم جرى التوديع بين المسافرين والمقيمين ، واستأنفنا المسير إلى الشرايع بعد لحظات وداع حارة رهيبة .

وكانت الشرايع تموج بمن فيها من كرام المودعين من مختلف طبقات الأهلين ، يتقدمهم أعضاء مجلس الشورى ، ومديرو الدوائر ، وكبار الموظفين ، وغيرهم من هيئات المطوفين والهيئات الأخرى ؛ وكان رئيس هيئة المطوفين الشيخ محمد الهرساني قد نصب سرادقاً فخماً لاستقبال الوفد وتوديعه . وقد قضى الوفد مدة الثلاثين دقيقة التي قضاها في الشرايع مغموراً بعطف أولئك المودعين الذين ما خرجوا إلا بعواطف ملتهبة متحمسة ، لغرض نبيل شعّ في نفوسهم فساقها من حيث تشعر أو لا تشعر إلى النهوض بأداء واجبه ، أجل لقد كانت صدور أولئك المودعين الكرام وهم يعدون بالمئات ، تموج بما فيها من عاطفة حساسة ، هي أسمى العواطف ، ذلك بأن

التوديع لم يكن هو وحده الذى بعث ذلك الرهط الكبير على الهجرة من مكة إلى ذلك المكان السحيق ، وتجشم عناء الانتظار والسفر بعض يوم وبعض ليلة ؛ ولكن كان هناك إلى جانب التوديع غرض أسمى قصدوا إليه ، هو تحية المليك العظيم ، وتحميل الوفد آيات الود والولاء لجلالة الملك الجالس على عرش من قلوب أمته .

أجل . ذلك هو الغرض النبيل الذى بعث تلك الوفود المتجمعة على الهجرة وتكبد مشاق السفر .

والشرايع هذه ، منزل قديم للمسافرين إلى الطايف بطريق السيارات ، وهى واد فسيح فيه عيون ماء قديمة كانت فى وقت من الأوقات المتقدمة جنة فيحاء بما تثمره من ثمر ، وما يتضوع فى أرباضها من أريج وزهر ، ثم طغت عليها العصور المتجنية ، والأيام المتقلبة ، فأحالتها إلى ما يشبه الجدب ، وأخيراً تنضر عهدها فى عصر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بسبب كثرة السفر إلى الطايف ـ المصيف المعروف ـ فأقيمت فيها المقاهى وعمرت بالمسافرين بين مكة والطايف ونجد وغيرها من الجهات المترامية فى شرق المملكة العربية السعودية ، وتطور أمرها أخيراً فى عهد حكومة صاحب الجلالة بأن أنشىء فيها مركز حكومى للشرطة ، ومركز للتليفون ، ومركز للإسعاف النقلى تابع لشركة السيارات ، وكثرت فيها حركة العمران ؛ ثم زاد الله فى عمرانها وصلاحها فتعهدها معالى وزير المالية وشقيقه سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية فالتفت إلى عيونها المحطمة ، ومياهها الغائرة فى باطن الأرض ، وجدبها الماحل ، وابتعث من ذلك كله إصلاحاً جديداً شاملاً نهض بالشرايع فجعلها اليوم غيرها بالأمس ، حيث تعهد بزراعة مساحات شاسعة من أراضيها وبنى بها بعض المبانى الفخمة وجلب إليها الفلاحة والماشية ، فإذا بها لا تنتج محصولاً زراعياً فحسب، بل كان لعناية محصول مواشيها من الألبان ومشتقاتها من جبن وغيره بالطرق الفنية الحديثة والآلات ، أوفى نصيب .

وها هى ذى الشرايع ، تتوافد محصولاتها فى الصباح الباكر من كل يوم على مكة ، فتساهم بنصيبها الوافر فى تغذية العاصمة المكية التى هى كما قال الله تعالى واد غير زرع . فجزى الله خيراً كل من ساهم فى رفاهية تلك البلاد المقدسة والوافدين عليها من المسلمين ؛ وجزى الله خيراً كل من ساهم فى تعمير الأرض ، وإحياء مواتها بإذن الله .

وعلى من يريد أن يعرف الفرق بين ما كانت عليه الشرايع قبل أعوام قليلة خلت ، وبين ما هى عليه اليوم ، فليراجع كتاب منزل الوحى فى صفحة ٢٩٦ حيث يجد فيه مانصه :

« وتخطت السيارة محلة الشرايع فى مضيق بين جبلين ، وتابعت سيرها حتى بلغت الزيمه ، ووقفت السيارة عند مستوقف النظر فى تهامة كلها ، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر .

«لقد رأينا بالشرايع أغراساً دعوها بستاناً فلم نحفل به ، أما هنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدراً من الجبال يسقى بساتين عدة ورأينا أشجار الموز تكظ بعض هذه البساتين والنفس مبتهجة مارأت الماء والخضرة » . انتهى

أما الحال اليوم فهو على النقيض ، إذ أن عمران الشرايع وازدهار خصوبتها جعلها تتقدم فى الأهمية على الزيمه بمراحل كثيرة .

البدر والفجر ـ فى الشرايع

هذه الأبيات قيلت فى هذا المكان ـ الشرايع ـ فى ليلة مقمرة من ليالى التمام ، ونرى من الأمانة للتاريخ أن نضعها فى موضعها المناسب :

أقبـــل الفجر ساحباً أذياله ... أىّ معنى تفيض منه الجلالة ؟!
أقبل الفجر ضاحك السن يختا ... ل ، ويبدى على النفوس اختياله
أيقظ الليـل بدره فهو صاح ... وأتى فجره ، فوارى هـــلاله
أى نور من أنوَر الـكون يسطيـ ... ـع عليـه صبراً ، ويرجو نواله
حسبه أنه المسيّر بالشمـ ... ـس ومن وصفه رسول الغزاله[1]
قيل بدر فقلت من أين للبدر ... ر جمال ، والصبح أبدى جماله
عبقرىّ الألحان ، تسمع فيه الـ ... ـطير تشدو وتستفىء ظلاله

* * *

أقبل الفجر فالدجى مكفهر ... شاحب الوجه ، ساحباً أذياله
ممعناً فى الفرار كالفارس المهـ ... ـزوم ألقى إلى الفرار عقاله
روّعته هزيمـــة الكر والفر ... فألوى ! فأين منـه البسالة !!
وتبدّت من الصباح تباشير ... كحسناء أقبلت فى غلاله
لو رأيت المرآة إذ تصف النو ... ر فتبدى على سناها خياله
إنه الصبح قد تنفس فى الليـل ... وما الليل بعـــد إلا ذباله !!
غمرته أنواره البيض حتى ... هزل الليل ثم وارى هزاله

---

(١) الغزاله اسم من أسماء الشمس .

فى السيل

وبعد ذلك سار الموكب قاصداً إلى السيل ، وهو المرحلة التالية والوسطى، الواقعة بين الشرايع وبين عشيرة المحطة الرئيسية لنزول الوفد واستراحته ، والمسافة إليها ٧٧ كيلو متراً من مكة .

وفى الساعة الثالثة مساء وصل الموكب إلى السيل ، وهو الوادى الجميل الذى يقع فى سطح مرتفع كبير يبتدئ من عشرين كيلو متراً فى صعود اصطلح على تسميته « البيهتاه » ، وهو محاط بسلسلة تكوّن شبه استدارة من الجبال المحيطة به وصار الوادى مصباً للأمطار المنهمرة على تلك الجبال ومسيلاً لها ، ولذلك عرف باسم السيل، ذلك بأن مجرى ماء السيل لا يكاد ينقطع منـه أكثر أيام السنة ؛ بل هو فى السنين الممطرة يستمر متصلاً فى جريانه أكثر العام ، وفيـه قليل من المزارع والحدائق المثمرة ولكن على بعد عشرات قليلة متفاوتة من الأميال توجد مزارع وحدائق أخرى مثمرة أكثر منه اتساعاً وثمراً ، ومن أبرز ثمره نوع من التمر يسمى «رطب العقرب» واحدته تشبه الخيارة المكورة ، ولعلها تنسب إلى وادى عقرب ، وهو يقع إلى شرق الطايف بعد قليل من أم المحض أو أم الحمد .

وبالنظر لأن الوادى المذكور يقع فى نصف الطريق تقريباً بين مكة والطايف ، وهو فى منزلة وسطى من الارتفاع بالنسبة للطايف ، وبالنسبة لجودة مناخه فقد اتخذه المسافرون محطاً لنزولهم وتبديل هوائهم واستراحتهم أثناء رحلتهم بين مكة والطايف من قديم الزمان ؛ وكان إلى جانب ذلك مكتسباً أهميته من سبب آخر هو أنه يحرم منه القادمون إلى مكة عن طريقه .

والسيل واد جميل المناخ ، وقد قيل عنه أنه منزل سوق عكاظ وثبت على هـذا

الرأى كثير من الباحثين وتشكك فيه آخرون ، وقد عنى سعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى زيارته للبلاد المقدسة وفى كتابه منزل الوحى، عناية خاصة ببحث موضع هذا المحط المسمى السيل ، وما قيـل من أنه منزل سوق عكاظ المشهور ، وهو وإن لم يقطع بذلك كغيره من الباحثين إلا أنه مما لاشك فيه أن هذا المنزل التاريخى له شأن منـذ أقدم العصور فى كونه مثابة للعرب فى جاهليتهم وإسلامهم ـ فيما تقدم ـ كما له شأن اليوم جعله مميزاً بين منازل البادية فى أنحاء المملـكة العربية السعودية . والسبب لذلك ـ فى نظرى ـ يرجع أولاً إلى جودة مناخ الوادى ، وتوسطه البادية ، ونسبة ارتفاعه المعقولة ، وأنه ملتقى خطوط سفرية كثيراً كالطايف ونجد عموما وغيرها ، وبالجملة فهو ملتقى خطوط المسافرين المتنقلين من شرق المملـكة وشمالها الشرقى وجنوبها الشرقى أيضاً ويصل بين بعض أجزاء تهامة .

ولقد كان هذا المـكان كغيره من أمكنة البادية ـ المهملة ـ سابقاً ولـكن فى عهد حكومة جلالة الملك ، أنشىء فيـه خط تليفونى وصله بمكة والطايف وغيرها ، وأقيمت فيه مظاهر للعمران كالأبنية والمقاهى والحوانيت الصغيرة ، ولولا تشدد أهله وحرصهم على دفع المنافسة عنهم واسترحامهم ذلك من لدن صاحب الجلالة لعمر السيل إلى أكثر من ذلك ، وبرغم هذه العقبة الموقوتة فلا بد لهذا المـكان ـ بجودة مناخه وحسن موقعه ـ أن يصارع أهله ويظفر بخذلانهم ويتقدم عنهم إلى مراحل بعيـدة من التطور والعمران ، ذلك بأن مناخ السيل يغرى على الإقامة والبهجة لأن كثيراً من القاصدين إلى مصيف الطايف يكرهون على السفر إليه فراراً من حر مكة أو التماساً لجو الطايف ، ولـكن ارتفاع الطايف وهو يبلغ ستة آلاف قدم على الأقل يجعل بعض المرضى وذوى الأمزجة الخاصة يفضلون مكاناً كالسيل لايبلغ إلى غير نصف هذا الرقم من الارتفاع .

إلى العشيرة

تقع العشيرة شمال الطايف على مسافة تزيد على ستين ميلا منها ، وهى شمال السيل وواصل الموكب سفره من السيل إلى عشيرة والمسافة بينهما ٣٥ كيلومتراً ومجموع المسافة بين مكة وعشيرة ١١٢ كيلو متراً ، وقد استأنف الموكب سفره من السيل فى الساعة الثالثة والربع تقريباً ، فبلغ عشيرة فى الساعة الرابعة والنصف ليلاً ،وقد ترجع لوعورة هذا الجانب من الطريق ، وللبطء الذى سرنا به اقتضاء لما يتطلبه الليل من هدوء ، بعض الأسباب التى جعلتنا نصل متأخرين إلى عشيرة بعض التأخير . ويكاد يكون هذا الجزء من الطريق أى الواقع بين السيل وعشيرة ، هو أوعر أجزاء الطريق بين مكة والرياض ، نظراً لأنه يقع فى سفوح جبال متصلة ، وأحياناً يصعّد إلى هضبات عالية شبه الجبال ، إن لم تكن هى الجبال بعينها !

هذه العشيرة ! وهذا نورها المضىء قد بدا فأربى على نور القمر الخافت الذى لم يزل وليداً فى مهده ، فنحن فى الليلة السادسة من الشهر ، والهلال لازال يتدرج من مهد الطفولة وقد اختفى أو هو فى طريق الاختفاء وراء الجبال المحيطة بنا ، وبعض الرفاق هوّم فى سيارته من سهر الليل وتعب ذلك النهار المضنى . ولكن ماكاد ضوء عشيرة يلوح من بُعد ، بعد أن كنا نترقب الوصول إليها ، ونتطلّع إلى نورها حتى انتعشت فى الرفاق روح المرح ، وهبت فى نفوسهم عاصفة النشاط ، فتخابروا بين بعضهم ، هذه عشيرة ، هذا نورها ! هل هو كذلك أم الضوء نور سيارة قادمة ؟! كلا بل هى عشيرة على التحقيق !! فالضوء ثابت لم يتحرك ، وها نحن نقترب منه دون أن يقترب منا !! ولم يطل اللجاج فى هذا التحقيق ، حتى كنا وجهاً لوجه أمام تلك الهضبات العالية من الحرار السوداء ، وهى الميزة التى امتاز بها ذلك الوادى ، بل

هى البشير الذى يبشر المسافر من مسافة بعيدة بأنه فى عشيرة أو على مقربة منها ، ذلك بأن حول عشيرة سلسلة من هضبات سوداء ، تـكاد تـكوّن سلسلة محيطة بها من الحرار القائمة الصعبة المرتقى ، ولو كنا قادمين إلى عشيرة فى وضح النهار ، أو لو كان القمر كاملاً فى سطوعه ، لتسنّى لنا أن نرى عشيرة من مسافة بعيدة مميزة بتلك الهضبات السود المرتفعة .

وكانت سيارات الحمل والأمتعة والخدم قد سبقتنا إلى عشيرة ، فلم نبلغها ، حتى كانت المضارب منصوبة ، والسرج موقدة ، والأرض مفروشة ، والطعام مطهياً ، ولا أبالغ إذا قلت أنه كان فيها من سبقنا إليهـا من كرام المودعين الذين أبت عليهم أريحيتهم ومروءتهم إلا أن يكون وداعهم لنا من ذلك المـكان القصى السحيق! وكان لقاء جميل من أولئك الأصحاب الذين فوجئنا بمرآهم ، بعد أن كنا قد لقينا من سفرنا نصباً ، وبعد أن كنا قد كابدنا منتهى التعب منذ فجر ذلك اليوم إلى مايقارب منتصف ليله ! ولم نلبث أن زال من أجفاننا ذلك الخيال الذى كان يداعبها من قبل ، خيـال التهويم والاغفاء ، ولم نلبث أن زال من أجسامنا ذلك التعب المضنى الذى كنا نشعر به من قبل ، أو قد خيل إلينا أنه زال ! وألقينا بأنفسنا فوق الأرض الوثيرة بداخل الخيام ، وانقسم الوفد إلى ثلاث خيام ، ولـكن اجتمع الجميع فى خيمة واحدة ، لثلاثة أشياء هى السمر ، وتناول العشاء ، وطلب الدفء ، وكان البرد شديداً ، شديداً إلى درجة مزعجة .

أجل . هذه عشيرة ، وهى أول مرحلة تنزل للمبيت فيهـا من مراحل الطريق ، وهى أول ليلة نبيت فيها غرباء عن أهلنا ومنازلنا ، أجل هذا البرد الشديد القارس ، ولئن جاز الاحتماء منـه فى داخل الخيمة واللجوء إلى الدفء تحت الفراش الوثير ، فـكيف الفرار منه فى عمل لاينجى فيـه الفرار ! فالوضوء أمر لا بد

منه للصلاة، وليس هناك من الأعذار ماهو متاح لاستبداله بالتيمّم ، وها هو ذا طعام العشاء قد دنا وقد صف الخوان ، ولو استذكرت أذهاننا ماسنلاقى بعد تناوله من الماء فى غسيل اليدين لأضربنا عن تناول الطعام ، ولكففنا عن الأكل اتقاء المشقة التى عانيناها فى الغسيل ! وهناك شىء ثالث لاحيلة فى احتماله ، فاستعمال الماء من الخارج أمر إن جاز تلافيه وأمكن تداركه ، فكيف يمكن تلافى استعمال الماء من الداخل ، فنحن إذ نتناول الطعام ، لا يمكن إغفال الحاجة إلى تناول شربة من الماء ، وكيف السبيل إلى تناول شربة الماء ، والمرء لا يكاد يستطيع لمس الإناء الذى فيه الماء من خارجه ، فما بالك بما فى داخله ؟ !

لقد كان البرد شديداً إلى هذه الدرجة وإلى أشد منها ، فلا تظنن المبالغة فيما أقول فنحن فى طرف من وادى ركبه الذى هو من نجد إن لم يكن هو بذاته نجد على التحقيق ، ونحن على ارتفاع هائل من سطح البحر ، ونحن بعد ذلك كله فى صحراء وفى برودة ليل وليس لنا ما يقينا من البيوت الحجارة الدافئة غير تلك الخيام التى أن منعت شيئاً فلا تمنع أشياء ! ومع ذلك فقد كان ائتناس الجماعة لا يعد له ائتناس ، وكانت روح البشر والمرح والسرور ، مرفرفة عليهم جميعاً إلى أقصى حد ، والجميع يتبادلون أحاديث الود كإخوان الصفا على مائدة واحدة وفى خيمة واحدة ، هى خيمة السمر العذب الشهىّ الممتع المشتهى ، فمن كان فى حاجة إلى السمر والتزوّد من الفكاهات البريئة التى تبعث النشاط ، ظل فى خيمة السمر ، وإلا فهذا يختلف إلى خيمته الخاصة ليأوى إلى فراشه قليلا ، أو يعمد إلى المطهى ليلهو مع من فيه قليلا ، أو إلى المقهى، أو إلى غيره ، وكان قطب الرحى فى خيمة السمر، هو السيد عبدالوهاب نايب الحرم ومدير الأوقاف ـ رحمه الله ـ فمنه تسمع عقداً متصلا من القصص والحكايات والأحاديث والنوادر والفكاهات والملح ، وهذا العقد لا ينفرط منظومه ، أو أنك لا تستطيع أن تفض نظمه ، ومهما شئت أن تسمع فلتسمع وأنت غير ملول،

وسترى فيما بعد من سياق هذه الرحلة أنك مع رجل من طراز فذ عجيب ، هو مجموعة من كل شيء ، مجموعة من الجد والرزانة ، مجموعة من الفكاهة والدعابة ، مجموعة الأحاديث والأقاصيص ، فإن شئته راوية داعية ، وإن شئته حافظة واعية، لا تنسى ما مر بها من الحوادث منذ نصف قرن من الزمان .

وسجا الليل وانتصف ونحن من ذلك السمر الممتع فى تزيّد ، وكلما ذكرنا البرد وشدته ، وحاجة الواحد منا إلى الخروج خارج الخيمة ارتعدت فرائصنا فرقاً وإشفاقاً !! والويل كل الويل لمن يعرض له قضاء حاجة ، فيضطر إلى أن يضرب فى عرض تلك الصحراء الباردة ، وإلى أن يتحمّل من أذى الماء البارد ما لا يطيق !

وانقضى ذلك الليل وأصبحنا من الفجر على صوت مؤذن الركب وإمامه ، وهو فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى السادن لبيت الله الحرام ، وكابدنا من أذى الماء البارد وأذى البرد فى الوضوء أشد مما كابدناه من برد الليل ، ذلك إلى جانب برد الصباح . ولكن الله أكرم بنا وأعطف علينا من أن يتركنا نهباً لذلك الجو القارس، فها هى ذى الشمس تشرق علينا وتبعث من حرارة ضوئها إلينا بصيصا من الدفء لا يكاد يذكر فى أول الأمر ، حتى تغلّب سلطان الشمس على طراوة ذلك الجو البارد فانتشرت حرارتها وهيمنت بسلطانها الواسع على أجواء تلك الصحراء فإذا نحن فى نهار ضاح . وجو مشمس مشرق كاد ينسينا رطوبة برد ذلك الليل الفائت . وخرجنا إلى الصحراء للتمتع بمنظرها الفاتن وجمالها الخلاّب ، وأخذنا فى تسلّق بعض هضابها وحرارها السوداء المرتفعة مدة تلك الاصباحة الضاحية ، ثم عدنا إلى الخيام حيث كان طعام الافطار مهيئا فتناولناه بين أحاديث المرح والدعابات الحلوة البريئة .

وعاد مجلس السمر فالتأم من جديد فى خيمة السمر ، وتصدّر السيد عبد الوهاب مكانه ــ رحمه الله ــ من صدارة النادى ، يفيض من أشهى الأحاديث وأعذب القصص

وأغرب الروايات ، وقد قضينا فى تلك الندوة بضع ساعات حتى أذن مؤذن الظهر فصلينا فريضته ، وكان طعام الغذاء قد هيئ ومدّت موائده فى إحـدى الخيمات ، فبادرنا إليه جائعين خافتين !! ومن ثم أوينا إلى القيلولة ، وعمدنا إلى الراحة فاضطجع كل فى فراشـــه منهم من يطلب الراحة بالنوم ، ومنهم من يطلب النشاط بالقراءة والاستذكار وتسلية الوقت حتى انقشعت الظهيرة وأذن مؤذن العصر . وبعـد أداء الصلات وبعد أن نشطت أجسامنا من عقالها عمد البعض إلى التنزه فى الصحراء وحول الخيام ومنا من صعد إلى ربوة عالية من تلك الربى ليضرب ببصره فى كبد الصحراء .

ولقد كان من حزم الأمور فى تلك الساعة أن صدرت أوامر قيادة الركب بجمع الأمتعة وحزمها ، وجمع الخيام المنصوبة وتصفيفها فى السيارات ، وإعداد كل شىء للسفر ، وفى تمام الساعة الحادية عشرة ونصف ، أى قبل صلاة المغرب بنصف ساعة تحرك الموكب من العشيرة قاصـداً إلى المويه ، وهى المرحلة التى تلى العشيرة فى طريق نجد .

إلى المويه

غادرنا العشيرة إلى المويه ، وكان فى صحبتنا النيران ، الشمس والقمر ، وكانت صحبتهما لنا قصيرة الأمد ، وكان كل منهما فى حالة يرثى لها ، فالشمس هزيلة ناحلة ، مصفرة ضامرة ، ليس بينها وبين المغيب غير ثلاثين دقيقة ، وقد كان ذلك ، وانتهت صحبتها معنا بعد تلك الثلاثين من الدقائق . وأما القمر ، فبرغم أنه كان مقبلاً على شبابه ويسير إلى اكتماله بخطى وئيدة متزنة ، إلا أنه كان قد جاوز حدود الطفولة بقليل ، فنحن فى الليلة السابعة من الشهر ، فهو إذاً فى أقل من نصف كماله ، وصحبته معنا لن تدوم إلى أكثر من نصف الليل ، بل هى لاتكاد تبلغ ذلك ، ولكنه على كل حال هو صديق السفر المؤنس ، وهو خير صديق للمسافر فى الليل ، ولقد خلع هذا القمر الصغير على الصحراء جمالا ، كما خلعت الصحراء عليه جمالاً أيضاً ، فكان كلاهما جزء متمم للآخر فى الجمال الذى نشاهده نحن ونحس بأنسه ، وننعم به عن قرب، والكثير من الناس فى الحواضر وفى العواصم ، فى غفلة عنه ولهو ، يمر القمر من طفولته إلى اكتماله وهم عنه غافلون ، بما حجبته أضواء المدنية الخلابة ، عن عيونهم فحرمتهم جلوة الاستمتاع بمثل هذا الجمال المنقطع النظير .

إن الصحراء موحشة ! وهى موحشة فى رابعة النهار ، فما بالك بها فى الليل؟! أنها لاشك أشد إيحاشاً ؛ ولكن الصحراء على وحشتها مصدر من مصادر الجمال الطبيعى الذى خلقه الله نوراً فى أبصار عباده ، وهى مصدر من مصادر توحيد الله الذى خلقه الله نوراً فى بصائر عباده ، فكما هى نور فى البصر يبعث فى النفس الجمال فهى كذلك نور فى البصيرة يبعث القلب على التوحيد . فالصحراء التى هذه صفتها على ما فيها من وحشة ، ما بالك بها والقمر مشرقاً على آفاقها وأرجائها ، يبدد وحشتها

ويبدلها بالأنس والضوء اللامع ، الذى يكشف لك فى جنح الليـل البهيم عن الأبعاد الشاسعة المترامية عن يمينك وعن يسارك ، فتمتع عينيك بما فى هذا المرآى من مناظر خلابة ، وتجلو بصرك بما فى هذه الأبعاد من جمال ، وتملأ بصيرتك بما فى جمالها من يقين .

لقد كانت الرحلة من العشيرة إلى المويه فى تلك الليلة ، من أهنأ أجزاء الرحلة ، وكانت الليلة من أجمل الليالى ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها ، هـذا المنظر الذى أسلفنا وصفه ، وما ما سيأتى ذكره فيما يلى :

كانت المسافة من عشيرة إلى المويه ١٦٠ كيلو متراً ، فهى إذاً مرحلة طويلة وشاقة ، وعلى الأخص ، على من سيقطعها دفعة واحدة ، فكثيراً ما قيل لنا أنهـا تقطع فى ساعات أربع ، ولكننا على الوصف الآنف الذكر مشينا مأخوذين بمناظر هذا الجمال ، فى أرض فسيحة لاتبصر العين فيهـا حجراً فوق حجر ، فلا جبال ولا هضاب ، وليس هناك غير خد فسيح لا أول له ولا آخر ، وكانت سهولة الطريق إلى هذا الحد ، مما زاد فى جمال الرحلة وجمال الليلة ، وجمال القمر ، فكثيراً ما كنا نسير على سرعة الثمانين كيلو متراً فى جوف ذلك الليل البهيم فى غير خشية ولا وجل ولست أبالغ إذا قلت أن هـذا الجزء من الطريق ، هو أسهلها وأيسرها على الإطلاق نظراً لفساحة رقعته وامتدادها فى غير وعورة ، فكانت مرحلة هنيئة ممتعة ، لم نشعر فيهـا بنصب ولا تعب ، إلى جانب المتعة الروحية التى غمرت نفوسنا طيلة اجتيازه . وقضينا ثلاث ساعات سوية فى سير متصل مستمر ، بحيث لم نقف فى خلاله إلا دقائق معدودة لقضاء حاجة من حاجات السفر ، كتناول شربة من المـاء أو ما إلى ذلك ، حتى إذا ما بلغت الساعة الثانية والنصف عربية وصلنا إلى المويه، وما أدراك ما المويه!؟ وصلنا إلى قرية صغيرة بما فيها من عشاش وبيوت من الشعر ، ولكنها كبيرة بما فيها

من مظاهر العمران الفخمة الوثيرة ، وتلك حسنة من حسنات هـذا العهد السعودى الزاهر المشرق ، فقد بنت حكومة جلالة الملك فى ذلك المـكان النائى المجهول ، قصراً ملـكياً فخماً لاستراحة حضرة صاحب الجلالة أثناء تنقله فى السفر بين مكة والرياض، وشيدت إلى جانب ذلك القصر استراحة حكومية مؤلفة من قصر فسيح الجنبات ، بسيط المظهر ، ولـكنه كبير النفع عظيم الفائدة ، بالنسبة لما اشتمل عليـه من الغرف الفسيحة التى يتلقاها المسافر ، أو هى تتلقى المسافر كشربة الماء للظمآن ، أو كالواحة فى الوادى المجدب المستعر ، فالمسافر المقبل من بطن الصحراء يشوقه أن يلقى بعد نصبه مثل ذلك البناء الفخم يأوى إليه بعد جهد جهيد .

وصلنا إلى المُويه فى منتصف الساعة الثالثة ليلاً ، ويممنا شطر القصر الذى تقع إلى يساره الاستراحة الحـكومية ، حيث يطلقون كلمة القصر على ذلك البناء جميعه ، واستقبلنا بعض الأهلين الذين بعثت أنوار سياراتنا إلى نفوسهم البشرى بقدومنا ونحن فى ذلك الموكب الحافل ، وقيـل لنا أن هناك أمير القصر هو المعنىّ باستقبال الضيوف ، فأرسلنا من استقدمه إلينا فرحّب بنا أجمل ترحيب ، وقادنا إلى أفخم مكان ينزل فيـه الضيفان ، فشكرنا له جميل عنايته ، ونزل الموكب فى ساحة القصر وأوينا جميعنا إلى غرفة فسيحة الجنبات مترامية الأطراف ، صفت فيهـا أسرتنا ، وجىء لنا بالطعام وتناولناه وأوينا بعـد ذلك إلى الاستراحة فى فرشنا نسمر ونتمتع بالأحاديث الشهية والملح الطريفة ! وكانت سويعات ذقنا فيها لذة الراحة بعد التعب ، ولذنا فيها من عراء الصحراء بنعمة القصر .

ولـكن هناك مشكلة أشبه بمشكلة الليلة الماضية إن لم تزد عليها ، تلك هى مشكلة البرد ! فالبرد هنا كما هو فى المشيرة أو أشد ، والوضوء ، وغسل اليدين بعد الطعام ، واستعمال الماء أمر لامندوحة عنه ولا مفر !! فما العمل إذاً ؟! لابد مما ليس منه بد ، وهكذا قاسينا فى الليل من برد الجو وبرد المـاء الأمرّين ، ولـكنها مقاساة لذيذة ،

ومعاناة محببة مشتهاة ، لأنها فى طاعة الله، ولأن مرح الرحلة وأنسها أضفى عليها منتهى المرح ومنتهى الأنس، وعفا الله عن ذلك الأعرابى الذى ذكرت قصته فى هذه المناسبة.

ذلك أن طارق بن زياد القائد العربى المعروف ، صاحب الخطبة الرنانة المشهورة فى فتح الأندلس ، كان بين جنوده أعرابى أضرّ به البرد فى تلك الأصقاع الباردة ، وتشكى من أذى الماء البارد ، وقد وصل فى فتحه وزحفه إلى جبل يقال له «شلير» فقال:

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم   وشرب الحميّا وهو شىء محرّم
فراراً إلى نار السعير فإنها   أخف علينا من «شلير» وأرحم

وحدث أن الشاعر المعروف حافظ بك إبراهيم رحمه الله ، سافر فى عام ١٩٢٥ إلى إيطاليا ووصل فيها إلى مكان بارد فتذكر بدوره قصة ذلك الأعرابى ، فأنشأ قصيدة يصف بها رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط ، مطلعها :

عاصف يرتمى وموج يغير   أنا بالله منهما أستجير

ثم قال فى صدد قصة ذلك الأعرابى :

ذكرتنى ما قاله عربىّ   طارق أمسى احتواه « شلير »
إن صدر السعير أحنى علينا   من «شلير» وأين منا السعير !

***

ومما زاد فى شدة البرد تلك الليلة أن هطلت مطر خفيفة ، ولكنها برغم أنها زادت الجو برودةً ، فقد زادته جمالاً ، فالمطر فى الصحراء ، آية من آيات الله تضفى عليها جمالا فى المنظر ، وتخلع عليها رواء من الحسن والبهجة .

وفى الصباح الباكر ، بعد أن أدينا فريضة الصلاة ، وتناولنا الطعام ، هممنا بالمسير بعد أن تزودت سياراتنا بالوقود من بنزين وزيت ، من المحطة الحكومية التى أنشئت لهذا الغرض ، واحتشد أهل القرية وعلى رأسهم أميرها لوداعنا ، وفى تمام الساعة الثانية والنصف غادرنا المويه مستأنفين السفر .

الى القاعيـــة

قلت أننا غادرنا المويه فى الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الأربعاء ٧ صفر ١٣٦٠ ، وكان دليلنا فى الطريق ، هو جدول صغير كتبه لنا أحد الأهلين الذين سبق لهم أن ارتادوا هذه الديار ، وفيـه بيان بالمسافات بين كل منزل وآخر ، كما أنه شفعه بمعلومات عن أجواء تلك المنازل وتربتها وصلاحية كل منها لما يلائمها من أحوال السفر كالمبيت والمقيل ، وفيـه إشارات إلى مايصلح منها للقيلولة وما يصلح للمبيت ، ومعلومات عن المياه وما يصلح منها للشرب فى المنازل وما لا يصلح ، وكنا نسترشد بهذا الدليل إلى حد ما فى اختيار الأماكن على ما هو مدون فيـه ، مراعين مايلائم ذوقنا وظروفنا فى السفر ، وكانت تلك المعلومات بعضها قريب للحقيقة وبعضها بعيد عنه ، ولـكنها على كل حال معلومات كانت تؤنسنا فى بعض الأحيان ، وكنا نفزع إليها للتسلية حيناً وللاستدلال حيناً آخر .

وعلى مقتضى مطالعاتنا هـذا الصباح فى الدليل الآنف الذكر ، قررنا أن يكون مبيتنا فى قرية الدوادمى ــ إذا شاء الله ــ برغم أن الشقة إليها بعيدة والسفر طويل ، ولـكننا اعتمدنا الله فى أن نغذ السير حتى نصل إلى المـكان الملائم للمبيت! مسترشدين بالمسافات التى رواها لنا ذلك المرشد ، والتى ظهر فيما بعد أنها تنحرف قليلاً عن الواقع

مشينا من المويه فى الساعة الثانية فى أرض جلد لا أثر فيها للوعورة وفى واد سهل منبسط لا أثر حواليه للجبال ، وكان سيرنا حثيثاً ساعدنا عليـه جو الصباح البارد ، وسهولة الأرض وما كنا نشعر به من نشاط إلى مواصلة السفر بعد راحة الليلة الماضية فى المويه ، وراحة الليلة التى قبلها فى العشيرة ، وفى تمام الساعة الرابعة والنصف عربية أى بعد ساعتين وصلنا إلى محطة تسمى « الدفينة » وهى ليست محطة بالمعنى المعروف

لأن المكان الذى يسمى محطة هو الذى يكون فيه مخزناً آلياً للوقود إلى جانب القرية التى يكون إلى جانبها ، أما محطة الدفينة هذه ، فهى منزل حول بئر من الماء العذب، تستقى منــه البادية ومن حولها من العرب الضاربين أو الرحّل ، وفيها حانوت لبيع بعض الحاجيات الضرورية من تمر وأرز ودهن وغير ذلك . والمسافة من المويه إلى الدفينــة (٨١) كيلو متراً هى التى قطعناها فى ساعتين وقد توقف الركب قليلا فى هذه المحطة انتظاراً لاستــكمال السيارات وبعد دقائق وصلت سيارات الركب جميعه ، فطلب بعضهم الاستراحة قليلا ، ولــكن البعض الآخر احتج على هذا الطلب بحجة أنه لم يمض على ممشانا غير القليل من الوقت ، وأنه إذا كان هذا هو شأننا فى السفر ، نقف كل ساعتين فى منزل من المنازل ونطلب الراحة والأخلاد ، فــكيف يمكن قطع المسافات البعيدة وفى كم من الأيام نحتاج إلى اجتياز هذا الطريق الطويل !

وتبارت حجج الفريقين المتجادلين ، هــذا يقول سيروا بسير ضعفائــكم ؛ وذلك يقول ، السفر كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وغنى عن القول أن الحديث كان يدور بروح الدعابة والمرح ، وبعــد دقائق معدودة استغرقها النقاش وأخذ الرأى ، سارت أول سيارة كانت على الطريق فتبعتها الأخريات ، وانفض المشــكل بعــد أن تحققت رغبة طالبى الاستراحة إلى حد ما بتلك المناقشة التى أخذت من الوقت ربع ساعة كانت هى كل نصيب الجميع من الوقوف فى هذا المنزل ؛ ثم مشينا إلى «عفيف» وهو واد متسع الجنبات تحوطه بعض هضبات تشبه الجبال وفيه محطة آلية للوقود تتزود منها السيارات أثناء سفرها والمسافة من الدفينة إلى عفيف (١١٨) كيلو متراً فهى إذاً مرحلة طويلة .

وقضينا مدة ساعتين ونصف ساعة فى الطريق من الدفينة إلى عفيف ، قطعنا فيها تلك المسافة من غير توقف، فقد كان الطريق كسابقه سهلاً ميسوراً لا أثر للوعورة فيه

وتسعة أجزاء الطريق من مكة إلى الرياض سهل منبسط لا وعورة فيه ولا نصب . وفى الساعة السابعة بعد الظهر ، وصلنا إلى « عفيف » فلم نجد فيها غير محطة البنزين المبنية بالحجر على طراز غرارها من المحطات الأخرى وإلى جانبها حانوت أو حانوتان لتبادل السلع مع سكان البادية ، ذلك كله إلى جانب بئر من الماء العذب يستقى منه سكان تلك المنطقة من البدو الضاربين فى عرضها وفى سفوح هضباتها ببيوتهم الشعر ومن يجتازها من البدو الراحلين فى طلب الكلأ والمرعى ، وتتبع قطرات السماء من الغيث والسحاب .

وصلنا إلى عفيف ، وكان أكثرنا قد ناله بعض التعب ، لطول الشقة التى قطعناها فى هذه المرحلة من غير توقف ، فألقينا بأنفسنا على غرفة مأمور تلك المحطة ، وفى غيرها من غرفات ذلك المبنى الفسيح الذى ضرب عليه سور من البناء الفخم الأنيق فاسترحنا قليلا من الوقت ، ثم قمنا إلى الوضوء والصلاة ، وقلنا لغلامنا آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا !! وقضينا القيلولة فى ذلك المكان بين نوم خفيف ، وبين سمر طريف ، إلى مابعد العصر ، حيث نشطت نفوسنا من عقالها ، فأخذنا نتجول قليلا ، ونعد أنفسنا لاستئناف السفر ، وبعد أن أدينا صلاة المغرب استأنف الموكب المسير من عفيف قاصداً إلى القاعية . وبدأنا من جديد نسترشد بذلك الجدول الذى اتخذناه دليلا لنا على المنازل والمياه ، فعلمنا أن بيننا وبين القاعية مسافة هى ٧٨ كيلومتراً ، وأن بين هذه وبين الدوادمى ٩٩ كيلو متراً أخرى ، فتساءل الرفاق ، هل يمكن قطع مسافة المرحلتين فى مرحلة واحدة ؟! وهل يمكن أن نجتازها وهى تبلغ ١٧٧ كيلومتراً على دفعة واحدة وفى هذه الهدأة من الليل ؟! كان الجواب بنعم ولا ! فهناك من يرغب فى صحبة القمر والسفر ، والصحراء ومنظرها الفاتن الخلاب ، وهناك من لايساوى عنده هذا الجمال ذرة من نوم ، أو خردلة من راحة ، وكلا الفريقين على حق فى تصوره

استناداً إلى مايشعر به فى نفسه من رغبة وبواعث ، فالقوى البنية ، والوافر الصحة ، يفضل الرأى الأول ، لسببين ، أولهما مواصلة السفر وقطع الطريق ، وثانيهما الاستمتاع بجمال الرحلة فى تلك الهدأة من الليل ، وما فيهـا من جمال الصحراء والقمر ، وجدة الديار على الأنظار ، وما فى ذلك كله من طرافة وبهاء ورونق ، والفريق الآخر ، يشعر فى أعماق نفسه بالنصب وعدم القدرة على مواصلة السفر وفقدان النشاط ، فهو يفضل الراحة أولاً والتهويمة اللذيذة التى تعطى الجسم نشاط الراحة وتكسبه لذة الإخلاد ، وهو لذلك يتعالل بمختلف المعاذير التى ينتحلها من خشية طروء خالل على السيارات ، وإنه لايحمد مغبة السفر المتواصل بالليـل اتقاء عوارض الطريق وما إلى ذلك من مختلف المعاذير .

وسار الموكب ، ووجوه الرأى تتقلب كيفما شاءت الأهواء ، حيث يقضى الله أن يكون المبيت !! ومشينا فى طريق لا يكاد يختلف عن سابقه فهو خلو من الوعورة إلا فى بعض مرتفعات خفيفة لاتـكاد تذكر ، وكان الجو صحواً ، والقمر ساطعاً والرحلة ممتعة ، ولم يطل بنا السفر إلى أكثر من ساعتين ذلك الليل المقمر الضاحى الظريف ، حتى قيل لنا إن هذه هى « القاعية » .

وكان الماكر الذى كتب لنا دليل الطريق لنسترشد به ، قد كتب فيـه بعض الإيضاحات الطريفة عن المنازل ومياهها ، ولم يغفل أن يضع إشارة خبيثة إلى مافى بعض المواقع من الهوام والحشرات والزواحف ، فـكان يقول لنا فى دليله أن المحطة الفلانية تصلح للمبيت والنوم لأنها خالية من الحشرات ، وإن المحطة الفلانية لا يستحسن المبيت فيها ، لأن بها أنواع الهوام ، من أمثال العقارب والحيات وبعض الأحناش !!! وكان بعض الرفاق ، وفى مقدمتهم كاتب هـذه السطور ، ممن يهتمون بهذه الملاحظات الدقيقة ويقدرونها حق قدرها ! وسبب هـذا الاهتمام ، يرجع إلى ماورد فى ذلك البيان من الإيضاحات ، ويرجع إلى بعض روايات كثيراً مانسمعها

عن آفات الصحراء وهوامها وحشراتها ، وكانت تلك الروايات على مافيها من مبالغة نعلم حق العلم أنها مبالغة ، لم نستطع أن نغفل من أعماق نفوسنا آثار الوهم الذى تركته فيها تلك الروايات التى كانت جناية أصحابها علينا أنهم آفات الرواة ، إلى جانب آفات الطريق ! وثم ملاحظة أخرى وهى شجاعة كاتب هـذه السطور وأنه يفضل أن يموت مستشهداً فى سبيـل الله وحومة الوغى ، عن أن يغتاله ذو ظفر أو تغتاله ذات ناب !!

وفى القاعية ، تلك المحطة التى قدّر لنا المبيت فيها ونحن على عشرات من الأميال من الدوادمى ، تناولنا طعام العشاء ، ثم جلسنا على عادتنا فى السمر وقطع الوقت بمـا ينثره علينا أساطين الرواة من أحاديث الجد تارة ، والفـكاهة تارة أخرى ، ومختلف الروايات عن الحوادث العامة والخاصة .

وفى الصباح البا كر بعد أداء فريضة الصلاة وتناول طعام الفطور نهض المعسكر كله نهضة رجل واحد ، كل منصرف إلى ماعليه من عمل فى تهيئة الحملة والاستعداد للرحلة . وفى الساعة الثانية من صباح الخميس ٨ صفر ، غادر الوفد القاعية قاصداً إلى المحطة التالية ، وهى « الدوادمى » .

إلى الدوادمى

غادرنا «القاعية» قاصدين إلى «الدوادمى» ، والمسافة بين المحطتين ٩٩ كيلو متراً ، وقد يسّر الله الطريق وسهله علينا فقطعنا هذه المسافة فى مدة ساعتين ، وكان الطريق كسابقه ، سهلا ميسوراً كشأن سهول نجد جميعها .

ولاحت للركب فى ضحوة النهار من بُعد شاسع ، نقطة غائمة صغيرة ، ثم أخذت تتبدد شيئاً فشيئاً حتى انجلت عن منظر نخيل ثبت لدينا بعدها أنها قرية «الدوادمى» وما زالت تدنو منا ، وندنو منها رويداً حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام بناية ضخمة هائلة ، قيل لنا إنها القصر ، أى القصر الملكى الذى يستريح فيه حضرة صاحب الجلالة الملك أثناء سفره بين مكة والرياض . ولكن هذا البناء الضخم الهائل ، يشتمل على أشياء غير القصر ، وإن كان التعبير قد شمل المكان كله بهذا الاسم .

ذلك أن السور الضخم الهائل الذى يراه الناظر من بعيد ، فيحسب أنه سور على قصر واحد ، إنما هو يكاد يشتمل على مدينة صغيرة ! ففى واجهته الرئيسية قصر متواضع لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، يشرفه للاستراحة فيه أثناء سفره بين مكة والرياض ، وحول هذا القصر من جوانبه الأخرى مبان أخرى أعدت لنزول الضيوف من رجال الحاشية ، ولغيرهم من النزلاء الذين يمرون بهذا الطريق فى مختلف الظروف وهى تشتمل على غرف فسيحة بنيت على الطراز العربى وأمامها فتحات سماوية مكشوفة تكسب المكان صحة الشمس والهواء ، وتتوسط هذا البناء الضخم جملة أحوشة سماوية ، وفى جانب منها جناح أرضى خاص أقيم فيه مركز للاسلكى ، يستقبل الإشارات ويرسلها بين مكة والرياض ، ومن ثم بين جميع أجزاء المملكة ، والعالم كله . والسيارات تدخل بحملتها إلى فناء هذا البناء ، وقد أقام سواقوها

ومهندسوها ، ورشة صناعية صغيرة متواضعة فى جانب من ذلك الفناء ، تلجأ إليها كل سيارة فى حاجة إلى الإصلاح مدة إقامتها فى ذلك المنزل، وفى جانب آخر مستقل من ذلك البناء أقيمت محطة آلية للبنزين أسوة بالمحطات الأخرى المتناثرة فى أجزاء هذا الطريق ، تدخل إليها السيارات وتتزود منها بما تحتاج إليه من وقود .

فهذا البناء على الجملة يعتبر كالواحة الخصيبة للمسافر ، بالنظر لما اشتمل عليه من توفير أسباب الراحة ، وعلى الأخص وجود ذلك المركز اللاسلكى الذى يصل ما بين المسافر وما بين أجزاء العالم الأخرى التى يريدها ، وأمام ذلك البناء من الخارج يوجد حانوت أو حانوتان لتبادل السلع بين البادية وقد يتزود منها المسافرون بما يعوزون من حاجات .

وكان أول عمل عملناه بعد وصولنا إلى الدوادمى،أن توجهنا إلى مركزاللاسلكى لنتصل بالعالم عن ذلك الطريق السريع ، فرفعنا أنباء وصولنا إلى جلالة الملك المعظم ، وصاحبي السمو الملكى الأمير سعود ولى العهد ، والأمير فيصل نائب جلالته ، فى برقيات متضمنة أفخم التحيات وأصدق آيات الولاء بمناسبة وصولنا إلى ذلك المكان فى نجد ؛ وفى الحال تلقينا من جلالته ومن صاحبي السمو الملكى الأميرين الجليلين برقيات العطف والترحيب .

وبعد ذلك اتصلنا جميعنا عن طريق ذلك اللاسلكى بأهلينا فى مكة ، فأبرقنا إليهم نبشرهم بوصولنا إلى الداودمى ونسأل عن عن صحتهم ، وكان سرورنا بذلك لا يحد ، وغبطتنا بهذا الاتصال لانهاية لها .

وانتهينا من شؤون اللاسلكى الذى كان الاتصال به أول غايتنا عند وصولنا مباشرة وجعلنا نبحث عن أمتعتنا وعن نزلنا ، فعلمنا أنها نقلت إلى الطابق العلوي

من القصر ، إلى حيث أعد لنا مكان النزول ، فصعدنا إليـه ، فوجدنا غرفة فسيحة الأرجاء ، اتسعت لنا جميعاً ، وقد كانت مفروشة بأحسن الأثاث البسيط ، وعلى غاية من النظافة ، وكانت الأمتعة قد احتلت جانباً كبيراً منها ، وأخذ كل منا مكانه عنـــد متاعه مستلقياً للراحة أو للنوم ! وقضينا سحابة ذلك اليوم فى القصر بعد أن تناولنا فيه طعام الغداء ، وبعد أن أغفت عيون الرفاق بعض الإغفاء .

وبعـد صلاة العصر ، أخذ كل فرد نصيبه من أعمال الاستعداد للرحلة ، وفى الساعة العاشرة تحرك الموكب مستأنفاً السفر .

إلي مرات

كانت أول محطة للنزول والاستراحة بعد الدوادمى، محطة تسمى خف أو الخفيفية وكانت على مسافة ٦١ كيلو متراً من الدوادمى ، وهى مرحلة صغيرة بالنسبة للمراحل المتصلة الأخرى التى قطعناها فى أجزاء هذا الطريق ولـكن كان من المصادفات أن وقع عطل فى إحدى السيارات جعلها عاجزة عن السير السريع ، فتعطلت سيارات الرفاق لأجل إسعافها مجاملة للسيارة المعطلة !! ومن حسن الحظ أن هذا الجزء من الطريق هو الجزء الوعر من الطريق كله بين مكة والرياض ، وأن مأمورى الحـكومة فى الدوادمى اكتشفوا غيره طريقاً سهلاً بين الدوادمى وبين الخفيفية ، وقد سلـكناه فى عودتنا من الرحلة .

وقد حدث أن إحدى السيارات الصغيرة أصيب فيهـا مخزن الماء بحجر شطبه فـكان لايمسك الماء ، فـكانت لذلك تحتاج كل مسافة قصيرة إلى مقدار من الماء لتبريد آلاتها ، ونفذ ما عندنا من الماء فى لحظات قصيرة متتابعة، ولجأنا إلى الصحراء الناضرة المعشبة ، نستنجدها على هـذا الحادث ، ونسألها أن تجود علينا ببعض مافى جوفها من الميـاه ، ولم نـكن على مقربة من منزل من المنازل ، وليس هناك مايشير إلى قرب وجود شيء من ذلك ، ولـكن الصحراء الممطرة الخصبة ، لم تضن علينـا بطلبتنا ، وأبت إلا أن تشاركنا فى ضرائنا كما شاركناها فى بهجتها فى سرائنا ، فإذا بالسائق يغادر السيارة ويتجوّل قليلاً بين تلك الأرض المعشبة ، فيظفر فى جانب منخفض من جوانبها بماء يتدفق استطعنا أن نغترف منه ما ملأ مخزن الماء فى السيارة واستأنفنا المسير ، فلقينا من الله فرجاً يتلوه فرج ، فالفرج الأصغر ، وهو الأول أن قدمت إلينا سيارة من سيارات الرفاق محملة بالماء فقد سبقت إحدي السيارات الصغيرة

إلى إسعافنا ، وكانت دقة الترتيب التى اتخذت فى كيفية المسير وإدارة الرحلة لاتسمح لسيارة ما بالانقطاع ، وكانت كمية الماء التى وردت إلينا ، كفيلة بتسيير السيارة بضعة أميال أخرى ، لقينا عندها الفرج الثانى ، الذى هو الفرج الأكبر ، فقد جادت علينا الصحراء العطوف مرة أخرى وحدبت علينا بما لم يكن فى الحسبان إذ انكشفت أمامنا وعلى حين فجأة عن ورشة صناعية متواضعة فى قلب تلك الصحراء تابعة لشركة السيارات العربية ، فكأن الله سبحانه وتعالى قد أوجد لنا ذلك كرماً منه وفضلا ، وتفصيل ذلك أن إحدى سيارات الشركة العربية للنقل التى تعمل فى هذا الخط ، وقع لها خلل خطير اضطرت معه الشركة إلى أن ترسل مهندساً وسيارة أسعاف لإصلاح السيارة المعطلة ، وكان ذلك قبل وصولنا إلى هذا المكان ببضعة أيام ، وأخذ المهندس يباشر عمله فى إصلاح السيارة المعطلة ، حتى جاءت المصادفة الحسنة بوقوع الخلل فى إحدى سياراتنا على مقربة من مقر ذلك المهندس الذى تشتمل أدواته على ورشة صناعية متواضعة ! وتلك مصادفة حسنة لاشك ، ولا أقصد بالمصادفة الحسنة بالطبع ، وقوع الخلل فى السيارة ، وإنما أقصد وقوع الخلل على مقربة من وجود ورشة صناعية كاملة الأدوات ، ما كان من المقدّر أن نصادفها فى الساعة التى نحن أحوج مانكون إلى ماهو دونها وأقل منها !

وسلمنا السيارة إلى المهندس وجلسنا حوالى ساعتين متكئين إلى جانب من الصحراء المقمرة الصاحية ، نتناول الشاى ونتسامر حتى تم إصلاح السيارة ، فركبنا وتابعنا المسير ، إلى «الخفيفية» وقضينا الليلة كما قضينا سابقاتها مضافا إليها فزع بعض الرفاق وفى مقدمتهم كاتب هذه السطور من إشارة وردت فى بيان الدليل الذى معنا عن وجود الهوام والحشرات بكثرة فى هذه المحطة ! وكان الحديث طويلا فى هذا الموضوع مصحوباً بالدعابات والفكاهات !!

و«الخفيفية» هذه واد مرتفع قليلاً يقع قبيل النفود التى سيأتى الكلام عليها فيما بعد

وكأنها وضعت هـذه المحطة لأهمية خاصة ، ذلك بأن الوارد على النفود أو الصادر عنها ، يحتاج قبل ارتيادها أو بعده للاستعداد لقطعها أو الاستراحة من عناء اجتيازها وهذه الأهمية بمكان . وليس فى هذه المحطة أى شىء من معالم الحياة غير بئر ماء غير سائغ ، يرتاده أهل البادية من البـدو الرحّل ومنتجعى الـكلأ ومن يطلبون المرعى ويقيمون حولها مدة الربيع الناضر .

قضينا الليل هناك ، وكان علينا أن نغادر هذا المـكان قبل شروق الشمس حيث كان أمامنا مرحلة صعبة المراس ، عنيفـة الاجتياز ، هى مرحلة النفود ، وبينها وبين هـذا المـكان سبعة كيلو مترات ، والنفود هى عبارة عن سلسلة من الجبال الرملية الدقيقة الناعمة كالـكحل ، تسفيها الرياح بين كل عشية وضحاها ، وهـذه الرمال تجشم السيارات وآلاتها الجهد الـكثير من المشقة والعناء ، وقل أن تنجو سيارة باجتياز هذا المـكان دون أى تسيخ أقدامها فى أعماق تلك الرمال ، والويل كل الويل ، للسيارة التى يقدّر عليها ذلك ، فإن صعوبة استخراجها تفوق كل مجهود ، وتصرع كل عزيمة ، لهذا رؤى من الحـكمة اجتياز هذه المسافة الرملية فى ذلك الوقت الباكر حين تـكون الرمال هاجدة نائمة ، قبل أن تحركها الرياح وقبل أن توقظها حرارة الشمس . وقد يكون من الغرابة بمكان أن يقال بأن الرمال ترقد فى الليل وتهجد ، والجواب الذى عرفناه من هذه التجارب ، هو أن رطوبة الليل تغمر الرمال الناعمة فتخمدها ، فلا تستيقظ إلا بفعل الرياح المتحركة وما تبعثه فيها أيضاً حرارة الشمس من الصحو !!

وكان من حسن حظنا ونحن نحاول اجتياز تلك المنطقة مستغلين غفلتها ، على الصورة الآنفة الذكر ، أنها كانت قد أمطرت قبل ذلك بأيام قليلة ، وأن الجو مازال بارداً قارساً ، وتلك كلها أسباب تعين على سهولة اجتيازها ، وقد كان! ومنطقة النفود

الرملية هذه يبلغ طولهـا ٢٥ كيلو متراً ، والمسافة كلها من الخفيفية إلى مرات ٨٨ كيلو مترا ، كان يمكن اجتيازها فى ساعة وبعض الساعة ، ولـكن نظراً لصعوبة الرمال الآنفة الذكر ، فقـد قطعنا المسافة فى ساعتين كاملتين مررنا أثناءها ببحار متلاطمة الأمواج من تلك الرمال الدقيقة الناعمة التى كانت كالهضباب المرتفعة أو الجبال المتناثرة المتصلة ، وقد حدثنا الـكثيرون ممن اجتازوا هـذه المنطقة فى فصل الصيف وفى ضحوات أيامه المشمسة الحارة ، أنهم كابدوا أشد العناء فى اجتيازها ، ومن الناس من ظل فيها يوماً أو بعض أيام ، يكابد عناء قطعها بين حمارّة القيظ وشدة النصب . ولـكننا اجتزناها ولله الحمد فى مرحلة سهلة هادئة لانصب فيها ولا لغوب .

ووصلنا إلى « مرات » فى الساعة الثالثة صباحاً ، وكانت هذه هى القرية الثانية التى نصادفها فى طريق نجد والقرية الأولى « الدوادمى » .

تحقيقات تاريخية

كنت طيلة الساعتين التى أمضيناها فى قطع الطريق إلى مرات ، وأنا منشغل عن الرفاق بخيال سبحت فيه ، ثم قصصت نبأه عليهم فى حينه ، وتفصيل ذلك أنه قيل لى إننى سأصادف فى طريقى بلدة امرىء القيس الشاعر ، وهى قرية مرات هـذه ، قرية حامل لواء الشعراء فى الجاهلية وسمعت كثيراً من مثل هذا الكلام من أصدقاء عديدين ممن ارتادوا هـــذا الطريق ، فلما كنت على مقربة من هذه القرية ، تذكرت تلك الأحاديث كلها ، وسبحت منها فى خيال أمير الشعراء وحامل لوائهم «امرىء القيس» وعللت النفس وأنا أشـد ما أكون شوقا بالوقوف على الإطلال الدوارس التى أنجبت ذلك الشاعر الفحل وأخذت من نفسى أتزيد التفكير فى هذا الموضوع ، واختلق له العلالات تأييداً لهذه الروايات التى سمعتها ، وأول علالة اختلقتها لذلك ، هى أننى بحثت فى ذاكراتى شعر امرىء القيس وتذكرت من معلقته قوله ـ :

فتوضح « فالمقراة » لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

وتوضح ، والمقراة ، هما أسماء أماكن يعنيها امرؤ القيس فى قصـيدته فقلت إن المقرات ، هى نفس مرات ، وقد حرفت على ألسنة الرواة من ذلك الزمن إلى اليوم ، وليس بكثير على أربعة عشر قرنا من الزمان أن تلحس « قافاً » واحدة فتتحرف الـكلمة من مقرات إلى مرات ، وقد لحست هذه الأربعة عشر قرنا ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات وغيرهم من كائنات وجمادات ، وزاد هـذا الوهم فى نفسى تأييدا الشطر الثانى من البيت ، والذى يشير إلى عصف الرياح بهذه الأماكن ، فقلت ان الشاعر لم يذكر عصف الرياح إلى جانب اسم بلده هذه ، إلا لما قام حولها من

هضبات تلك الرمال التى اجتزناها قبل قليل ، والتى قلنا إنها تسمّى « النفود » اصطلاحا ، فهناك إذاً تناسب يؤيد هذا الوهم ويكاد يحيله فى نفسى إلى حقيقة ثابتة ، ما دام الأساس صحيحا ، وهو أن هذه بلدة امرىء القيس كما تقول ألسنة الرواة .

وقد ظللت غارقا فى لجج عميقة من التفكير والتأملات ، طيلة المدة التى أمضيتها فى الطريق بين عفيف ومرات ، وسبحت مع امرىء القيس وشعره وعصره ، وقصيدته المعلّقة وغير المعلقة ! ! وتصورت أنى قادم على القرية التى أنجبت حامل لواء الشعر ، والتى احتضنته وليداً ويافعا ، ثم عوّلت على التجوّل فى القرية فلا أترك فيها شبراً من الأرض علّنى أتلمس أثراً من آثار ذلك الفحل العظيم .

وما أفقت من لجج هـذه التأملات إلا على صوت رفيقى فى السيارة الشريف شرف رضا ، وهو يقول لى: هذا هو الكميت ، وفى البادية مثل شائع ، يقول «أرنى الكميت ، أريك مرات » والكميت هـذا هو جبل أحمر اللون ـ وهو غير حلبة الكميت بالطبع ـ ولعله سمّى الكميت لذلك وأنه جاثم على صـدر القرية يحتضنها ، وهو أول ما يباده المسافر بطلعته المهيبة القانية ، فإذا رآه المسافر تباشر بالوصول إلى مرات وأيقن أنه بلغ غايته !

وصلنا إلى مرات فانتحى الجمع مكانا قصيا إلى جانب بئر للمـاء ، وخرجت عن رفاق لا ألوى على شىء قاصداً إلى جهة مجهولة لا أعلمها ، والتقيت بفضيلة الشيخ عبد الله الشيبى أحد زملاء الرحلة ، فقلت له : هذه بلدة « امرىء القيس » فهل لك أن تتجول قليلا فيها ، فقالى لى أجل ونحن فى حاجة إلى معرفة الديار التى نسلكها فى طريقنا ، فهيا ! ومشينا معا متجهين ناحية البلدة ، فوجدنا غلاما يافعا فقلنا له نريد منك أن تجتاز بنا الطريق إلى القرية ، فقال أو تريدون الغدير ؟! وما كنا نعرف أن هناك غديراً ، ولكننا أجبناه بالإيجاب فسار بنا مسافة غير قصيره وكانت تبدو أمامنا

قبل اجتيازها وهى بمرأى منا أنها جد قصيرة ، حتى أتينا جهة من جهات القرية ، وهى مسوّرة بسور مرتفع البناء ولكننا قبل أن ندخل إليها دخلنا إلى بناء آخر مرتفع من فجوة صغيرة فإذا بنا نحن أمام الغدير الذى أرشدنا إليه الغلام ، والغدير المذكور يكاد يشبه بحيرة صغيرة قام على حافاتها شجر الأثل فظلله بأغصانه الوارفة الظلال، وانحنت عليه أغصانه المتهدلة كالحسان نشرن الذوائب وأرخين الشعور وكان هذا أول غدير رأيته فى بادية العرب فأعجبت بجمال منظره أيما إعجاب. وبعد لحظات قصيرة تركنا الغدير ولم نكد نبعد عنه قليلا حتى التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت لاشك أن هذا من أهل القرية ! ! فبدأته السلام ، ثم قلت له يا رجل أهذه قرية امرىء القيس الشاعر المعروف ، فهل عندكم علم به ؟ ! وكان هذا السؤال كافيا لإهاجة الرجل فتدفق كالبحر الزاخر ، يدلى إلىّ بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية ، وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمّى بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور وأن الأول تميمى والآخر كندى ، وأن امرأ القيس التميمى رجل دميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين ، وشاع الخطأ على ألسنة الناس ، ثم ذكر لى أن فى البلدة بئر ماء تسمى بئر ابن الوليد ، وأنها هى البئر التى وقف عليها خالد بن الوليد فى خروجه من المدينة لغزوة وادى حنيفة ، ومصاولة أهل الرودة . وذهبت إلى تلك البئر فوجدتها تقع إلى جانب بستان صغير ووجدت من يستقى عليها فشربت من مائها وسبحت فى لجج الذكريات التاريخية إلى ما وراء عشرات القرون من الزمان . وظل صاحبى هذا يواصل حديثه عن كثير من الذكريات الأدبية والتاريخية ونحن فى طريق عودتنا إلى حيث كان الرفاق ينتظرون ، فلما دنونا من مكان نزلهم استأذن منى وانصرف فسألته عن اسمه فقال إنه عبد الرحمن بن زيد ، وسألنى بدوره ثم قلت له إن لى فى العودة معه

حديثا ومجلسا وتوادعنا إلى اللقاء إن شاء الله بعد أن حملنى سلامه إلى الأمير عبدالعزيز ابن إبراهيم أمير المدينة المنورة سابقا وعضو مجلس الوكلاء حالا .

عدت إلى الرفاق ، فوجدتهم فى حيرة من غيابنا هـذا ، فقصصت عليهم أنباء ما رأيت وما سمعت وأظهرت لهم إعجابى بالبلدة ومشاهدها ، وذكرت مشهد الغدير وقصة خالد بن الوليد ، فقام سعادة السيد صالح شـطا رئيس الوفد وقال اصحبنى إلى ما رأيت وذهبنا معا إلى الغدير وإلى بعض أطراف البلدة ثم عدنا معجبين بما رأيناه . وفى عودتنا من الرياض إلى مكة كانت لى جولة أخرى فى هذه البلدة ومصاحبة طريفة مع ذلك الرجل الذى هو من أهلها سنذكرها فيما بعد .

وأقمنا وسط النهار فى مرات حيث تناولنا فيهـا طعام الغداء واسترحنا مدة من الوقت ، إلى ما بعـد صلاة الظهر بساعة ، ثم قمنا للتجول قليلا والتمتع بمشاهدة ذلك الجبل الذى يحتضن القرية والذى قلنا إنه جبل الـكميت حتى تهيأنا للمسير ، وبعد أن تزودنا من محطة البنزين بالوقود اللازم للطريق غادرنا المـكان قاصدين إلى روضـة الخفس .

وبالطبع ، قد انهار جميع التصورات الخيالية التى قامت فى ذهنى عن امرئ القيس وبلدته ، وخياله وشاعريته ، ومكانه وآثاره ، وذهبت تلك الأوهام سدى بعد التحقيقات التى أجريتها فى القرية ، وتبادلت الحديث فى هذا الموضوع مع زميلى فى الرحلة وفى الشاعرية الأستاذ السيد عبيد مدنى ، الذى أخبرنى بأنه قام فى نفسه من الوهم والتصور مثل ما كان قد قام فى نفسى حتى تبددت تلك الشكوك بما حل محلها من الحقائق .

الى روضة الخفس

تقع قرية مرات هـــذه على مفترق الطرق ، ففى جانبها طريق يؤدى إلى سدير والمجمعة وشقرا ، وطريق آخر يؤدى إلى العويند ، ثم العيينة ، ثم الجبيلة ، ثم الرياض، وطريق آخر يؤدى إلى روضـة الخفس حيث كان المخيام الملـكى ضاربا أطنابه هناك ، وإلى غيرها من الرياض المتناثرة حول اليمامة ، والمسافة من مرات إلى الرياض ١٦٠ كيلومتراً ، كما أن المسافة من مرات إلى المخيام الملـكى تماثل هذا المقدار أيضا .

قلت أننا غادرنا « مرات » فى الساعة الثامنة والربع ، وعدلنا بالطبع عن طريق الرياض إلى طريق الروضة ، أى إلى المخيام الملـكى، وقررنا أن يكون المسير بتسهيل الله وتقديره ، فلا نختار منزلا ولا مبيتا إلا حيثما يتفق لنا أن نـكون ! وتابعنا المسير مدة ساعتين إلى أن وصلنا إلى مكان يسمى شعيب السيل، وهو ممر للسيل تخلفت فيه رمال ناعمة دقيقة ، جعلت اجتيازه من الصعوبة بمكان وهناك وقفنا ننتظر استكمال وصول السيارات جميعها لنشرف على اجتيازها فى ذلك المـكان ، ونطمئن على سلامتها . فلما اجتمعت بعد عشرات من الدقائق أخذنا نرتب اجتيازها واحدة فواحدة ، وهى تخترق تلك البحيرة الصغيرة من الرمل الدقيق ، حتى تم اجتيازها كلها فى مدة غير قصيرة من الوقت ، وغير طويلة أيضا !!

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فاستأنفنا المسير ساعة بعـد المغرب حيث وصلنا إلى مكان مجهول قررنا أن يكون المبيت فيه ، لأن الرأى اتفق على أن لا ندخل إلى الروضة ليلا ، وإن دخولنا إليها يجب أن يكون صباحا مع ضوء النهار .

وتوقفنا عن المسير فى سطح واد مرتفع قليل تقوم حوله بعض الأعشاب وفى خلال



وتناولنا بعد ذلك طعام الفطور وأخذنا نستعد لاستئناف الرحلة وليس منا إلا من هو مأخوذ بروعة اللقاء ، مغمور ببهجة الغبطة والسرور حتى لكأن لحظات تلك اللذة الطريفة التى كنا نشعر بها ساعتئذ ، من السويعات السعيدة التى قلما يصادفها الإنسان فى حياته ، اللهم إلا فى مناسبات كهذه المناسبات إذا أتيحت ، وهى قليلة المواتاه !

وبعد لحظات قصيرة حملت السيارات بما كان عليها تحمله من الأمتعة ولفت الخيام فى مدارجها ، وركبنا سياراتنا ويممنا شطر المخيام الملكى أو ذلك روضة «الخفس» وكان فى صباح يوم السبت ١١ صفر سنة ١٣٦٠ ، وجدّت السيارات بنا المسير مدة ساعة من الزمن ونحن كلنا لهفة وتطلّع ، نضرب بأبصارنا فى طول الفضاء وعرض الأفق ، كأننا نبحث عن شىء نتوقع أن نراه بين الفينة والفينة ، وما هناك من شىء غير ارتقاب رؤية المخيام الملكى العامر ، الذى يتوج عرينه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله .

الفصل الثالث

فى عرين الأسد
أو
المخيام الملكى

قلت إننا قطعنا ساعة من الزمن ، فى الرحلة من « مدج العود » أو « روضة الذبحة » التى بتنا فيها ، ولكنها ساعة كادت تكون حيناً من الدهر لما أحسسنا به من طولها الذى أربى على ليل امرئ القيس[1] أو ليالى النابغة الذبيانى ، ومع أن ساعات السرور والغبطة لاتكون إلا قصاراً خاطفة تنقضى وتمضى فى مثل لمح البصر ، إلا أن ساعة سرورنا هذه كانت مقرونة بالتطلّع والارتقاب فلهذا كانت طويلة ممضة ، نفد معها الصبر كل النفاد ، ونحن على حق فى ذلك الشموز لأسباب

(١) كان امرؤ القيس خير شكا طول الليل فى معلقته لقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

والنابغة الذبيانى حين شرده النعمان بن المنذر ، شكا لياليه وطولها فى أبيات منها :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع

كثيرة يكفى منها أننا أمضينا ستة أيام بلياليها فى سفر متواصل وتنقل مستمر ، وهذه غايتنا من السفر قد شارفت البلوغ ، ولـكن دون البلوغ إليها ستون دقيقة كان يصح أن تمر بنا أو أن نمر بها مر الـكرام !! لولا أنه كان فيها بيت القصيد ، ومنتهى الأمل ، وأقصى الغاية ، والأمل كل الأمل ، والغاية كل الغاية ، هى الحظوة باجتلاء طلعة المليك المظيم .

وتغلّب الصبر على الضجر ، وانقضت تلك الساعة الطويلة ، ولاح لنا جبـل فى صدر الوادى كنا ننحدر إليه ، وما زلنا نغذ إليه السير ونحن مساقون بخطوط الطريق، دون أن نعـلم أن وراءه عرين الأسد حيث ربض ليث الجزيرة المغوار ، واستدرنا استدارة حول الجبل بعـد أن شارفناه ، ثم انفتح الطريق مرة أخرى عن واد فسيح الجنبات زيّنت أرضه المترامية بالأعشاب الناضرة الزاهيـة المتأرجة ، والحصباء الملونة اللامعة كأنه ذلك الوادى الذى قيل فيه :

وواد ترتع الأبصار فيـه سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحـه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ، ويأذن للنسيم ...
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ومن وسط ذلك الوادى البهيج ، خفقت القلوب ، واشرأبت الأبصار ، فقـد لاح للعيون مرآى خيام بيضاء تناثرت كأجنحة الحمائم البيض ، فى نهاية ذلك الوادى الذى كنا نسير إليه . فقلنا إنها الخيام الملـكى من غير شك ! وهنا توقف الركب عن المسير ، ووقفنا لحظة نتطلع إلى رؤية الخيام ، ونرمقه بأبصارنا ، ونحن مأخوذون بعاطفة الفرح والبهجة والاغتباط ، ثم عمدنا إلى تغيير ملابسنا التى كنا نرتديها فى الطريق ، ونصلح هندامنا بعد أن أزلنا عن وجوهنا غبار السفر برشاشات من الماء

المعطر الزكى ، كان يحمله معه رجل الأناقة والظرف الشيخ عبد الرؤوف الصبان الذى يمثل الشباب فى الشيخوخة!! بما كان يحمله معه من كماليات التطرية فى السفر ، وكان هذا الماء المعطر الذكى فيما يحمل من تلك الأدوات الطريفة ، وهو فى زجاجة رشاشة لاتكلفك أكثر من تحريك لولبها حتى تغمرك بذلك الماء البارد المعطر الذى يزيل الأتربة فى مثل لمح البصر ، ويضع محلها ذلك العطر الذكى المنعش .

وبعد دقائق قليلة تعد على الأصابع وصلنا إلى المخيام ، فسألنا أول شخص قابلناه عن خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فمضى بنا إليها ، وكانت الساعة الثالثة صباحاً إلا قليلاً ، ووصلنا إلى قرب الخيمة حيث علمنا أن جلالتـه لم يشرف بعـد ، وأن تشريفه إليها منتظر ومرتقب فى ظرف دقائق قليـلة معدودة ، حيث كان الجنود قد اصطفوا بظاهر الخيمة فى انتظار تشريف جلالته .

* * *

لا شك أن رؤية المخيام الملكى ، وما فيه من روعة وضخامة فى العدد ، وما فى نفوسنا من روعة اللقاء ، كان له أكبر الأثر فى نفوسنا ، وقد كان لمنظر هذه الخيام التى لايحصيها العد ، والتى علمنا فيما بعد أنها تبلغ ١٧٥٠ خيمة ، والتى هى كأجنحة الحمائم البيض المتناثرة ، أو كأشرعة السفن المترامية التى تمخر عباب البحر ، كان لذلك كله ، بهجة فى المنظر لايسمو إليها الوصف ولا يحيط بها البيان ، وقد تحرك شيخ الشعر فى نفسى ولا أقول شيطانه!! فإذا بى أهمس وأتغنى بصوت خافت قائلاً :

ولما بدا المخيام للركب أشرقت   خيام تفوق الأنجم الزهر فى العدّ

تلوح مع الإصباح كالطير جثّماً   . . . .

ولم أدر أننى بمرقبة من أحد ، أو بمسمع من كائن من كان ، وإذا بصوت ينادينى من قريب ، وإذا به صديقى الأستاذ عبـد الرءوف الصبان ، يقول : لقـد سمعتك

أيها الشاعر تهمس وتتغنى ، وسمعتك تقول « ولما بدا الخيام للركب » فأكمل ماتقول وعبّر عن شعورك وشعورنا بما تمليه عليك الشاعرية اليوم ، وإننا منذ الآن سنسجل كل ماتقول ، وسنحصى عليك أنفاسك وكلمك ! فقلت له حباً وكرامة ، وأنشدته البيتين أو البيت ونصف البيت من الشعر الذى جاش فى نفسى ! ومضى كل لطيته .

* * *

لم يطل وقوفنا أمام الخيمة الملكية العامرة ، حتى أهل علينا جلالته مقبلاً من مخيمه الخاص فى سيارته الملكية ، وبعد دقيقة شرف جلالته ، وترجّل من السيارة ، وكان قد رآنا فأقبل علينا ، وهرعنا إلى جلالته مسلّمين مقبّلين يده الكريمة مستبقين بعوامل الشوق والولاء والإخلاص إلى تحية جلالته والسلام عليه ، وقد تفضل فهش فى وجوهنا بما فى أخلاقه من مكارم ، ثم شرف إلى خيمته ودعانا إلى الدخول فى معيته الكريمة ، وأخذ مكانه من صدر المجلس ، وكانت الخيمة تتألف من صالون فخم ، فرشت أرضه بالبسط النفيسة ، كما صفت إلى جوانبه المقاعد الوثيرة، ولم يتميز كرسى جلالته عن بقية الكراسىّ الأخرى بشىء ما ؛ بل هى كلها طراز واحد وإن اختلفت فى الشكل والصنعة ، وقد شرف السرادق أيضاً حضرتا صاحبى السمو الملكى الأمير سعود ولى العهد ، والأمير فيصل نائب جلالته ، كما حضر رجال البلاط الملكى وكبار رجال الحاشية ، وقد تجلّت مكارم أخلاقه التى نعرفها كل المعرفة ، فى تفضله بسؤالنا عن أحوالنا ، وعن صحتنا وراحتنا وما عسانا أن نكون صادفناه من مشقة السفر فى الطريق ، فأعربنا لجلالته عن الشكر العميق ، وخالص الولاء والدعاء على تفضله بهذا العطف السامى ، وشكرنا الله على نعمة اللقاء بجلالته فى هذه المناسبة السعيدة ، ونقلنا إلى جلالته صورة مصغرة عن شعور البلاد كلها نحو هذه الرحلة وشمولها بالعطف الملكى السامى ، وشعور الجميع نحو جلالته بالمحبة وخالص الولاء والتقدير ، ثم استأذنا من جلالته بالسماح فى إلقاء كلمات مناسبة تترجم عن

هذا الشعور جهد المستطاع فأذن حفظه الله ، وكان الترتيب قد تم بالاتفاق بين أعضاء الرحلة على أن يلقى فضيلة الشيخ عبد الله الشيبي خطبة أعدت لهذا الغرض ، وأن يلقى كل من شاعرى الرحلة السيد عبيد مدنى شاعر المدينة المنورة ، وكاتب هذه السطور قصيدته التى أنشأها لهذا الغرض .

فلما تفضل جلالته بالإذن ، نهض فضيلة الشيخ عبد الله الشيبي وألقى كلمة جامعة ثم قفى عليه السيد عبيد مدنى فألقى قصيدته ، ثم قفى عليه كاتب هذه السطور وألقى قصيدته أيضاً . وقد علّق جلالته على هذه الخطب والقصائد بكلمات رقيقة بليغة فيها الشكر وفيها منتهى التواضع الإسلامى والثقة بشعبه وأمته ، وقال إن هذا الشعور هو عندى حقيقة ثابتة معروفة لدىّ ولدى الجميع ، ثم أردف جلالته بكلمات كلها عطف من ملك رحيم بار على شعب مخلص يتفانى فى الولاء لجلالته .

وعاد جلالته فتفضل بإعلان عطفه علينا جميعاً ، وأذن لنا فى الانصراف إلى المخيام الذى أعد لنزولنا ، مشفقاً علينا من مشقة الرحلة ، وإننا لم نأخذ قسطنا من الراحة .

وتفضل جلالته فبالغ فى الحفاوة بنا وإكرامنا ، وقال إنكم الآن عندى فى دياركم ، وقد أمرت بإعداد كل معدات الراحة لكم ، ومعذرة إذا بدر تقصير فنحن فى صميم الصحراء ، وكانت هذه العبارة من جلالته تحمل أسمى معانى التواضع بالنسبة لما كان متخذاً من ترتيبات الإقامة لنا وتسهيلها وتيسيرها وإحاطتها بأكبر وسائل الراحة والرفاهية ، ثم تفضل جلالته ونادى « يا عباس » وهو الشيخ عباس قطان أمين العاصمة ، وقال له ، ماذا تشتغل فى مكة ؟ فقال له أطال الله عمر جلالتكم إننى رئيس بلدية مكة ، فقال جلالته : أنت رئيس بلدية هذا الوادى مدة وجودكم فيه ،

فأنت المسئول عن راحة صحبك وعما يلزمهم من كل شيء ، وأنت وكيل عليهم ، فتفقَّد راحتهم وبالغ فى إكرامهم .

وبعـد ذلك نهضنا مستأذنين من جلالته وسلّمنا . ثم غادرنا السرادق الملكى العامر ، ونحن عاجزون عن النطق بالشكر ، على ما لاقيناه من لدن جلالته من ذلك العطف السامى ، ومن تلك الأخلاق الفذة التى لاتعرف فى أبناء هذا الزمان ، فى أى صقع أو مكان !

وذهبنا إلى المكان الذى أعد لنزولنا، فإذا هو مضارب من الخيام الفخمة الوثيرة نصبت على مقربة من الغدير الذى يستقى منه المخيام، ووجدنا هناك الشيخ عبد الرحمن الطبيشى رئيس الخاصة الملكية موفداً من قبل جلالته للمبالغة فى العناية بنا وترتيب شؤننا كلها ، وقد بالغ سعادته فى إكرامنا والترحيب بنا وإظهار الحفاوة التى تليق بمكارم أخـلاق الملك العظيم ، وجلس معنا ساعة من الزمن يؤنسنا بحديثة العذب ، ويسألنا عن كل مايؤمن راحتنا ، ثم انصرف مشيعاً منا بالحفاوة والإكرام .

جولة حول الأشبال

وكان همّنا بعد هذه المقابلة الملكية الكريمة التى كانت منى النفس وغايتها ، أن نتشرف بالسلام على حضرات أصحاب السمو الملكى الأمراء جميعهم ، وفى مقدمتهم حضرتا صاحبى السمو الملكى الأمير سعود ولى العهد المعظم ، والأمير فيصل نائب جلالته المحبوب ، وقد سألنا أحد رجال حاشية جلالته فى ذلك فأشار إلى مخيامهم وأمر أحد الأتباع أن يكون دليلنا إليهم ، وبعد قليل من الدقائق وصلنا إلى مخيام سمو الأمير سعود ولى العهد .

وقد تفضل سموه بإكرام وفادتنا بما طبع فى نفسه من مكارم الأخلاق ، وشمل الجميع بعنايته الخاصة ، وأعرب عن اغتباطه بوصولهم إلى هذه الديار ، وقد قضينا فى حضرته مدة غير قصيرة من الوقت ، كانت كفيلة بإشاعة السرور فى نفوسنا ، وإطلاق ألسنتنا بالثناء على مكارم أخلاقه وما حباه الله من كريم الخصال التى هى سجية من سجايا والده المظيم .

والأمير سعود ، شخصية محبوبة جذابة ، كسيت أعظم حلة من المهابة ، فهو صورة من والده العظيم فى إشراق الطلمة وما منحهما الله من بسطة فى الجسم ورجاجة فى العقل ، وهو لهذا مهيب الجانب كما قلنا لما فيه من الشخصية العظيمة الرائعة ، ولا تفارقه هذه المهابة مطلقاً حتى فى أحاديثه العامة والخاصة ، وحتى فى ضحكه وسروره ومزاحه الموقر ودعاباته الرزينة ، ذلك بأن بعض الشخصيات الكبيرة قد تكون المهابة فيها موقوتة بحالة من الحالات النفسية أو مقرونة بسمة من سمات الصناعة والتعمل ، فإذا زالت تلك الحالة المعينة ، زال عنها ثوب المهابة والوقار ،

ولكن جلالة الملك عبد العزيز صاحبي السمو الملكى ولى عهده ونائبه المحبوبين من الطراز الأول والذى قلنا إن المهابة والوقار فيهم ، سجية من السجايا التى خلقها الله فى طبيعة نفوسهم ، وطبيعة النفس شىء غريزى لا يتغير ولا يتبدّل .

وقصدنا بعد ذلك إلى مخيام حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ، وبعد دقائق قليلة ، وصلنا إلى سرادق فخم متواضع قريب الشبه من سرادق سمو ولى العهد المعظم ، فعلمنا أننا وصلنا إلى غايتنا ، من رؤية الأمير فيصل المعظم ، الذى هو نائب جـلالة الملك ، والذى هو الحاكم المباشر على البلاد التى نعيش فيها ، والذى نعرف من شخصيته وطباعه ، وأخلاقه وسجاياه ، ما جعله حبيباً إلى كل القلوب ، لابالنسبة لأشخاصنا وأشخاص الخاصة من الذين يعرفون سموه معرفة شخصية متصلة عن كثب ، بل بالنسبة لجهور العامة الذين لا يعرفون عن سموه إلا ناحيته العامة ، ولم تجمعهم به أية صلة من الصلات غير ما خَبَروه بصفة إجماليـة عن مكارم أخلاقه وسمو سجاياه النبيلة .

تشرفنا بالدخول إلى السرادق ، وتفضل باستقبالنا بمـا نعرفه فيه ونعهده من البشاشة والإيناس ، وشملنا بعطفه الغالى ، حتى انطلقت ألسنة الجميع بالدعاء لسموه والثناء على ما منحه الله من تلك الأخلاق العالية التى غدت مضرب الأمثـال بين البادية والحاضرة ، وبين العامة والخاصة .

وقضينا مدة أخرى من الزمن ، فى حضرة سموه ، لقضاء حقوق الوجـد والوجدان ، وتشرفنا باجتلاء طلعة أميرنا المحبوب الذى أسعدنا الله بوجوده على رأس هـذه الرحلة ، فلم يكن سموه يفارقنا فى مكة ، إلا إلى لقاء عاجل فى نجد ، ولم يكن سموه يفارقنا إلا ريثما يكتب الله لنـا شرف اللقاء به ، وتلك أمنية كانت فى نفوسنا

جميعاً ، حققها الله لنا على أحسن حال ، فهى اذن أمنية كانت غالية بعيدة المنال . لولا أن أذن الله بتحقيقها ، وما كل ما يتمنى المرء يدركه ! !

ونهضنا بعد ذلك للانصراف ، ونحن لم نقض من حق الوجد والشوق ما يجب ، ثم غادرنا سرادقه العامر ، وفى النفس ما فيها من ذلك الحق وما يقابله من واجب ، وحمدنا الله على نعمة هـذا اللقاء وقلنا ، أو قال كل فى نفسه ، إلى اللقاء القريب إن شاء الله تعالى .

وأردنا أن نطوف على خيام الأمراء أنجال جلالة الملك المعظم ، فعلمنا أنه لم تبق فسحة فى الوقت وأنهم نهضوا من خيامهم إلى الغداء ، فأجلنا ذلك إلى اليوم التالى ورجعنا إلى مخيامنا كذلك لتناول طعام الغداء والاستراحة .

الأدب السعودى

لا أجد مناسبة خيراً من هـذه المناسبة ، لتسجيل موضوع طالما حرصت على الـكتابة فيـه ، فقد أتيح لى أن أشهد بعينى رأسى لوناً بهيجاً رائعاً من الأدب الإسلامى وددت كثيراً أن أسجل صورته لتـكون قدوة للناس أولاً ، ولتـكون مظهراً رائعاً من مظاهر الأدب الإسلامى المفقود ، فى هذا الزمان الذى طغت فيـه المظاهر المادية على أذواق الناس وأخلاقهم فى كثير من الأمكنة والأصقاع ، وفى كثير من البيئات والجماعات .

فالأدب الإسلامى ، هو الأدب الذى أدب الله به نبيّه ، وشرعه فى كتابه الحـكيم ليتحلى به المسلمون ، وليـكون ميزة لهم على سائر البشر ، وحلية رائعة فى أجيادهم تبهر أنظار العالم ، وترفع من أقدارهم فى أبصار غيرهم ، بل هو فى الجملة المثل العالى لصفات المسلم الـكامل وأخلاقه ومعاملاته مع نفسه ، ومع سائر الناس .

والأدب الإسلامى هـذا ، هو الحلقة المفقودة بين الناس ، إذ قل أن تجد بينهم من هو مطبوع عليـه ، أو مقيّد به ، أو سائر على منواله ، سواء كان بوازع من دين ، أو بوازع من فطرة ، أو بوازع من تطبّع ! حتى إن بعض الأمم التى أمعنت فى المدنية والتقـدم العلمى والصناعى ، زعمت لنفسها أنها بلغت الغاية القصوى من الدساتير الأخلاقية بينما هى بلغت فى هذا المضمار شوطاً عكسياً رفعها إلى الحضيض!!

لذلك لم يكن غريباً على رجل له صلة بشؤون الاجتماع والمجتمعات ،أن يلحظ هذه الظاهرة فى أخلاق الأمم ، ولم يكن غريباً عليه أيضاً أن يسجل فى أعماق نفسه ظاهرة يراها غريبة بين الناس فى هذا الزمان ، وهى ظاهرة هذا «الأدب السعودى» .
ثم يعمد إلى تسجيل هذه الصورة فيما يبرزها من حيز نفسه إلى حيز التسطير والتسجيل!

وإذا قلت « الأدب السعودى » فإننى أقصد الأدب الإسلامى الذى ذكرت بعض صفاته فيما تقدم ، وإنما عمدت إلى هـذا الوصف للتحديد والتمييز ، ولأذكر ما أنا بصدده من التسطير والتسجيل . فقـد انفردت الأسرة السعودية بلون من الأدب الإسلامى تميزت به عن سائر الناس حتى غدا مضرب المثل ، وأصبح موضع إعجاب كل من شهده من قرب أو بعد ، وقد تحلّت هـذه الأسرة بهذا الأدب الرائع بحيث أصبح علماً على كل فرد من أفرادها ، والقدوة الحسنة فى ذلك ، والمثل العالى إنما هو حضرة صاحب الجلالة الملك أولاً ، ثم نجلاه الوقوران الأمير سعود ولى عهده ، والأمير فيصل نائبه ، ثم جميع أنجاله الأمراء ، وبقية أعضاء هـذه الدوحة المزهرة اليانعة . وإنك ليستولى عليك الدهش والإعجاب إذا أتيح لك أن تتصل بهم عن قرب ، وأن ترى معاملاتهم بين بعضهم ، ومعاملاتهم مع الناس ، وكيف يوقر صغيرهم كبيرهم ، وكيف يحنو كبيرهم على صغيرهم ، وكيف يساوون أنفسهم برعاياهم ، وكيف يجدعون أنف الكبر والكبرياء ، بما يبدونه من التواضع الجم الذى يزيد من مهابتهم ولا ينتقص من علوهم الرفيع ، ويكسبهم أعمق آيات المحبة ، وأخلص أصناف الولاء والتقدير .

أجل . لقد شهدت فى هـذا الباب من الفصول الرائعة ، والمرئيات الباهرة طيلة الحقبة التى تشرفت فيها بالاتصال بأعضاء هـذه الأسرة الكريمة ما كان يحملنى على إبراز ما شهدته ويدفعنى برغبـة خالصة إلى إشراك الناس معى فى التمتع بلذة ماعلمت ومشاهدة مارأيت ، وما أنا والله فى ذلك بمسرف أو مبالغ ، فى زمن تمجرفت فيـه الصعاليك ، واستنسرت فيه البغاث ! وتصعرت فيه خدود صدق فى وصفها القائل

وكم صَيَد بدا لك من ذليل   كما مالت من المصلوب عنق

ومالا يتسع المجال لوصفه من أمثال هذه الصفات .

فهذا الملك الذى توجه الله بتاج الملك ، وقوة الإيمان ، وأصالة الرأى ، وبوأه بسطة فى الجسم ، ومنحه رجاحة فى العقل ، وتوفيقاً فى أقوم أساليب الحكم، وشرفه بولاية أقدس بقاع الدنيا قاطبة ، هذا الملك الذى يتقلب فى أعطاف هذه النعمة الإلهية الجزيلة ، مضافة إلى نعمة محبة الناس له بولاء وإخلاص لا فى مملكته ومن رعاياه فحسب ، ولكن فى سائر الأمم العربية والإسلامية ومن مختلف الأجناس والشعوب لم تأخذه من ذلك مثقال ذرة من غرور ، ولم يغير خلقه شىء من ترف تلك النعمة ، وإنما يقابل كل خير بشكر الله وحمده ، ويقابل كل سوء بالاستعانة بالله[1] ويمضى فى طريقه عابداً مصلياً مبتهلاً إلى الله سبحانه بالعشى والآصال ، وبذلك كان جلالته أرفع مثل فى أمته لما يجب أن يكون عليه الإنسان من مكارم الأخلاق ، وإذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بملك كبير بتلك بعض صفاته ، فما بالك بمن هم دونه من سائر الناس .

فجلالته هو القدوة الحسنة فى أمته لمكارم الأخلاق ، وهو المثل العالى والنبراس المضىء فى التحلى بالآداب الإسلامية الرفيعة ، وحرىّ بأن ينسخ على منواله ، ويتخذه قدوة حسنة صالحة للعمل بها والاقتداء بهديها ، ذوو عشيرته الأدنون ، ومن هم أقرب الناس إليه من كرام أسرته ، وليس هناك أجدر بقدوة التابع للمتبوع من اقتداء الابن بأبيه ، ولذلك كان أنجال جلالته الأمراء هم أول المقتدين به وهم خير المترسمين لخطاه والعاملين على نهجه ، وقد شهد لهذه الأسرة بالأدب الرفيع ، كل من أتيح له شرف الاتصال بها من كبار الشخصيات من مختلف جنسيات مسلمى العالم ، فكم من كبار المسلمين الذين وفدوا إلى البلاد المقدسة فى موسم الحج أو فى غيره

---

(١) جلالة الملك عبد العزيز ، يستقبل كل خبر سار ، وكل حادث سعيد، بحمد الله تعالى وشكره والصلاة والسلام على نبيه ، ويستقبل كل نبأ سيئ أو حادث مزعج بالاستعانة بالله ، وذلك بقوله « الله المستعان » وقد سمعت هذا وشهدته مرارا من جلالته ، وهى ملاحظة جديرة بالتسجيل .

سمعت منهم عبارات الثناء والإطراء ، يندفعون فى تنميقها من غير تحفظ ولا تقيد ويطربون بتناقل شواهد آياتها ومضارب الأمثلة منها ، بحماسة متدفقة كالسيل ، وبعاطفة متأججة كالأتون ، وبشعور مندفع كالأتىّ المزبد ، وكم من زعماء المسلمين وكم من كبار رجال أوربا بهرتهم شخصية هذا الملك الفذ ، مثلما بهرتهم سيرته الرائعة وبطولته الشامخة ، وآدابه العالية ، فانطلقوا يروون فيها الروايات ويحيطونها بهالات رائعة من آيات التقدير والإعجاب ويزفونها فى ثوب فضفاض من الزخرفة وجمال النقش ، وإنهم باعترافهم لجد عاجزين عن وصف الحقيقة وتسجيلها على ما يشتهون ، ولا أبالغ إذا قلت إنه لم يكتب عن أية شخصية عظيمة سواء فى الملوك والفاتحين والزعماء وكبار الرجال ، مثلما كتب عن شخصية هذا الملك وآدابه وسيرته ومكارم أخلاقه ، لا فى القديم ولا فى الحديث !

وإذا كان جلالته هو أصل هذه الدوحة العصامية اليانعة الباسقة فحرىّ بأبنائه الأدنين الأقربين أن يكونوا صورة من والدهم العظيم ، وهـــذا ما قد كان وذلك ما أراده الله تعالى أن يكون . ونحن إذا ذكرنا أبناء جلالته فالمفهوم سريعاً أننا نقصد نبراس أولئك الأبناء ومصباحهم اللامع والوهاج ، وهما شخصية كل من حضرتى أصحاب السمو الملكى الأمير سعود ولى عهده ، والأمير فيصل نائبه . وكلاهما كان له اتصال مباشر بكثير من كبار رجال العالم ، وكلاهما انتزع الإعجاب انتزاعاً من براثن أولئك الرجال الذين يزنون الأمور بقدرها وقلما يخطئون ! فالأمير سعود زار القطر المصرى عام ١٩٢٤ ميلادية للمرة الأولى وقابله هناك سعد زغلول باشا وهو من أعاظم الشخصيات فى مصر فلم يخف إعجابه بسموه ونشر ذلك الإعجاب فى كثير من المناسبات وإعلانه على رؤوس الأشهاد . ثم زار سموه بعد ذلك أقطار أوربا والهند فكان موضع إعجاب كل من شهده أو اتصل به ، وقد أفاض فى بيان صفاته ومحامده

وإعلان الإعجاب لسموه فى كافة نواحيه الخلْقية والخلقية كل من اتصل به فى العالمين العربى والأوربى .

أما الأمير فيصل فقد زار أوربا يافعاً وهو فى سن مبكرة من الشباب ثم زارها مرات أخرى ، وكان موضع إعجاب كل من رآه من كبار الشخصيات فى كل مملكة زارها ، وفى كل صقع مرّ به ، ثم زار سمـــــوه القطر المصرى فى طريقه إلى لندن ليقوم بتمثيل جلالة والده الملك المعظم فى مؤتمر فلسطين المنعقد فى لندن فى أوائل عام ١٣٥٨ هجرية ــ ١٩٣٩ ميلادية ، وقد أعجب بسموه فى جميع البلاد التى زارها كبار رجالها من زعماء وسياسيين وعلمــاء وأدباء وشعراء ، وكان موضع تقديرهم وإعجابهم ، وكان سموه قطب ذلك الرحى ، وملتقى تلك المجامع ، وموضع حديث أولئك الأقوام وتقديرهم على مختلف جنسياتهم ومراتبهم الاجتماعيـة ، وأقدارهم العامة . والحديث فى هـذا الصدد يساق إلى سعادة الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان سموه والذى كان فى معيته فى تلك الرحلة وما كان يفيض به علينا بعـد عودته من روايات التقدير والإعجاب التى صادفها سموه فى كل خطوة من خطوات رحلته ، يضاف إلى ذلك ما لهجت به الصحف فى جميع تلك الأصقاع من القصص والروايات ، والأحاديث والمقالات عن أخلاقه وآدابه وحسن معاشرته ولطفه وإيناسه وتقدير مواهبه السامية وسجاياه العالية ومزاياه الرفيعة .

ولقد زار سموه بلاد أوربا بعـد ذلك فى مناسبات عديدة أهمها تمثيله حكومة فى هيئة الأمم المتحدة وما برز به من الشخصية الفذة فى تلك المجامع العالمية الحفيلة حتى غدا بحق ملتقى الإبصار ومحل التقدير والأعجاب .

والـكلام عن آداب هـذه الإسرة وأعضائها يطول ، ولو أردنا تقصيه بالأمثلة والشواهد لاحتجنا إلى كتاب خاص لا فصل من كتاب ، وإنما أردنا بهذه المناسبة

المتاحة أن نذكر ما يمكن ذكره من آداب الأسرة السعودية الكريمة ، وأن نميز تلك الآداب المنفردة فى هذا الزمان فطبعها بالطابع العربى السعودى الخاص فقلنا عنها إنها « الأدب السعودى » وذلك لقلة ما تشاهد من هذه الصفات الفريدة الوحيدة فى هذا الجيل ! !

وهناك خلاصة أخرى نريد أن نشيد بها ونشير إليها ، وهى المثل العالى الذى يجب أن يستخلص من هذا ، وهو اتخاذ القدوة الحسنة والمثل المقتدى به من تلك الأخلاق لتكون نبراساً يهتدى به الضالون المضلون ، الذين يسرفون فى التأله وفى حب الأثرة وفى الكبرياء والغطرسة إلى درجة تحمل الناس على احتقارهم والازدراء بهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون !

وهذه اللمحات العابرة عن الأدب السعودى سجلناها فى هذا المكان من الكتاب ، ولكن القارئ سيجد فى الصفحات الأخرى المبعثرة المتناثرة ، أمثلة عليا رفيعة من الأمثلة هذه الخصال ، تركناها لنذكرها فى مكانها المناسب لأننا لم نقصد إلى أن نحصى هذه الحسنات فى مكان واحد ، ولم نقصد من وراء ذكرها إلا مجرد العظة والعبرة والقدوة الحسنة .

روضة الخفس - ورياض نجد

تقع روضة الخفس فى واد يشرف عليه جبل شامخ متصعّد إلى الأعنان ، يسمى جبل طويق[1] ، وهو فى الجانب الغربى من الوادى ، وفى الجنوب منـه سلسلة من الهضبات الرملية الدقيقة الصغيرة ، التى هى أشبه بالنفود وإن كانت ليست من النفود حقيقة ، ذلك بأنها[2] بحر متلاطم من أمواج الرمال الدقيقـة التى تذروها الرياح بين كل أصباحية وأمسية ، ويصطلحون على تسمية هذه الرياح الرملية المتعاقبة بـ «العج» وهى تسمية مفهومة إذ كان المقصودمنهـا « العجاج » . وفى أطراف من شواطىء تلك البحار الرملية تقوم روضات متناثرة عديدة لا تحصى ، تتفاوت مساحتهاوتتقارب من ميل واحد إلى خمسة أميال إلى أكثر من ذلك أحياناً ، وقبـل أن تتاح لى زيارة نجد ما كنت أعرف السبب الصحيح لتسمية عاصمتها بالرياض ، حتى كانت هـــذه الرحلة التى أفهمتنى أن المقصود من الرياض هو جمع تلك الروضات بالنظر لـكثرتها

---

(١) ينطق أهل نجد باسم الجبل « طويق » مجردا من أداة التعريف ، وقد ورد فى بعض المعاجم وفى كتاب فؤاد بك حمزة « الطويق » .

(٢) قال سعادة فؤاد حمزة باشا فى كتابه قلب جزيرة العرب .

« معنى النفود الرمال الـكثيفة الصعبة المرور التى تسفيها الرياح فتؤلف كثباناً متسلسلة ، ولم نجد لهذا الاصطلاح أثراً فى اللغة العربية القديمة ، ولـكننا نعتقد أنه حديث مأخوذ من نفد أى سار إلى الهلاك .

« وأما الرمال التى يطلق عليها اسم النفود فى الوقت الحاضر ، فقد كانت تعرف بأسماء أخرى فى القديم ، فالنفود الـكبير الشمالى بين الجوف وجبـل شمركان معروفاً باسم « عالج » والنفود الجنوبى المسمى بالربع الخالى كان معروفاً باسم رملة « يبرين » وإذا أطلقت كلمة النفود شملت جميع الأراضى الرملية الـكثيفة فهى تشمل الدهناء مثلما تشمل الأحقاف أو الأنفاد الأخرى فى البـلاد العربية » . اهـ

وشهرتها وأهميتها فى تلك الأصقاع . فالواحدة من هذه الروضات، أو الواحد من هذه الرياض ، مكان معشب ، كثير النبت ، مختلف الألوان والأشكال ، موشى بأصناف الأزهار اليانعة الباسمة ، ذات الأرج الفياح،والعبير الذكى الفياض . فأنت إذا أقدمت على الروضة سبقها إليك طيب العبير بعرف زكى يصل إلى القلب من غير حجاب ، فيبعث فيه النشوة والسرور ، وإذا طالت المدة التى تقضيها بين أرج ذلك الروض ازداد الشعور بالانشراح والسرور ، لما يحمله النظر من حسن المنظر ، ولما يبهج النفس من زكىّ الرائحة .

وطبيعة النباتات والأزهار فى بوادى نجد وحواضرها ، تختلف عن غيرها فى كثير من الجهات وغيرها من بوادى الحجاز أيضاً ، فالمعروف لنا فى أكثر النواحى المأهولة من بادية الحجاز ، كالطريق بين مكة والمدينة وجدة وعرفات والطايف وما حولها من الجهات الأخرى أن عشبها المألوف لا يتعدى بضعة أصناف تعدّ على أصابع اليد الواحدة ، ففى الأرض الباردة تقوم الغابات الشوكية والسَلَمْ مقام الزرع ، وفى الأرض الحارة ينبت شجر الحنظل والعشر والسنامكى . دون غيره من الأعشاب الأخرى . أما بوادى نجد ، فقد امتازت بتلك الرياض الطبيعية التى لم تعملها يد إنسان ، ولم ينمقها عقل بشرى ، وإنما عملتها صنعة الله ، ووشّتها قدرته جل وعلا ، فجاءت — ولله المثل الأعلا — خير مثال على قدرته العالية ، وكمال صنعه وجلال قدره ، ذلك بأن الروضات فى نجد — وفى هذا الربيع على الأخص ، وهو الربيع الفذ الذى لم تشهده منذ ربع قرن من الزمان كما قلنا — ذات منظر عجب خلّاب يبعث الفكر على التأمل فى جمال صنع الله ، فأنت تشهد بعينيك مساحة كبيرة من العشب الناضر المزهر على جملة مشاهد مختلفة تبعث فى نفسك الإيمان العاجل بأن هذا الصنع ليس من صنع البشر ، وليس هو فى مقدور الإنسانية ، فقد ترى روضة طال العشب فيها إلى ارتفاع متر

متصعّد فى الفضاء ، وهى كلها من زهر واحد ذى لون واحد وعبق ذكىّ واحد ؛ فهذه روضة تتجوّل فيها على سيارتك عشرات من الدقائق ، وكلها ذات زهر متشعب الأوراق فى نظام دقيق واحد جلّ من أبدعته صنعته ؛ وتلك روضة أخرى كبيرة المساحة ، ذات لون واحد كله أبيض ناصع البياض زكية الرائحة تطالعها فكأنما تطالع أرضاً كسيت بقطع الثلج الزاهر المشرق ، أو كأنما نثرت فيها الأقطان يد الندّاف الصّناع ، فأشرقت من صناعته البقاع !

وهناك روضة ثالثة ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، فهى زرقاء اللون من طراز واحد جلّت يد المبدع الذى صنعها وتعالت عظمته ، روضة كبيرة المساحة لا يدرك الطرف أولها ، ولا يبلغ السير آخرها ، لولا جهد السيارة وأننا نطوى الأرض على غير الناقة والبعير ، فسنظل نمشى مسافة غير قصيرة ونحن مأخوذون بجمال مانشهد من منظر رائع فتان ، زهر أزرق اللون ، دقيق الصنع ، قد نمقت أزهاره فى أغصانه تنميقاً منظماً كأنما هو مقصود أن يكون على ما كان ، تفوح منه رائحة زكية منعشة ، فهو سرور فى المنظر والمخبر ، وذكرى عاطرة فى المغيب والمحضر .

وهناك روضة رابعة ! ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، وليست بالزرقاء ، فهى بساط سندسى رائع أخضر اللون ، كأنما فرشت أرضه ببساط أنيق أينعت فيه الخضرة وزهت ونمت وأربت ، فطال نبته واستطال ، وبلغ من غايته كل منال ! تعالى العشب فيها إلى ذلك القدر الباهر من الطول ، وراح النظر يسرح فيها غير ملول !

وهناك روضة خامسة ، ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، وليست بالزرقاء ولا الخضراء فهى خليط نثرته قدرة الله فى مكان واحد ، وجعلته معجزة القدرة بذلك التنويع الجميل ، إذ ترى فيها النبت فيها ألواناً وغير ألوان ، صنواناً وغير صنوان ، فمن كل شجرة زهرة ، ومن كل زهرة شجرة ، وقد تصادف غصناً واحداً يحمل جميع الألوان

وقد تصادف لوناً واحداً مبعثراً فى أغصان !! فأنت من ذلك الخليط الرائع فى بستان، ومن حسنه فى جمال فتان ، فسبحان من صنعته يداه ، وتوجته قدرة الإله ، تعالى الله عما سواه .

هذا الوصف الموجز الرقيق ، هو بعض مافى ربى نجد ، أو هو بعض رياض نجد، وهذا الوصف الذى أطلقناه على بعض الروضات أو الرياض ، هو من غير شك وصف عام لما شهدنا ، ولما لم نشهد من رياض نجد ، فقد يقوم وصف البعض عن الكل مقام التعميم ، وقد يغنى التخصيص بما يفيد أداء المعنى الكامل حين تعجز الحيلة عن غير ذلك ، وقد أردت بهذا أن أكفى نفسى عناء تفصيل وصف كل روضة من رياض نجد ، بما تستحق من الإفاضة والتوضيح ، لأن ذلك التفصيل شىء غير مستطاع إطلاقاً ، ومع ذلك فإننى لا أحجم عن إطلاق العنان للقلم فى كل مناسبة تعرض لإيفاء ذلك الوصف حقه كلما سنحت المناسبة فى خلال الوصف ، مثلما كانت تسنح علينا تلك الهبّات العليلة السليمة ، والصاحية السقيمة ، بين أجزاء الرحلة وتنقلاتها فى فتراتها المختلفة من رياض ذلك الوادى الفسيح الأريج أو تلك البادية الضاحية المشرقة اللامعة .

وفى روضة الخفس هذه غدير ماء يستقى منه الوراد ويستقى منه القطان ، فهو مورد للمقيم والظاعن ، ويسمى غدير « الخويبى » ويقع فى مساحة من الأرض طولها خمسون متراً وعرضها عشرون ، فهو شبه بحيرة صغيرة ، وقد ركبت فى أحد جوانبه طلمبة يدوية لتمتص الماء وتقذفه بواسطة خرطوم كبير إلى خارج الغدير حيث ينقله الوراد فى سيارات نقل الماء أو فى غيرها من الأوعية والأوانى ، وهو إلى جانب ذلك متنزه للناس حيث يقصده الكثيرون فى الأصيل للتنزه والجلوس على حافته ، ويوجد إلى جانب هذا الغدير الرئيسى ، غدير آخر فرعى بينه وبين الأول مسافة ميل واحد

وهو أصغر من الأول من حيث المساحة وعمق الماء ، وكلاهما يتكوّنان من مياه الأمطار والسيول ، وبقدر خصوبة الأرض ، وجودة الربيع ، ونزول الأمطار تطول مدة وجود المياه فى هذه الغدران والعكس بالعكس .

والغدير الصغير يقع فى وسط روضة غناء جميلة وارفة الظلال[١] يحتضنها جبل طويق ، وهى تختلف عن غيرها من الروضات الأخرى بوجود عدد كبير من الشجيرات الوارفة الظلال ، فأرضهامفروشة ببساط أخضر سندسى من النبت الزاهر الرائع ، وعلى حافة ذلك البساط قامت المظلات الإلهية الجميلة التى هى شجيرات باسقة يستظل بها الجلوس المتنزهون ، ويكثر ورود الطير الصالح للصيد على هذا الغدير ، فهو مورد للاصطياد علاوة على أنه متنزه جد جميل . وقد كان لنا فى المدة التى قضيناها فى روضة الخفس جولات يومية فى هذا المنتزه العامر الجميل خصوصاً فى ساعات الأصيل وليالى القمر ؛ وكانت نزهتنا فى هذه الروضة وعلى حافة ذلك الغدير باقتراح من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، الذى هو أعلم بما فى بادية نجد من مصادر للجمال والنزهة والتمتع ، وقد تفضل جلالته باقتراحه ذاك علينا للتمتع بالنزهة الجميلة فى ذلك المكان الجميل .

وهناك حول هذا الوادى الذى اصطلح على تسميته بروضة الخفس،جملة روضات

---

(١) قال سعادة فؤاد بك حمزة فى كتابه قلب جزيرة العرب :

« ويقسم نجداً سلسلة من الجبال تسمى العارض تتجه من الشمال إلى الجنوب بشكل مقوس نوعاً ، وتقوم عليها وفى أطرافها الدساكر النجدية المهمة وهى منطقة السدير ، وبعد أن تجتاز السلسلة هذه المنطقة تنقسم إلى شعبتين ، شعبة شرقية تتجه إلى الجنوب الشرقى إلى أن تغور وسط الصحراء وتسمى العرمة ، وشعبة غربية تمتد إلى الجنوب وتسمى الطويق .

« وفى الحقيقة أن البلاد النجدية يمكن اعتبارها كسلسلة من الواحات المتشابهة فى التشكيل المختلفة فى الكبر والمساحة تمتد من القصيم إلى وادي الدواسر على أطراف سلسلة جبل طويق .

جميلة متناثرة فى شرق الوادى وغربه وفى شماله وجنوبه ، ويقع المخيام الملكى فى وسط الوادى ، كما يقع مخيام الأسر إلى الجنوب الشرقى منه على مسافة بضعة أميال ، والروضات الآنفة الذكر مبعثرة مترامية بين أجزاء مختلفة من الوادى والمخيام ، وفى روضة من هذه الووضات ، يقوم حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بنزهاته اليومية وبنزهات الصيد فى مواعيد منظمة معينة لا تختلف . وهناك روضات أخرى فى غير هذا الوادى ، مثل روضة التنهات وغيرها منتشرة ومبعثرة فى كثير من أنحاء نجد ، وبادية نجد ورباها الخصبة العامرة .

نظام الاقامة ـ أو أيام الروضة

قد يعجب القارئ من هذا العنوان لأنه لا صلة بين الرحلة وبين «نظام الإقامة» حين يحسب أننا نقصد النظام الموضوع فى المملكة العربية السعودية للإقامة !! ولكننا نبادر أولاً بإزالة هذا الالتباس اللفظى وشيكاً لأننا لا نقصد « نظام الإقامة » الرسمى الذى تقوم بتطبيقه إدارة الأمن العام ! ! بل نقصد نظام الإقامة الذى مر به صاحب الجلالة الملك ، فى إقامتنا بروضة الخفس ، وما فى ذلك النظام من الدقة البعيدة التى كفلت لنا منتهى الراحة وأقصى غايات التمتع والتنزه .

إن صاحب الجلالة الملك ، هو رجل النظام الأول فى هذه المملكة لا لأن جلالته يسن الأنظمة أو يفرضها أو يأمر بتنفيذها على رعاياه ، بل لأن جلالته يعيش فى حياة كلها نظام إذ هو يضع لنفسه الأنظمة التى يسير عليها ولا يحيد عنها قيدا نملة ، فحرىّ بنا ونحن نقيم فى ضيافة جلالته ، أن نكون فى كنف النظام عاملين به فى كل حركة من حركات السفر والإقامة ، ولا أبالغ فى القول إذا قلت أن من أسباب النجاح الذى هيأه الله لجلالته فى أعماله ، هو ذلك النظام الفطرى المطبوع فى نفسه والذى هو جزء لا يتجزأ من حياته الغالية الثمينة !

فقد أمر جلالته بتنظيم إقامتنا طيلة المدة التى قضيناها هناك سواء أكانت قصيرة أم طويلة . ومن ذلك أننا بموجب ذلك الترتيب كنا نستيقظ فى الصباح الباكر من كل يوم ، أى من الفجر أو من قبله أحياناً ، فنؤدى الصلاة فى وقتها ، وبعد استراحة قصيرة يباكرنا الخادم الذى يحمل إلينا أناء من لبن الإبل لا يقل ما يحمله عن مقدار

صفيحة من المـاء ، وكان بعض الرفاق لا عهد لهم بتناوله من قبل ، وبعضهم يحبه ويقبل عليه ، ولم يمض غير تمرينات بسيطة فى يوم وبعض يوم حتى كان الرفاق حين يصبحون ويصلّون ، ينتظرون فى شـوق ولهف قدوم حامل اللبن فيغترفون منه بالأكواب الـكبيرة مايشاؤون ويستبقون بعضهم فى تناولها والتزاحم عليها . والـكلام على لذة تناول لبن النياق فى الصباح الباكر يطول لواردنا استقصاءه لمـا كان فيه من طرافة ولأن بعض الرفاق كان يتأباه ويتجافاه ، ثم عاد يقبل عليـه بنهم وشراهة !! وبعد الانتهاء من حفلة هـذا اللبن ، ينصرف الرفاق إلى التنزه فى الصحراء واجتلاء مباهجها ، مستعينين على برد الصباح بشتى أساليب الدفء ، فمنهم كالسيد على فضل الشيخ الذى يأبى أن يعترف بالشيخوخة ولا يريد أن يظهر إلا بمظهر الشباب ، يعمد إلى الخروج بملابس رقيقة خفيفة ، حتى لا يتهم بالشيخوخة ، ولا يفجع فى شبابه ، ويطلب الدفء من وراء حركات رياضية هى الإمعان فى السير السريع الذى يبعث الحرارة فى الجسم .

ومنهم من يتدثر بالمشالح السميكة الوثيرة !! أو بكل ما عنده من الملابس ، ومنهم من يتزمّل برداء الخيمة ويحتضنها ولا يرى من الخير مفارقتها فى ذلك الجو البارد والوقت الباكر مثل السيد عبيد مدنى الذى كان يدين بهـذا الرأى ويعمل به . أما فضيلة الشيخ عبد الله الشيبي فقد كان فى الشيوخ مثال النشاط فى الشباب ، وكان يسهر ويسمر إلى ما يقارب منتصف الليل أو يزيد عليه أحياناً ، ولـكن ذلك لم يكن يعوقه مطلقاً عن اليقظة قبل الفجر بساعتين ، ويكون المـاء الحار قد عبئ لوضوئه وأحياناً لم يكن عبئ فيلتظى بلذعة الماء البارد فى الوضوء ، ثم يقوم إلى الصلاة متهجدا مدة تلك الساعتين قبل الفجر ، حتى إذا ما أذن مؤذن الصلاة للصبح ، نبّه رفاقه فى خيمته أو خرج إلى خيمة المسجد فصلى مع الجماعة أو بالجماعة . أما فضيلة السيد صالح شطا فقد كانت له مهمة أخرى ، هى أنه يقوم لصلاة الصبح فى ميعادها ثم يسأل عن الرفاق

من حضر منهم ومن لم يحضر وعمن استيقظ منهم ومن لم يستيقظ ، فإذا علم أن واحداً منهم لم يستيقظ ذهب وفى يده إبريق مملوء بذلك الماء البارد ، فيوجّه إليه إنذاراً باليقظة حلاً ، وإلا فالماء البارد ، خير كفيل بإيقاظه قبل رجع الطرف وقد ذاق كاتب هذه السطور ـ وغيره أيضاً ـ مرة واحدة جرعة من ذلك بالماء فى وجهه فكانت الأولى والأخيرة ولم يقع بعدها ولله الحمد ما يوجب غيرها !

وكان فضيلة الشيخ عبد الله الشيبي حين يخرج للتنزه فى ذلك الصباح الباكر يستصحب معه حاجتان من أدوات التسلية ، الأولى ولده « زيني » الذى كان يسليه بالحديث فيقطعان به الطريق ، والثانية « بندق الصيد » يتلمس بها صيدا يضرب به ليعود إلينا مرفوع الرأس عالى الصدر ولكنه بما منحه الله من نفس وادعة ، مشربة بحب الدعابة البريئة والفكاهة الموقرة ، كان دائما يعود إلينا مرفوع الرأس عالى الصدر ، حتى ولو لم يرسل الله الطيور لتترامى تحت سلاحه ! وهو مع ذلك لا يضن كل يوم بطلقة أو بطلقتين يرسلهما من فوهة بندقه فى طلب الطير ، وليس عليه أن تتم المطالب كما يقول الشاعر ، وكان سبيله فى طلب الدفء أن يتدثر بملابس كان يدخرها لهذه الحاجة ، قد تبلغ فى مجموعها مجموع ما يلبسه زملاؤه فى الرحلة .

وبعد الانتهاء من هذه الجولة الصباحية الباكرة ، وانهضام ذلك اللبن الذى تساقينا كؤوسه المترعة ، وشعورنا بالحاجة الى الطعام ، نعود إلى المخيام ونحن أشد ما نكون شعوراً بالحاجة إليه ، فإذا بالطعام يكاد يسبق أيدينا إلى أفواهنا ، وإذا بنا نتهال عليه كما تنهال الأسد على فرائسها ، وما هى إلا لحظات حتى نكون قد فرغنا منه إلى تناول الشاهى والقهوة العربية ، ومن ثم نتهيأ لارتداء ملابسنا وبعضنا من شيوخ الشباب من ينصرف إلى التجمّل وتجميل رفقائه بما عنده من مواد التطرية والتعطير فإذا كانت الساعة الثالثة عربية كان رسول حضرة صاحب الجلالة الملك بالمخيام ، جاء ليدعونا إلى التشرف بمقابلة جلالته فيقول : « الربع بهذا » ؟ ! أى

الرفقاء بهـذه الخيمة ، ثم ينادينا بأسمائنا وقد عرفها وحفظها عن ظهر قلب ! هيا يا عباس هيا يا فلان ، فلا نـكاد نسمع صـوته حتى نـكون قد أخذنا أمكنتنا من السيارات ، ونجيبه على تساؤله بأن « الربع بهـذا أبشر أبشر » ويسرع الرسول فيمتطى أول سيارة متحركة ، ويقفز على رفرفها لمصاحبتنا إلى المخيام الملكى العامر .

فلما نصل إلى المخيام نتشرف فوراً بالدخول إلى خيمة جلالة الملك ونحظى بلثم يد جلالته ومصافحته ونأخذ أمكنتنا من الجلوس فى الأمكنة التى تعودنا الجلوس عليها منذ أول يوم وصلنا فيـه إلى المخيام ، ويكون جلالته إذ ذاك قد انتهى من مطالعة البرقيات الواردة إلى ديوانه من كافة أنحاء المملـكة فى شؤون الحكم والرعية ، أو من غير المملـكة فى شؤون الدولة والسياسة وذلك أول عمل يزاوله جلالته فى الصباح إذ ليس هناك من الأهمية عنده أكثر من الاطلاع على البرقيات الواردة أو انتظار أجوبة ما يرسل من البرقيات ، وإصدار الأوامر البرقية بالفصل فى الشئون العاجلة السريعة وقد يكون بين تلك البرقيات ما لا قيمة له فى نظر غيره كأن تـكون البرقية صادرة إلى جلالته من أحـد العامة من رعاياه ، ولـكن جلالته يرى بكل برقية تصل إليه قيمة وأهمية حتى ولو كانت من الطراز الآنف الذكر ، أو من صغير يتظلم فيهـا من كبير ، ويتفضل جلالته بالفصل والإجابة حالاً على كل شىء من هذا القبيل من غير تردد ولا إبطاء ، بل إن جلالته لا يتردد فى عقاب من يثبت عليه إهمال أو إبطاء فى شىء من ذلك .

ويتفضل جلالته باستقبالنا هاشاً باشاً ، باسماً مرحباً بوجـه تشرق منه أنوار الإيمان ، وتنبعث منه أساريره البشر والاطمئنان ، ويبتدىء جلالته الحديث مبتسماً بالسؤال عن أحوالنا الخاصة والعامة ، وعن راحتنا ووفرة صحتنا ، وما إلى ذلك من الأسئلة التى تشتمل على أدق معانى اللطف وسمو الذوق وكرم المجاملة وإكرام الوفادة .

ويدور الحديث بعد ذلك فى المجلس بإدارة جلالته فى شتى المواضيع من خاصة وعامة،

وفى شتى الأبحاث والنواحى ، من دينية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وأدبية ، ولا يفوت جلالته اقتناص الفرص المتاحة فى سياق الحديث ، لإيراد الطرف الأدبية الرائعة البريئة ، وهو يصغى ويتقبّل بصدر منشرح ، مايعرض فى سياق الحديث من الأحاديث التى يليق التندّر بها فى مجالس الملوك ، وقد يحدث فى سياق الأحاديث مايستثير اهتمام جلالتـه من المواضيع الهامة ، وعلى الأخص إذا كانت متعلقة بالدين أو الأخلاق أو الآداب العامة ، فيرتجل جلالتـه الخطاب ارتجالاً رائعاً فى حماسة وإفاضة وقوة منطق وسعة حجة وتدفق بيان .

فإذا ما انقضت تلك الأحاديث الطريفة وجاء الميعاد المحدد ، دخل إلى الخيمة أحد موظفى الإذاعة[1] ويقرأ فى المجلس نشرة الأخبار مأخوذة من جميع الإذاعات . وقل أن يمر خبر من هذه الأخبار من غير أن يتفضل صاحب الجلالة بالتعليق عليه أو إبداء الملاحظات بشأنه ، سواء من ناحية التفكير والتعليق ، أو من ناحية التاريخ والاجتماع ، أو من أية ناحية تفرضها المناسبة ويستوجبها الظرف . وبعد ذلك يستأنف جلالته الحديث فى أية مناسبة كانت ، وفى خلال ذلك تدار القهوة العربيـة الجميلة ، وجلالته مغرم بتناولها وهو بين كل دقيقة وأخرى يأمر بها ، ففى قصره العامر يضع إصبعه على الجـرس الخاص بها فلا يكون جواب ذلك إلا حضورها على أيدى سقاتها . وفى المخيام ، يكفى أن يقول جلالته « قهوة » فيبادر الخدم إلى إبلاغ طاب

---

(١) فى قصر جلالة الملك موظفون مثقفون يكتبون الأخبار التى تذاع بالعربية ، وبغير العربية يترجمونها ويقرأونها فى مجلس جلالته ثلاث مرات فى اليوم ، قبيل الظهر ، وبعد صلاة العصر وحوالى منتصف الليل ، وقد كان موظف الاذاعة فى أثناء هذه الرحلة هو الأستاذ عبد العزيز ماجد ، أما موظفو الاذاعة فى الوقت الحاضر فهم الأستاذ أحمـد خليل عبد القادر وقد نقل إلى منصب سكرتير أول مفوضة المملكة العربية السعودية فى واشنطون والأستاذ عبد الله عمر بلخير والأستاذ على النفيسى والأستاذ عبد الله بن سلطان .

« القهوة » بصوت جهورى واحد ، إلى المكلف بتقديمها ، فتقدم إلينا فى خلال دقيقة واحدة ، والقهوة العربيـة النجدية ، أو القهوة الملكية على التحديد وبصفة أخص لا رِىّ من ظمأها ، وشاربها لايشبع منها أبداً ، فهى من حسنها وطيب نكتها ، ولذة ذوقها لاتكاد النفس تشبع منها ، وهى إلى جانب ذلك ، ذات دلال وتمنع ، فوصلها أمنع من وصال الحسناء ليلة جلوتها ، إذ أنها علاوة على ما انفردت به من الحسن ومن تلك الصفات المحببة ، يضعها الساقى فى كوبها الصغير ، رشفة صغيرة كأنها حسوة الطائر المستوفز ، أو لقطة العجلان ، فإذا بك ترشف منهـا رشفة أو رشفتين على الأكثر ، وأنت من وصالها فى مطمع أو مزيد ، كأنما عناها الشاعر فى قوله :

رشفة بعـد رشفة والتفات　　　كالتفات القطا على الغدران

ثم يطلبها مرة أخرى حضرة صاحب الجلالة ، فتحضر لك وأنت أشد ماتكون شوقاً إليها بعد ماذقته من لذتها الأولى ، لخفتها وذوقها ، وهكذا دواليك ، وليس فى هذا الذى أقوله مبالغة أو تهويل ، فهو شعورى ، وشعور من اتصلت بهم من كثير من الأشخاص العالميين الذين أتيح لهم شهود مجلس جلالته ، وتناول قهوته ،والسبب فى ذلك يرجع إلى دقة طهيها وبراعة إتقانه ، وما فيها من الحاجيات ، وهناك دليـل أكبر يؤيد إعجابى هذا ، وهو كثرة مايتناول جلالته منهـا فى كل لحظة وأخرى ، وليست هذه الكثرة إلا دليل الإعجاب من جانب جلالته ، وليس وراء ذلك غاية لمستزيد ، أو حاجة فى الشهادة إلى تأكيد !

ثم يتفضل جلالته فيأمر بإحضار الشاهى ، فيحضر الشاهى فى أكواب لامعـة مشرقة ، فنتناوله ونحن فى ظمأ إليه ، وجلالته لايشرب منـه وإنما يأمر به إكراماً لضيوفه ولما يعلمه عن عادة المكيين فى شرب الشاهى برغبة خاصة ، ثم يأمر جلالته

بإحضار مباخر العود والغد ، ومرشّات ماء الورد فتدور على الحاضرين للتبخير والتعطير وهذا يعتبر إذناً للحاضرين بالانصراف وهو عادة تستعمل فى نجد عند الخاصة والعامة ولهم فيها أقوال مشتملة على شعر ونثر وأمثلة ، منها قولهم «مابعد العود قعود »

وفى الواقع أن إطـلاق البخور فى ختام المجلس إيذاناً بانتهائه ، عادة من أظرف التقاليد التى تحل المشكلات وبها يرتاح الضيف والمضيف ، ويستريح كلاهما !!

وننصرف من حضرة جلالته بعد ذلك ، حيث يعكف على أعماله العامة والخاصة ثم نقصـد إلى التشرف بزيارة حضرة صاحب السمو الملـكى الأمـــير سعود ولى العهد فى مخيامـه الخاص ، ثم إلى مخيام حضرة صاحب السمو الملـكى الأمير فيصل نائب جلالة الملك ، فنتشرف بالسلام على سموه أيضاً ، ونقضى فى حضرة سموه مدة كالتى أمضيناها فى مخيام ولى العهد المعظم ، وقد تفضل الأمير فيصل منـذ أول يوم تشرفنا بزيارة سموه فى مخيامه الخاص ، فأمر بأن تقدم إلينا أوعية كبيرة من لبن الإبل ، فيأخذ كل فرد منهم إناءه،ويتبارى الرفقاء فى تجرع تلك الـكميات الـكبيرة التى ما كان يمكن استساغة تناولها لولا مافى جو البادية من نشاط جعل الشهيّة تُقبل من غير وعى ولا تدبّر على تناول تلك الـكميات من الألبان والأطعمة واللحوم وقد تعوّدنا تناول تلك الـكمية من اللبن ظهر كل يوم فى تشرفنا بزيارة سموه ، وأصبحت راتباً لاينقطع ، وكان لهـا أكبر الأثر الصحى فى نفوس الرفقاء جميعاً . وبعد أن ننتهى من التشرف بزيارة سموه ننصرف من لدنه ، فإذا كان فى الوقت سعة نقصد إلى زيارة من يتسع الوقت لزيارتهم من حضرات أصحاب السمو الأمراء ، وإذا كان الظهر قد حلّ وحلّت بذلك مواعيد انصرافهم إلى الغداء ، نعود أدراجنا إلى مخيامنا للاستراحة وتناول طعام الغداء والقيلولة .

أما كيف يقضى حضرة صاحب الجلالة الملك بقية يومه بعد منصرفنا من مخيامه

العامر، فإن جلالته يظل يصرّف أمور الدولة فيما يعرض على أنظار جلالته من البرقيات والمعاملات الحكومية والرسائل ، حيث يستدعى كبار موظفى قصره العامر : فهذا سعادة الشيخ محمد بن دغيتر أمين سر جلالته ، ورئيس ديوان البرقيات يعرض على أنظاره ما لديه من ذلك ؛ وهـذا سعادة الشيخ عبـد الله بن عثمان رئيس الديوان العالى يعرض على أنظار جلالته أوراقه ؛ وهــذا سعادة الشيخ ابراهيم بن عيدان رئيس شعبة الأرزاق ، يقدم إلى جلالته مافى يده من أوراق ؛ وهـذا سعادة الأستاذ رشدى ملحس يلتقط الخطى حول جلالتـه لتقديم أوراقه أيضاً . ثم هؤلاء أصحاب المعالى والسعادة مستشارو جلالته وكبار رجاله ، الشيخ عبـد الله السليمان ، الشيخ يوسف ياسين ، الشيخ خالد أبو الوليد ، الشيخ بشير السعداوى ، السيد حمزة غوث[1] ، يلتفون حول جلالته ، مجتمعين أو منفردين ، ويظل العمل متصلاً مستمراً بإدارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم إلى مابعد الساعة الخامسة بقليل ، فإذا كان الظهر على مقترب ، نهض جلالته وامتطى سيارته الخاصـة ، وسار فى معيته بعض رجال الخاصة ، ثم يلحق بجلالته أنجاله الأمراء ، ويقصد إلى روضة من رياض ذلك الوادى ، وهناك يكون لبن الإبل قد هيئ لتقديمه إلى جلالته مع قليـل من التمر ، فيتناوله جلالته كغذاء له ، وذلك فقط هو غذاؤه طيلة النهار ، بعـــد تلك الأكواب العديدة التى يتناولها من القهوة فى أجزاء مختلفة من أوقات اليوم والليلة ، وقليلاً مايشتهى تناول طعام الغـذاء الآخر من اللحم والأرز فى وسط النهار ، وبعد استراحة قصيرة ينهض جلالته فيمتطى سيارته قاصداً إلى الصيد والقنص والتجول فى الرياض المحيطة بالوادى ، فيمضى فى ذلك مدة ساعتين أو ثلاث ، إما فى الصيد أو التنزه ، وإما أن تطوف برأس ذلك الأسد المغوار سنة من النوم ، فيطبق أجفانه ويستسلم إلى تلك الغفوة العاجلة ، مدة قد تطول وقد تقصر ، يصحو بعدها جلالتـه

---

(١) فى أوائل هذا العام صدر أمر جلالة الملك بتعيين طبيبى جلالته الدكتور رشاد فرعون والدكتور مدحت شيخ الأرض ، مستشارين لجلالته .

متجدد النشاط ، كأنه استجم فى تلك الإغفاء واستراح بها من عناء الأعمال ، وبعد أداء صلاة العصر يعود جلالته إلى مخيامه العام فيشرفه فى تمام الساعة الحادية عشرة أى قبيل صلاة المغرب بساعة كاملة ، فيستريح قليلاً ، ثم يكون طعام العشاء قد تهيأ وأعد ، فيتناوله جلالته وفى معيته بعض أصحاب السمو الملكى أنجاله الأمراء، ورجال الحاشية وكبار موظفى الديوان العالى . ثم ينهض جلالته إلى أداء صلاة المغرب ، ومن ثم ينصرف إلى مخيامه الخاص ليقضى بين أسرته وأنجاله الأمراء الصغار منه ساعتين فإذا حان وقت العشاء أدى فريضتها وعاد إلى مخيام العمل .

ونظام العمل فى الليل ، هو أن جلالته يشرف إلى المخيام بعد صلاة العشاء ، ويكون فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجويز إمام جلالته حاضراً فيمضى مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل فى تلاوة جزء من التفسير ، وجزء من الحديث النبوى ويصغى جلالته بانتباه تام إلى ما يسمع من القراءة ، وكذلك جميع الحاضرين وبعد انتهاء القراءة يتشرف الجميع بالسلام على جلالته ، وتكون الساعة قد بلغت الثالثة ، ويلتفت جلالته إلى ضيوفه ، فيبتسم لهم، ويهش فى وجوههم ، ويسألهم عن أحوالهم وصحتهم، وكيف قضوا يومهم ، وقد يتلطف جلالته فى مداعبتهم والتبسط فى الحديث معهم . ويأمر بإحضار الشاهى والقهوة ، ثم يدخل الموظف المختص بأخذ أنباء الإذاعات اللاسلكية فى آخر النهار وأول الليل، فيأمره جلالته بأن يقرأ ما فى جعبته من الإذاعات فيقرأها وقد يتفضل جلالته بإبداء ما يَعنّ له من الملاحظات على الأخبار ويدور الحديث بضع دقائق فى أى موضوع كان ، تدور معه أكواب القهوة ، والشاهى .

وبعد ذلك نمضى فى حضرة جلالته مدة نصف ساعة مصغين إلى ما ينثره من روائع حكمه ، وجوامع كلمه ، وتدور الأحاديث مختلفة الطرائق والمواضيع ، حسبما توجيه المناسبة فقد يكون الحديث عاماً وقد يكون خاصاً ، وقد يتعلق أحياناً بتاريخ البلاد العربيـة أو بتاريخ جلالته أو بتواريخ الحوادث العامة ، وما إلى ذلك من مختلف



فيخرج المؤذن صائحاً ويسمعه الناس فى المخيام فيهبون جميعاً من سباتهم هبة رجل ، وترتفع الأصوات بالأذان فى كل جانب من جوانب المخيام ، وتدوّى بها الأرجاء من كل حدب وصوب ، فإذا المخيام كله مسجد كبـير يتألف من مجموعة مساجد بالنظر لاتساع رقعة الوادى وامتداد مداه ، وإذا الناس كلهم قائمون بالصلاة جمعاً فجمعاً . وبعـد أن ينتهى جلالته من الصلاة والعبادة والاستغفار والدعاء يظل فى مكانه إلى مابعد طلوع الشمس ، ثم ينهض فيصلى صلاة الضحى ، ويضطجع بعـد ذلك قليلاً فيستسلم إلى النوم مدة ساعة ، يغادر بعدها مخيامه الخاص إلى مخيام العمل .

وهذا الوصف الذى ذكرناه عن عادة جلالته فى النوم والصحو والعمل والطعام هو العادة المتبعة التى لايحيد جلالته عن اتباعها فى جميع الأوقات ، إلا ما تقتضيه المناسبات أحياناً من تعديلات طفيفة ضرورية فى الأسفار وأمثالها من الظروف .

نظام الروضة ـ أو أيام الاقامة

كان أول مافعله الرفاق بعـــد أن أدوا واجباتهم المفروضة الآنفة الذكر ، أن فكروا فى الواجبات الأخرى التى تلى ماتقدم ، فماذا يعملون ؟ ! ليس هناك غير الاتصال بالأهـل والعشيرة ، وذوى القرابة الأدنين فى مكة ، فلنتصل بهم برقياً لنطمئنهم على سلامة وصولنا ، ولنطمئن من أجوبتهم المنتظرة على سلامة وجودهم! فقد انقضى منـذ مفارقتنا إياهم سبعة أيام كاملة ، يخلق الله فيها مايريد ، ويحيي فيهـا من الأنفس ويميت ماتريده مشيئته ، فلنتصل بهم إذاً عن طريق ذلك البرق لنطمئن وليطمئنوا !! ولـكن هناك واجب هو بقية الواجبات ، فقد ذكرنا إلى جانب أهلينا وذوى قرابتنا الأدنين ، أولئك الذين تجشموا عناء المشقة لوداعنا ، واهتموا بأمرنا كل الاهتمام من كافة طبقات الأصدقاء .

وفى الحال أرسلنا رسالة برقيـة تحمل الشكر الجزيل إلى صفوة أولئك القوم ، لينوب بعضهم عن بعض فى أداء ذلك الواجب باسمنا جميعاً ، ثم توجهنا وجهة واجب آخر ، هو الواجب الشخصى ، فأبرق كل منا برسالة أو رسالتين إلى أهله وذوى قرابته الأدنين ، وانصرف الرفاق بالخلوة إلى أشخاصهم فى ساعة روحية وجدانيـة ممتعة ، وتمثـل كل منهم أقرب من يمت إليه بأوثق الصلات ، وأخذ يناجيه بالقلم مناجاة الشوق والوجد ويملى عليه من أثر الوحشة فى نفسه ما استطاع ، وجمعت تلك الرسائل ووجّه بهـا إلىمركز اللاسلـكى ثم إلى من أرسلت إليهم ، وسبحت أرواحنا معها نتخيّل وصولها واستلامها وأثر قراءتها فى نفوس الأهل والعيال !! ثم انتظار وصول الردود عليها أيضاً فى أقرب وقت وأقصر آن !!

وانقضى اليوم الأول ، أو الشطر الأكبر منه على المنوال الآنف الذكر ، ونحن

مانـكاد نفيق من لذة مانحن فيه من نشوة ! أولاً لسلامة الوصول إلى الغاية المقصودة والتشرف برؤية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وما غمرنا به من عطفه السابغ ، ولما للديار من لذة الجدّة والطرافة ، فهذه هى نجد ، وهل نحن حقيقة فى نجد ؟! أجل هذه نجد فسائل ربى نجد . . . وكذلك من كان فى رفقتنا من الحاشية والخدم ، كان الطرب يرقصهم بنشوة ماهم فيه من لذة الجدّة والطرافة ، وكانوا يتجارون فى سرور ومرح إلى قضاء ماهو فى أعناقهم من واجبات .

وفى الأصيل أخذنا نترقب زيارة من نحب من الأصدقاء ، وكرام الأخوان المحبين ممن هم فى خدمة حضرة صاحب الجلالة من الحاشية ، وكبار الموظفين ، وكنا قد أنشأنا مسجداً أمام مخيامنا نجتمع فيه من بعد صلاة العصر إلى أن نصلى فيه المغرب والعشاء ، أو نخلص منه إلى خيمة كبيرة خاصة «سرادق» أعددناه لاستقبال الضيوف ولأداء صلاة الصبح ـ حين يكون البرد شديداً ـ فكان كلا الموضعين مسجداً ومضيفاً ، أحدهما للصيف والآخر للشتاء حسبما تكون عليه ظروف الجو ، من الحر أو القر !! ولم يطل بنا المقام ، حتى خف إلى زيارة مخيامنا زمرة من أولئك المحبين الأصدقاء ، وفى مقدمتهم أصحاب المعالى والسعادة الشيخ يوسف ياسين ، والسيد حمزه غوث ، وبشير بك السعداوى ، والأستاذ رشدى بك ملحس ، وغيرهم من كرام الأصدقاء وكبار الرجال . أما الشيخ عبد الرحمن الطبيشى رئيس الخاصة الملكية فقد كانت زياراته لنا لاتنقطع بين إصباح وإمساء ، إما ليؤدى واجبه الشخصى أو واجبه الرسمى فى الزيارة والوقوف على شؤون راحتنا ، وإكرام وفادتنا ، وتكرير الترحيب بنا ، وانتظمت بعد ذلك الزيارات وتكررت بيننا جماعات وأفراداً ، وبين أولئك الأصدقاء طيلة مدة الإقامة فى الروضة ، وكان أكثرهم اختلاطاً بنا بعد ذلك الطبيب

الماهر المجاهد الدكتور محمد على الشواف[١] وكان منتدباً للعمل هناك يومئذ وهو يشغل منصب مدير صحة المدينة المنورة الآن .

وظلت إقامتنا فى روضة الخفس متسقة على هـذا المنوال ، صلاة فى الفجر حين يحل وقتها ، وتنزّه فى الصحراء مع الصبـاح الباكر ، والعودة العاجلة إلى انتظار حليب الإبل والتسابق إليه أو التهافت عليه ، ثم التعريج إلى تناول الشاهى ، والفضل فيه لسعادة الشيخ عباس قطان ، حيث وكل به موظفاً إخصائياً من قبله يجيد طهيه وتقديمه ، كما كان بطل حليب الإبل ، والبراعة فى تناوله ، واليقظة فى تقسيمه فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى ، سليل البادية ، وسليل العروبة ، وسليل الصحراء . ثم تناول طعام الإفطار ، واستراحة قصيرة نذهب بعـدها إلى السرادق الملـكى للتشرف بزيارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، وأصحاب السمو الملـكى أنجاله الأمراء إلى الظهر ، ثم العودة إلى الخيام وتناول طعام الغـداء والقيلولة إلى العصر ، ثم استقبال من يفد من الأصدقاء للزيارة ، أو الخروج إلى الصحراء والرياض للتنزه ، ثم تناول طعام العشاء ، بين المغرب والعشاء والذهاب إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم والعودة بعد ذلك إلى الخيام لتمضية الشطر الأكبر من الليل فى سمر ممتع طريف، وقد تفضل علينا حضرة صاحب السمو الملـكى الأمير سعود ولى العهد المعظم فأهدى إلينا

---

(١) كان الدكتور محمد على الشواف ، قد أهـدى إلى فى محرم عام ١٣٥٢ هجرية صورته وقد كتب تحتها بخط يده الأبيات الآتية :

إلى وادى «حماة» يحن قلبى	حنين المرضعات إلى بنيها
فأعشى إن ذكرت الدار شجواً	وتحسر مقلتى فأزيد تيهـا
فعكس الشمس يظهرها بنفسى	من الشوق العظيم إلى ذويها
ويهديها التحيـــة من معنى	يكابر أن يرى الأغيار فيها

فـكتبت له تحتها هذه الأبيات :

سل الشوق عن حب الديار فإنه	مثار حنين النازح المتطوح
سبتك «حماة» بالحنين وطالما	سبانى إلى «البيت» الحنين المبرح

جهازاً لاسلكيا لنتسلى به فى السمر ، ونستمتع منه بسماع ماتحمله إلينا موجاته من الإذاعات المختلفة وأهمها القرآن الكريم ، والمحاضرات الشائقة فى جميع المواضيع ، والأخبار الطريفة من كل بلد فى أنحاء العالم ! وكانت هذه المنحة من سموه بليغة الأثر فى تاريخ إقامتنا فى الروضة لما كان فيها من الإعانة على قضاء الليل والإعانة على سمره وسهره ، وكثيراً ما كنا ننشد مع أبى العلاء بلسان الحال قوله :

يا ساهد البرق أيقظ راقد السمر   لعل بالجزع أعواناً على السهر

أو كنا ننشد ذلك بلسان العمل ، فيعمد بعض الرفاق إلى إيقاظ من رقد منهم باستعمال أساليب القوة والدعابة حتى يكمل السمر ، ونستجمع قوة الاستعانة على السهر ويطول الحديث فى شتى أبوابه وأنواعه ومناحيه ، حيث كان الحنين قد أخذ يدب فى مساربه من النفوس .

ولا يخلو بين الرفاق من وجود أدباء وغير أدباء من المغرمين بالقراءة ، والغرام بالقراءة داء دفين شديد التسلّط على النفس لايعرفه إلا من ابتلى به ، وإن كاتب هذه السطور مطبوع على حب القراءة كلف بها ، بل إن كلفه بها يذهب بطيب المنام من أجفانه ، ففى الصباح الباكر لابد من المطالعة ، وفى الظهر بعد تناول طعام الغذاء لابد من المطالعة قبل الاستعداد للنوم والقيلولة ، وإن لم تتيسر المطالعة فلا نوم ولا قيلولة ! وفى الليل لابد من السهر والسمر ، أما السمر فليس هو غير المطالعة وإلا فلا نوم ولا هدوء ، ورحم الله القائل :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا   لم أجد لى وافياً إلا الكتابا
صاحب إن عبته أو لم تعب   ليس بالواجد للصاحب عابا
كلما أخلقته جددنى   وكسانى من حلى الفضل ثيابا
صحبة لم أشك منها ريبة   ووداداً لم يكلفنى عتابا
رب ليل لم نقصر فيه عن   سمر طال على الصمت وطابا

كان من هم نهارى راحتى ... وندامای ونقلی والشرابا
إن يجدنى يتحدث أو يجد ... مللا يطوى الأحاديث اقتضابا
تجد الكتب على النقد كما ... تجد الأخوان صدقا وكذابا
فتخيرها كما تختاره ... وادخر فى الصحب والكتب اللبابا
صالح الأخوان يبغيك التقى ... ورشيد الكتب يبغيك الصوابا !

ومن المغرمين بكثرة المطالعة فى زملاء الرحلة سعادة السيد صالح شطا ، وسعادة الشيخ عبد الرؤوف الصبان ، وهذا الأخير كل ما اصطحبه معه من مكتبته الحفيلة هو قاموس المنجد ! والمنجد كفيل بأن يقطع للقارىء فراغ شهر ، بل وفراغ عام ! أما السيد عبيد مدنى الشاعر الأديب فلا شك أنه من المغرمين بالمطالعة ، ولكنها مطالعة النهار دون الليل ، إذ هو لايقوى كثيراً على القراءة ليلاً ، ويلوح أنه لهذا السبب لم يصطحب معه غير النزر اليسير ، وهناك شيخ المغرمين بالمطالعة وفارسهم المجد ، وهو فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى ، وغرامه بالمطالعة غرام اجتماعى طريف يلوح أنه تأثر به من الناحية التعليمية الدينية التى من دأبها أن يجلس الشيخ للقراءة الجهرية فى حلقة الدرس على مستمعيه من طلاب وغير طلاب ، ولهذا كان فضيلته لايقرأ لنفسه بل يقرأ للجميع ، ويدعوهم إلى الإصغاء لما يقرأ ، وكثيراً ما كان السمر الممتع فى النهار أو الليل لاينقضى إلا بحلقة واسعة يتصدرها الشيخ ويقرأ فيها مانقترحه عليه من المواضيع أو مانقدمه إليه من الكتب أو المجلات والصحف ، وقد يتعمد البعض إحراجه ومضايقته على سبيل الدعابة والفكاهة وقطع الوقت ، بالأسئلة المتلاحقة التى لا يكون لها أى محل من الإعراب، بغرض استثارة الشيخ أو استفزازه والشيخ مسترسل فى قراءته ، غير متوقف فى إجاباته ولا متحرج ، مهما طالت الأسئلة ومهما كان العنت ظاهراً فيها ، وبذلك ينقضى وقت طويل من ألذّ أوقات

المطالعة أو السمر ، وهو لايخلو من فائدة على كل حال ، وقد تتحقق تلك الفائدة إما من سماع مافى الكتاب ، وإما من جدل الأسئلة وما تؤدى إليه من الأجوبة .

أما الشريف شرف فقد كان من الذين يديرون دفة الجدل ، بكل مايتطلبه ذلك من المهارة ، وما يحتاج إليه من أساليب المداورة والإيقاع ، ثم هو بعد انطلق شاعراً ، فكان لا يكاد يتكلم إلا بالشعر ، وتكاد كل عبارة من لسانه تجرى بشطرة من بيت أو ببيت من شطرة ـ أرجح هذا التعبير ـ وكنا نهنئه كثيراً بهذا الفوز العظيم وكان يداعب زملاءه الشعراء بهذه الظاهرة الرائعة ، ويقول لهم إننى سأرجع من هذه الرحلة شاعراً ، إن لم أتفوّق عليكم فى مراتب الشعر ، فلا أقل من أن أساويكم فيها ، أما شيخ الرواة ، وشيخ المحدثين ، فهو السيد عبد الوهاب نائب الحرم ومدير الأوقاف الذى كان عليه القسط الأوفر من السمر وإدارة المجامع ، وكان إذا تكلم أنصت الجميع ماشاء له الله أن يسترسل من الساعات قلّت أو كثرت حسبما تكون عليه الظروف والمناسبات ، وذلك الإنصات فى شغف ولهفة وتزيّد ، بحيث لايتطرق الملل ولا السأم إلى النفوس إلا إذا حان وقت المنصرف إلى عمل من الأعمال ، يقطع تلك السلسلة التى لا انتهاء لها !!!

أمراء آل سعود

ولقد كانت لنا جولات فى زيارة حضرات أصحاب السمو الملكى أمراء آل سعود وفى مقدمتهم أخوان جلالة الملك وأنجاله وغيرهم من أمراء هـــذه الدوحة الزكية الـكريمة . من كان منهم فى روضة الخفس فى معيـة صاحب الجلالة ، ومن لم يكن منهم فى معيته تشرفنا بزيارته عنـد وصولنا إلى الرياض . ولا أجد أسعد من هـذه المناسبة المتاحة للتحدث عن بعض حضراتهم ، بعد أن أجملت الحديث فى فصل سابق عن « الأدب السعودى » إشارة إلى ما تحلوا به جميعاً من كرائم الصفات ، وجليـل المآثر . ولقد كان من حسن حظى أن سعدت فى بعض الظروف قبل هـذه الرحلة وبعدها ، بصداقة بعض حضراتهم والتعرف الشخصى ببعضهم ، ومخالطتهم عن كثب، فلمست فيما وجدت خير ماتقع عليـه عين المشاهد من مباهج القلب والنفس ، وفيما أجملت الإشارة إليـه فى الحديث عن الأدب السعوى ، لمحة من ذلك . ولقـد كنت أزداد سعادة لو أن ظروفى الماضية شرفتنى بالتعرف الشخصى ، والاتصال الـكريم بحضراتهم جميعاً حتى كنت أستطيع أداء واجب الـكتابة عنهم واحداً فواحداً ، حسبما أشتهى أن أظفر بتسجيله من كرائم المعلومات ، وطرائف المخبآت . فأما وأن الظروف لم تسعدنى بذلك فى الماضى ، فالأمل ـ إن شاء الله ـ أن يصلح العطار ما أفسد الدهر، وأن أظفر من أمانىّ بمـا أريد ، وليس ذلك على الله ببعيد !! على أن الذى أريده من وراء ذلك ليس سوى تسجيل ما أسلفت الإشارة إليـه من مواضع القدوة فى خلقهم الـكريم ، وتدارك ما فاتنى تعرفه فى بعضهم فيما تقدم من الأيام .

الأمير عبد الله بن عبد الرحمن

ومن أبرز أمراء آل سعود ، سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، أخو جلالة الملك المعظم ، وهو أمير مرموق المكانة ، ملحوظ العناية ، بارز الصفات ، قوى الشخصية ، وله علاوة على هذه الميزات التى حباه بها الله وجمّله بها ، صفات أخرى جليلة القدر ، لمكانته العلمية ، وشغفه بالعلم ، فهو واسع الاطلاع ملم بشؤون الدنيا ، بصير بأمور الحياة ، وله مكانة مهيبة موقرة . سألت سموه مرة عن إحدى المجلات وعما إذا كان يطلع عليها ويقرأها ، فتفضل بإجابة زادت معرفتى بتقديره للعلم والمطالعة المثمرة المفيدة ، حيث قال ما معناه : إنه لايطالع إلا صفوة مختارة من الصحف لأن وقته لايتسع لقراءتها جميعها ذلك بأن الصحف فيها مافيها من الغث والسمين فلو عنى بمطالعتها كلها لما وجد وقتاً لمطالعة الكتب المختارة التى تحمل رياض العلم وأفانين المعرفة ! وقد عرف واشتهر عن سموه أنه شغوف بالمطالعة والقراءة والاطلاع ، ولكن على كل نافع مختار من الكتب ، لا على كل مايطبع وينشر !! ولسموه مكتبة حفيلة يعنى بها عناية خاصة جعلت لها مكانتها وتقديرها .

وجلالة الملك يحبه ويقدره ، ويقدر فيه الصفات الآنفة الذكر ، ولذلك قلما تراه يفارق مجلس جلالته فى الحل والترحال . ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء فهد ، وسعد ، ومصعب ، وفيصل ، ويزيد ، ومحمد ، وعبد الرحمن ، وخالد ، وسعود ، وبندر .

أنجال جلالة الملك

وأنجال جلالة الملك حفظه الله ، وأطال فى حياتهم فى ظل جلالته ، هم حضرات أصحاب السمو الملكى حسب ترتيب أعمارهم :

سعود . فيصل . محمد . خالد . ناصر . سعد . منصور . فهد . عبـد الله . بندر . مساعد . عبـد المحسن . مشعل . سلطان . عبد الرحمن . متعب . مشارى . طلال . بدر . تركى . نواف . نايف . فواز . سلمان . ماجد . تامر . عبد الإله . أحمد . سطام ممدوح . هذلول . عبد المجيد . مقرن .

الأمير سعود ولى العهد

والأمير سعود هو النجل الأول لصاحب الجلالة ، وهو ولى عهد المملكة العربية السعودية ، وسموه معروف للعالمين العربى والأوربى ، أولاً لأن كبراء المسلمين الذين زاروا البلاد المقدسة تشرفوا بمعرفة سموه فى تلك البـلاد أثناء حجهم ، وثانياً فإن سموه زار الهند والبلاد الأوربية مرات تشرف أثناءها كثير من ساسة العـالم وكبار رجاله بمعرفة سموه معرفة وثيقة عن كثب ، وقد لمسوا فيـه مايعرفه الجميع عن دماثة خلقه الكريم ، وسعة اطلاعه ، وكريم صفاته ، بمـا هو مطبوع به على فطرة جلالة والده العظيم ، وقد ألمحنا فى فصل سابق ببعض الصفات الكريمة التى يتحلى بها خلقه الكريم . ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء عبد الرحمن ، ومحمد ، وخالد ، وفهد ، وسعد ، وفيصل .

الأمير فيصل نائب جلالة الملك

والأمير فيصل هو النجل الثانى لصاحب الجلالة ، وهو نائب جلالته فى الحجاز، ورئيس مجلس الوكلاء ، ووزير الخارجيـة ، ورئيس مجلس الشورى . وقد أسبغ الله على سموه من مكارم الأخلاق الشىء الذى لايبلغه وصف كاتب ولا بلاغة بيان ؛ ولقد انعقد إجماع القلوب على محبته وتقديره ، والنظر إليـه نظرة الاطمئنان ، والوثوق

بعدله وعطفه بما لم يسبق أن ظفر به حاكم من قبل ، ذلك علاوة على ما حباه الله من العلم والثقافة والمعرفة وسعة الاطلاع وحسن البصر بالأمور وهى صفات جعلته موضع إعجاب كل من رآه فى العالمين العربى والأوربى ، وقد زار سموه البلاد العربية والأوربية مرات عديدة كان فى كل مرة منهـا قطب الرحى وملتقى الجامع ، وكعبة الآراء . ولسموه من الأنجال الأمراء ، عبد الله ، ومحمد، وسعود ، وخالد ، وفهد، وعبدالرحمن، وخالد ، وسعد ، وبندر .

الأمير محمد بن عبد العزيز

والأمير محمد ، ثالث أنجال صاحب الجلالة ، وهو يحمل لقب « أمير المدينـة » وسموه من أبرز أمراء آل سعود وله من صفات من إخوته ما أثر عنهم من كريم الخصال وجليل الصفات ، وكما أن سموه عرف بالفروسية وله ولع خاص بركوب الخيل ، عرف بالشجاعة والإقدام والحزم وأصالة الرأى . وقد قام سموه برحلة إلى اليمن فى سفارة خاصة موفداً من قبل حضرة صاحب الجلالة والده العظيم فى شهر صفر من عام ١٣٥٩هجرية مارس سنة ١٩٤٠ . وقد قدم من نجد إلى مكه فى ذلك التاريخ فاحتفى بمقدمه الـكريم وأقيم لاستقباله احتفال جليل ألقيت فيه القصائد الآتية :

مشت (الرياض) وماست (البطحاء)	وهفت إليك بقلبها (صنعاء)
واستبشرت بك فى (السفارة) أمة	يحدو أمانيها ـ الجسام ـ رجاء
هى فى يديك أمانة ـ مرموقة	تشدو بهـا الأجيـال والآناء
فاسلك طريقك واستبق فى حلبة	فيهـا الهدى والعزة القعساء
وأفض هنالك بالحـديث مودة	تشذى بهـا الأصقاع والأرجاء
واشدد من (القربى) وشائج وصلها	واسطع فإنك كوكب وضاء
وخذ القلوب فأنت بين صميمها	ولنحن بين يدى رضاك فداء
وأشد صروح الحب بين جوانح	هى (للعروبة) كلها ـ أحنـاء

وانعم وعد للشعب أعظم وافد تدنو به الآمال وهى رخاء
وعليك من (سر الأبوة) مظهر ينمى إليه المجد والخيلاء
عاش الأمير ابن المليك (محمد) وبنو أبيه القادة الأمراء
وليحى للاسلام ملجأ أهله (عبد العزيز) وآله النجباء

مكة فى ٤ صفر ١٣٥٩

أحمد ابراهيم الغزاوى

* * *

قدمت فهذا الشعب بالبشر يخفق يرف عليه اليمن منك ويشرق
تطالعه من حسن لقياك بهجة يزيد سناها ضوؤك المتألق
فمن فى جوار البيت نحوك شيق ومن فى ربى نجد وصنعاء شيق
وما نحن إلا أمة عربية يؤلفها دين وأرض ومنطق
وما نحن إلا أمة عربية تألفها جسم وروح ومفرق
وما نحن إلا ذلك الجسد الذى إذا ما اشتكى عضو يميد ويطرق

* * *

فسر لبلاد سوف تلقى بساحها كرامة ذى القربى برؤياك تشرق
إلى الجيرة الأدنين والاخوة الألى جرى الود فيما بيننا يتدفق
وهل فى صِلات الود أوكد غاية من الدين والفصحى رباط موثق
فبلغ إلى الشعب الشقيق تحية تعبر عن صدق الوداد وتعبق
فأنت رسول الخير ما بين أمة موحدة ، بالله والدين تعلق
وأنت ابن ذياك المليك وشبله وان أباك العبقرى الموفق

مكة فى ٤ صفر ١٣٥٩

فؤاد شاكر

وقام سموه بمهام هذه السفارة خير قيام وعاد منها عودة كريمة فاستقبل فى الحجاز بحفاوة بالغة كبرى وأقيم لاستقباله حفل جامع مشهود ، ألقيت فيه القصائد الآتية :

يا قادماً ـ ويد الرحمن ـ تكلؤه   والشعب يرمقه ، والعين والأذن !!
ويابن من لو هتفنا باسمه شرفا   تلفت الدهر ـ عجبا ـ وهو مفتتن !!
ويا أخا كل منصور ـ بفيلقه   بك (الحجاز) تهادى وازدهى (اليمن) !!
إنى شهدتك فى (صنعاء) من أمم   حيث المكارم فى أكنافها سنن !!
وبين برديك من (عبد العزيز) فتى   تميد من حوله الدنيا ويتزن !!

* * *

بلغتها وهى ـ نشوى ـ أن تراك بها   وفى رباها لمن يهفو لها سكن !!
فبادلتك سلاف الود صافية   كؤوسه وهو فى الأعماق ـ مكتمن !!

* * *

واليوم ترنو لك الأبصار شاخصة   و(الدين) و(المجد) و(التاريخ) و(الوطن)
رفت عليك ـ ولما تدر ـ أفئدة   تكاد من وجدها تجرى بها السفن !!
ظلت تواكب سيف البحر حائمة   من (اليمامة) حتى استبشرت (عدن) !!
ترود فيك (الرياض الحوّ) خافقة   وفى يمينك من أعراقها رَسَنُ !!
فلم تغب عن قلوب فى جوانحها   حلت منذ تجلى وجهك الحسن !!

* * *

فاستنطق الأفق يشهد أنها انطلقت   وكلها لك فى أسرارها منن !!
وانظر إلى أمة خفت إليك ضحى   كانك الشمس فى أعقابها الزمن !!
مشت إليك بها الأرواح شادية   كأنما هى طير شاقه الفنن !!

ودت لو أنك تجزيها بما احتملت فيك (الإقامة) مما شفَّها (الظعن) !!
وقد وعـدت فأنجز فيك مأملها فمـا لو عدك مهما سمته ـ ثمن !!
واسكب عليها ضياءً منك تقبسه حتى تفيض به الأرجاء والمدن !!
واقبل تهانئنا كالروض رق به حب الغمام ـ فراق الزهر والغصن

* * *

وابلغ (ملاذ بنى عدنان) قاطبة تحية ماؤها الإخلاص والشجن
تأرجت بعبير الشوق ـ عابقة بها الشواطئ و (الدارات) والقنن
تزجى من الشوق آيات مرتلة كما صفا الطل وانهلت به المزن
وقل هنالك فى (أم القرى) شغف هيهات يحكى مدى استشرافه (حضن)
تنافس القوم فيـه واستووا فرقا كما استوى فى هواك السر والعلن !!
لا زلت ترفل فى النعماء وارفة ظلالها ـ وبك التوفيق ـ مقترن !!

مكة المكرمة ١٠/٣/١٣٥٩ احمد ابراهيم الغزاوى

* * *

أقبلت وضَّـاح الجبين كالليث يخطر فى العرين
متهلل القسمات فى وضَحٍ من البشر المبين
أديت حق « سفارة » عزت نفوس المخلصين
أنعم بشخصك من وفىٍّ فى سفـارته أمين
أدى الرسالة حقهـا أو زاد فيهـا ما يبين
شأن الرزين إذا انبرى لرسالة الرأى الرزين

* * *

أرأيت يا مولاى من صـور تبدت لليقين ؟
أرأيت من صـدق الولاء وصدق مبعثه المبين ؟
هو ذاك بعض ولاء شعب فى محبته أمين
فلأنت منه فى الجوانح كامن أو فى العيون
هو فى محبته لعـرش أبيـك محمىّ القـرين
أولاه محض الود والا خلاص والحب المـكين

* * *

أولست غصنا مثمراً فى دوحة الملك الأمين ؟
وابن المليك المقتدى وأخا الرجال النابهين ؟
عبـد العزيز وحسبه ما فيه من تقوى ودين !
عبـد العزيز وحسبه أنجـاله فى المتقين
أنعم به وبهم حمـا ة العدل فى البلد الأمين
دامت مفـاخره مؤ يّدة على مر السنين

١٠ ربيع الأول ١٣٥٩ فؤاد شاكر

وقد عنينا بإثبات هذه الأبيات لما فيها من التعبير الصحيح الصادق عن صفات الأمير محمد ونبل سجاياه . وهو تعبير غاية فى الاقتصاد . ولسموه من الأنجال الأمراء فهد ، وبندر، وعبد الله . ونجله الأمير فهد هو أكبر أنجاله وهو أمير مهذب مثقف له شغف بطلب العـلم والمطالعة ، دائب القراءة والاطلاع على الصحف والمجلات والاتصال بالعالم وله منزلة أدبية علمية خاصة .



لجميع سكان المملكة العربية لما اشتهر به من الصفات الجليلة المهيبة الكريمة ، وأهمها الشجاعة والإقدام وحسن الرأى ، وقد أسند إليه صاحب الجلالة ، منصب وزير الدفاع فى عام ١٣٦٣ هجرية ، فقام بأعباء هذا المنصب خير قيام ، ونهض بوزارة الدفاع نهضة حيوية كبرى حتى دبت فيها روح النشاط ، وأخذت مكانتها اللائقة بها ، ويعود الفضل فى ذلك إلى نشاط سموه وإقدامه وهمته العالية . وفى عام ١٣٦٤ هـ أسند إليه صاحب الجلالة رتبة « الفريق الأول » فكان جديراً بأن تزدان بسموه هذه الرتبة ، كما ازدانت به من قبل مرتبة الوزارة . وفى خلال هذين العامين ، سافر سمو الأمير فيصل إلى أمريكا وأوربا فى رحلات متعاقبة عديدة ، فقام سموه بالوكالة عن نائب جلالة الملك خير قيام ، ونهض بأعباء الحكم فى الحجاز وإدارة دفة الأمور على أحسن وجه وأكرم منوال ، حتى حاز سموه الإعجاب من جميع الطبقات ، واستولى على الألباب بما أبداه من الحنكة والرزانة وحسن البصر بالأمور ، وذلك كله إلى جانب عمله الآخر فى وزارة الدفاع ، وإلى جانب خدمته كابن لوالده صاحب الجلالة مدة وجوده فى الحجاز أيام الحج . ولقد استولى الأمير منصور على القلوب إلى جانب استيلائه على العقول بما ظفر به من محبة بعد ما ظفر به من إعجاب ، وإن من أروع مايثلج صدر كل مؤمن مخلص أن يرى الأمراء أبناء جلالة الملك موضع تقدير الناس وحبهم بما ينتزعونه بأعمالهم ومجهودهم من ذلك التقدير وذلك الحب ، وإنهم لجديرون كل الجدارة بذلك ، بانتسابهم إلى صاحب الجلالة ، وبأعمالهم المجيدة الخالدة ، وصفاتهم الطريفة التالدة .

وقد سافر سموه إلى الهند وفلسطين وسوريا ومصر ، وكان فى كل مكان زاره موضع الإعجاب والتقدير .

وفى اليوم الذى تولى فيه سموه أعمال الوكالة عن نائب جلالة الملك ، أقيمت حفلة

بعد صلاة الجمعة فى دار الحكومة أنشد فيها الأستاذ أحمد ابراهيم الغزاوى بين يدى سموه الأبيات الآتية :

(منصور) يا ابن (أبى الصقور) وأخا البواشق والنسور
أنتم كواكبنا التى يزهو بها فلك العصور
من غاب منكم لم يغب إلا ليطلع فى (حبور)
غمر (التفاؤل) أمة بسمائها تبدو (البدور)
نرجو لك التوفيق فى ما تصطفيه من الأمور

وقد عقب فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى ، فاتح بيت الله الحرام ، وعضو مجلس الشورى على ماتقدم بالكلمة النفيسة الآتية التى اشتملت على وصف صادق لكثير من سمات الأمير وخصاله .

يا سمو الأمير

«مهما أحسن الناظم.ومهما أسهب الناثر فإنه لايبلغ بإحسانه وإسهابه ماتحليتم به من خلق كريم وسجايا عالية ، وإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتولى إعانتكم وتوفيقكم ، وأن يحفظ للجميع حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم وسمو أنجاله الأشاوس .

يا سمو الأمير المحبوب

«لقد جبلك الله على الطلاقة والبشر ، وآتاك إلى ذلك العزم المدرع ، والقلب المطمئن المشيع ، ووهبك الذكاء النادر ، والشجاعة الخارقة ، والإيمان الصادق ، واليقين الثابت ؛ تلك الأخلاق القويمة الممتازة التى هى غرة فى سجل المفاخر ، والتى تضىء بها آفاق الجزيرة العربية .

«وأى غريب فى ذلك وأنت ابن (عبد العزيز) إنما أنت وأخوتك الأشاوس سر

أبيك المفدى ، ذلك الأسد الهصور الرابض على آجامنا ، والمتغلغل حبه فى صميم أفئدتنا وأعماق أكبادنا .

«إننا لنشعر بالغبطة تملأ قلوبنا حينما نرى سموكم تنهضون بالأعباء الكبيرة والمهام الخطيرة ، وتقيمون البرهان تلو البرهان ، والدليل إثر الدليل على عظيم استعدادكم لممارسة الشئون العامة ، وكل مافيه خير البلاد وسعادتها .

«ياسمو الأمير إننا فى الوقت الذى نشعر فيه بأشجان الفراق تعتلج بين جوانحنا بمغادرة سمو أخيكم المعظم النائب العام كلأه الله وركبه المحروس بعنايته الصمدية، لتعترينا هزة من الفخر والزهو والارتياح انكم تسدون مكانه وتملأون الفراغ الذى يحدثه غياب سموه ، وتثبتون للشعب قاطبة أنكم لاتدخرون وسعاً فى احتمال المشاق ، وتذليل الصعاب فى سبيل إنعاشه وإنهاضه وسعادته» .

وفى اليوم الذى أسندت فيه إلى سموه وزارة الدفاع أنشدت بين يدى سموه الأبيات الآتية :

بمثلك تزدهى رتب المعالى ... وزير المشرفيّة . والعوالى
وباسمك وهو منصور مفدّى ... تزلزل فى الوغى صمّ الجبال
ومالِيَ لا أقلّدُ جيد شِعرى ... ثناءك وهو من أغلا اللآلى
وأنت ابن المليك وخير مَلْك ... أتى فى عصره فخر الأوالى
وأنت أخو البطولة من (سعود) ... (وفيصل) والشّبولة فى الكمال
ومَنْ (عبد العزيز) له مثال ... له من مجده أعلا مثال

١٤ محرم سنة ١٣٦٤ ... فؤاد شاكر

وفى اليوم الذى أسندت إلى سموه رتبة الفريق الأول ، ألقيت بين يدى سموه هذه الأبيات :

بِكَ ازدهت فى ذرى عليائها الرتبُ كما ازدهى بك فى أمجاده الحسبُ
فاهنأ بأنك « منصور » وقد ضمنت لك السعـــادة باسم الله والغَلَبُ
قيل الفريق : فقلنا أىّ مرتبـــة تدنو إليك وقد زينت بك الرتبُ
نيطت بمجدك أمجاد مؤثلة تطلّعت نحوها من أفقها العربُ
ألست شبل أبى الأشبال قاطبـة حامى العرين ومنه المعقل الأشبُ ؟!
هو المليك لأهل الضاد أجمعهم وإنه لهمو فى الحادثات أبُ

١٨ الحجة ١٣٦٤ **فؤاد شاكر**

الأمير فهد بن عبد العزيز

والأمير فهد بن عبـد العزيز ، هو النجل الثامن لجلالة الملك ، وهو أمير رقيق الحاشية رشيق يشترك مع إخوانه الأمراء فى صفات من المحامد وكريم الخصال ، هى من ميزات هذه الأسرة الـكريمة ، وهو كثير الحياء ، شديد الخفر ، وسيم الطلعـة كأخوانه الأمراء ، وقد سبق له أن سافر إلى أمريكا وأوربا فى رحلة مع سمو الأمير فيصل وقـد زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير عبد الله بن عبد العزيز

والأمير عبد الله بن عبـد العزيز هو النجل التاسع لجلالته ، وهو من الأمراء المحبوبين ، وهو يشترك مع أخوانه الأمراء فى تلك الصفات الجليلة التى هى ميزات هـذه الأسرة الـكريمة ، وقد زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى جلالة الملك فاروق الأول إلى سموه الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير بندر بن عبد العزيز

والأمير بندر بن عبد العزيز ، النجل العاشر لصاحب الجلالة من أذكى الأمراء يتحلى بصفات كريمة هى من ميزات أسرة آل سعود ، وكان فى معية جلالة والده المعظم فى زيارته لمصر فى هذا العام ١٣٦٤ . وأهدى إلى سموه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير مساعد بن عبد العزيز

والأمير مساعد بن عبد العزيز ، أمير له مكانة أدبية خاصة وقد برز فى عالم الأدب وبلغ فيه درجة رفيعة ، وهو كثير الشغف بالمطالعة والقراءة والدراسات الأدبية ، كما أن له صلة بالعالم عن طريق المنبر العام الذى هو منبر الصحافة ، إذ أن سموه مشترك فى كثير منها وتصل إليه أعدادها بانتظام ، ولسموه اهتمام كبير بمسايرة شؤون العالم لما وهبه الله من سعة المدارك ، وعلو الهمة ، والشغف بالعلم والتعليم ، فهو ملم بأمور الدنيا لاتكاد تفوته من أحوالها شاردة ولا واردة . وقد سافر إلى مصر فى معية جلالة والده المعظم ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز

والأمير عبد المحسن النجل الثانى عشر لصاحب الجلالة ، وهو أمير رقيق الحاشية مهذب ، يتجمل بمكارم الأخلاق ، وله شغف خاص بالأدب ، كثير الاطلاع ، ذلك إلى جانب ميزاته الأخرى فى الصفات المشتركة التى يتحلى بها أمراء آل سعود . وقد

زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليــه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير مشعل بن عبد العزيز

والأمير مشعل بن عبد العزيز من الأمراء الذين يتمتعون بكريم الخلال ، وحميد الخصال ، وهو كغيره من أخوانه الأمراء الذين انعقدت القلوب على حبهم لمـا حباهم الله به من نادر الصفات ، وقد زار مصر فى معية جلالة والده المعظم ، وأهدى إليــه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير سلطان بن عبد العزيز

والأمير سلطان بن عبد العزيز ، أمير مهذب ، رقيق الحاشية ، كثير الاطلاع ، شغوف بالعلم ، واسع المعرفة ، وله من صفات إخوانه الأمراء كريم الخصال التى يتميز بها أمراء آل سعود ، وقد زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليــه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز

والأمير عبد الرحمن بن عبــد العزيز من الأمراء الأماثل الذين حباهم الله مكارم الأخلاق ، وجميــل الصفات ، وهو كأخوانه الأمراء فى رقة الحاشية ، وعلو الهمة ، وكرم الشمائل .

الأمير متعب بن عبد العزيز

والأمير متعب بن عبد العزيز ، أمير مهذب ، كريم الخلق ، رقيق الحاشية . وقد زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليـه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيـل ، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما حباهم الله من جلائل الخصال .

الأمير مشارى بن عبد العزيز

والأمير مشارى بن عبد العزيز من الأمراء الأماثل الذين امتازوا بالخلق الـكريم وهو كأخوانه يتمتع بما وهبهم الله من جلائل الصفات ، وحلاوة الشمائل .

الأمير طلال بن عبد العزيز

والأمير طلال بن عبد العزيز من الأمراء المحبوبين، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما منحهم الله من الخلق العالى الـكريم ، وقد زار مصر عام ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ثم زارها مرة أخرى فى معية جلالة والده الملك المعظم فى هذا العام ١٣٦٤ ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيـل ، ولسموه مكانة خاصة فى جميع الأوساط التى تشرفت بمعرفته ، فقـد حاز الإعجاب ، واستولى على الألباب بما فى شمائله من مكارم ، وبما فى أخلاقه من صفات .

الأمير بدر والأمير تركى ابنا عبد العزيز

والأمير بدر والأمير تركى من أنجال جلالة الملك المعظم وهم كإخوانهم الأمراء فى مكارم الأخلاق ، وكريم الصفات .

الأمير نواف بن عبد العزيز

والأمير نواف بن عبد العزيز من أصغر الأمراء سناً ولكنه رغم حداثته على جانب كبير من الذكاء والتعليم وقد زار أمريكا فى معية سمو الأمير فيصل ، ثم زار مصر فى معية جلالة والده الملك المعظم وأهدى إليه جلالة الملك فاروق ، الوشاح الأكبر من نيشان النيل ، وهو أمير محبوب من كل من رآه .

الأمير عبد الله الفيصل

وفى ذات صباح ، استيقظنا فإذا بشير يقول لنا إن الأمير عبد الله الفيصل قد وصل ، وكانت بشرى يا لها من بشرى ! فمن هو الأمير عبد الله الفيصل ؟ ! أنه الأمير الشاب المحبوب الذى نعرفه كانا فى مكة ، ولنا به صلات محبة ومودة وإكبار وتقدير ، وإنه نجل الأمير فيصل وكفى !! فلا عجب أن يغمرنا السرور ويفيض علينا البشر والفرح لمقدم هذا الأمير المحبوب .

وبادرنا بالسؤال عن مكان نزله من الخيام وتوجهنا بجملتنا إليه ، للسلام والتزود من اجتلاء طلعته الكريمة المشرقة فأسبغ علينا من عطفه وآدابه ما كنا نعرفه فيه من قبل ومن بعد .

والأمير عبد الله الفيصل ، شاب محبوب لما فيه من صفات هى الرجولة بعينها ، فهو رغم حداثة سنه على جانب كبير من العلم والمعرفة والذكاء واليقظة ، وقد تعلّم التعليم المنظم وكان مثال الجد والمثابرة والاجتهاد ولهذا قدّر الله له النجاح ، وساعده ذكاؤه الفطرى على استغلال تعليمه فى توسيع مداركه الذهنية والثقافية ، وبذلك صار رجلا وإن لم يبلغ سن الشباب ، فهو يصاول أكبر الرجال فى أعظم المجالس، ويدير دفة

الأحاديث مهما كان نوعها ومراميها ومباحثها ، ولايسع جليسه إلا أن يشعر بأنه فى حضرة رجل واسع المعرفة قوى الحجة ، عالم بشؤن بلاده ، عالم بشؤون العالم وما يدور فيه ، وله ولع بسباق الخيل وركوبها فهو فارس مغوار لا يشق له غبار ويعرف الخيل جيادها وأصائلها وأنسابها ، والفروسية صفة من صفات العرب ، وعادة من خير عاداتهم ، وهى فى هذا الأمير الشاب من أظهر ميزاته .

فالأمير عبد الله نابغة الشباب وزينتهم ، بما حباه الله من كريم الصفات الآنفة الذكر ، وما جمع حوله من محبة القلوب وتقديرها ، وحسب هذا الشبل أن يكون وليد ذاك الأسد ، وحسب العرين الذى أنجب أباه ، أن يكون من نجبائه عبد الله !

وقد زار سموه مصر وأوربا وأمريكا فى عام ١٣٦٣ ، كما أنه تولى الوكالة عن نائب جلالة الملك المعظم ـ سمو والده الأمير فيصل ـ فى غيابه وقام بأعباء الحكم خيرقيام.

الأمير سعود بن سعد

قلت فى مقدمة الحديث عن أمراء آل سعود إننى لم يسعدنى الحظ بشرف التعرف إلى جميع أصحاب السمو الأمراء ، فإذا قصّرت فى الحديث عن بعضهم فليس ذلك إلا إلى الفرصة السعيدة القريبة التى تتيح لى شرف الصلة بهم جميعاً إن شاء الله . ومن أبرز أمراء آل سعود سمو الأمير سعود بن سعد ، ابن أخى جلالة الملك ، فقد عرف سموه بالأدب الرفيع الذى هو أبرز صفات أسرة آل سعود ولسموه مكانة محبوبة مرموقة ذلك إلى جانب ما أغدقه الله عليه من نعمة العلم والمعرفة والذكاء وسعة الاطلاع . وقد زار سموه القطر المصرى فى عام ١٣٦٣ هجرية واحتفى به الحفاوة اللائقة بمقامه الرفيع ، وكان كاتب هذه السطور ممن أتيح له المساهمة فى تكريمه بمصر بالأبيات الآتية .

سعود ، ومن فى وجهه السعد يشرق ... ومن مجده فوق الأهلة يخفق

ألست سليل المجد فى الدوحة التى ... بها كل قلب فى العروبة يعلق ؟ !

سليل بنى آل السعود من الالى ... تعالى بهم فى الأفق نجم محلق
يشار إليهم بالبنان إذا بدت ... مطالعهم خفـاقة تتألق
نزلت بوادى النيل أكرم منزل ... فلاح عليـه من روائك رونق
ففى كل ناد من لقائك بهجة ... وكل فؤاد نحو رؤياك شيق
تركت به آثارك الغر تقتفى ... تلوح على أفق البلاد وتعبق
فإن كان فى الغادين من هو قاصد ... إلى المجد سباقاً ، فإنك أسبق

وأقام لسموه صاحب السعادة الفريق محمد حيدر باشا وكيل وزارة الشئون الاجتماعية للسجون المصرية ، وياور جلالة الملك فاروق ، حفلة تكريم كبرى فى « إصلاحية البنات بالجيزة ـ بمصر » ، أنشد فى ختامها كاتب هذه السطور الأبيات الآتية :

حفلة أشرقت سناً وسناءا ... وسمت بهجة وعمّت ضياءا
شعّ منها الإصلاح نوراً قيماً ... ملأ الخافقين روعة وبهاءا
بات فيها الأحداث أبهج حالا ... من سواهم سعادة ورواءا
كم سمعنا عنهـا وكم قد سمعنا ... ورأينا فجل ما قد تراءى
قام بالفضل فى البناء عظيم ... خير من شاد للعقول البناءا
«حيدر» وهو كاسمه ليث غابٍ ... أكسب الغاب منعة وإباءا
كم يد منك فى القلوب توالت ... كندى الروض بهجة وسناءا
فإذا ما كرمت آل سـعود ... فى أمير يمثـل الأمراء
فى سعود سليل قوم كرام ... ملـكوا الدهر عزةَ رفعاءا
فلك الفضل أولاً وأخيراً ... وتقبل مع على الصنيع الثناءا
وتقبل شكر الأمير كريماً ... فعسى الشكر أن يفيك الجزاءا

المأدبة الملكية الكبرى

وبينما كنا فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فى ذات صباح ، تفضل جلالته فقال لنا « نريدكم أن تتناولوا معنا طعام العشاء الليلة » فتقبلنا من جلالته هذه الدعوة الكريمة بالابتهاج والشكر والدعاء ، وبعد أصيل اليوم المذكور غادرنا مخيامنا إلى مخيام معالى وزير المالية لنرد الزيارة لمعاليه فتفضل باستقبالنا وإكرام وفادتنا وقضينا عنده ساعة وبعد أن أدينا صلاة المغرب معاً توجهنا إلى المخيام الخاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حيث كان ثمة مقر المأدبة الملكية التى تفضل جلالته بدعوتنا إليها . وصلنا إلى مخيام جلالته وكان الوقت ليلاً ، والمخيام الخاص كالمخيام العام ، كلاهما مضاء بالكهرباء ، ولكن المخيام الخاص يمتاز بجمال موقعه لأنه اختير مقراً هادئاً ، ومكاناً لاستجمام حضرة صاحب الجلالة ، فهو بالجملة عرين الأسد ومجمع آجامه ، وتقوم حوله سلسلة من الرياض المعشوشبة السندسية النضرة التى تبهج النفس وتشرح الصدر ، واقتادنا رجال حاشية جلالته إلى الخيمة الخاصة التى كان جلالته فيها ، فرأينا وياحسن ما رأينا من منظر عجب أبهج نفوسنا وشرح صدورنا ورسخ فى أذهاننا رسوخاً لايبارح خيالها إلى آخر الدهر .

فقد تشرفنا بالدخول إلى خيمة جلالته الخاصة ، وهى عبارة عن قصر جيّد التقسيم ، وأقسم أننا طيلة المدة التى مكثناها فى تلك الخيمة الخاصة لم نشعر أننا فى صحراء ونسينا أننا فى بادية أو روضة ، وسبح بنا خيالنا كأننا فى قصر منيف عامر البنيان رائع التقسيم .

دخلنا إلى الخيمة الملكية وهى عبارة عن خيمة فسيحة الأرجاء قد قسّمت إلى غرف صغيرة متناسقة فى الجمال والترتيب وحسن الذوق ، فأول ما يصادف الداخل

ردهة صغيرة ، ثم ممشى آخر يفضى إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة ، وهى خيمة جمعت أسمى معانى حسن الذوق والترتيب والجمال مع البساطة الخالية من التعقيد إذ ليس فيها شىء من زخرف الدنيا ولا من غريب المتاع ، وكل ما هنالك ذوق جميل وبساطة جميلة وتنسيق رائع ، دخلنا الخيمة فإذا الأسد يستقبلنا كعادة جلالته واقفاً فتشرفنا بالسلام على جلالته ثم دعانا إلى الجلوس فأخذنا أماكننا على كراسى منضدة فى جوانب المكان ، وكان لجلالته فى هذه الخيمة مقعدان لجلوسه ، أحدهما أرضى لايمتاز عن غيره من فراش الخيمة إلا بسجادة صغيرة نفيسة ومتكأ أعد بجانب تلك السجادة ، والمقعد الآخر علوى مرتفع ، وهو عبارة عن كرسى مستطيل نفيس فرش بسجادة نفيسة ومتكأ نفيس . وقد تفضل جلالته فجلس على أحد الكراسى ولم يأخذ لنفسه مكاناً خاصاً من ذينك المكانين اللذين وضع إلى جانب كل منهما لمبة كهرباء صغيرة أعدت للقراءة ، ويلوح أن جلالته يستعملها حين يطالع شيئاً أو يعرض عليه شىء .

وكان منظر الخيمة من الداخل بهيجاً شائقاً بما امتازت به من جو خيالى بديع ، فقد أضيئت بثريات الكهرباء العديدة المتناثرة وأطلقت على تلك الأنوار غيوم بديعة وسحب رقيقة من الدخان ! ولكن أى دخان ؟! ذلك هو الدخان الذى كان نوراً ساطعاً فى العين ، وعبقاً ذكياً فى الأنف ، وبهجة رائعة فى النفس ، هو دخان البخور بخور العنبر المحترق فى مباخر العود والند .

وقد أضفى ذلك الجو الخيالى البديع الشائق لوناً من البهجة والحبور ، لا نعرف لسروره مأتى ولا تعليلا ، وسبحنا معه فى تلك النعمة الوارفة كأننا فى حلم لم نستفق منه إلا بمغادرتنا ذلك المكان ، وقضينا لحظات ممتعة لانحسبها من العمر فى ذلك المكان العامر الحفيل بالنشوة ، وكان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، يمتع الحاضرين بطرف رائعة من نكاته العذبة ومداعباته الطريفة مما زاد فى جو المكان

أنساً وحبوراً ، وأضفى عليه موجة فياضة من البشر والسرور . وبعـد أن قضينا مدة ثلاثين دقيقـة فى الخيمة الملـكية الخاصة نهض جلالته قاصداً إلى غرفة الطعام ـ أو خيمته على الأصح ـ ونحن فى معية جلالته . وكانت الغرفة أو الخيمة عبارة عن سرادق كبير ، تناثرت فيه موائد الطعام على نسق مايفعل الأوربيون فى أرقى حفلاتهم والفارق الوحيد بين هـذه وتلك ، أن موائدنا هنا كانت مبسوطة على الأرض حيث نجلس إليهـا بحرية لاتشوبها رذائل الـكلفة والتقييد ، سوى ماتقضى به الآداب الإسلامية من قواعد هى جزء من سجية النفس وفطرتها ، فلا تـكلف فيها ولا إعنات!

وتفضل جلالته فتصدّر المائدة الرئيسية ، أو لعلها إحدى الموائد ، ولـكن بجلوس جلالته إليها امتازت بشرف الرئاسة والصدارة حيث لا فارق مطلقاً بين الموائد لا فى ألوانها ولا فى محتوياتها ، وترأس أصحاب السمو الملـكى الأمراء أنجال جلالته بقيـة الموائد الأخرى ، وتفرق أعضاء الوفد ورجال الحاشية وكبار موظفى ديوانه على الموائد من غير تفريق ولا تمييز حسبما اتفق ، وتناول الجميع الطعام هنيئاً مريئاً ، وكان عبارة عن قصاع كبيرة من الأرز والثريد واللحم الضأن ، ونثرت من حولها صحاف الادام المختلف الألوان ، وصحاف الحلوى ، وغيرها من الأطعمة ، وبعـد الفراغ من تناول الطعام ، نهض جلالته وتبعه الحاضرون فغسلوا أيديهم ثم قصدوا إلى الخيمة الملـكية الخاصة حيث أديرت عليهم أكواب القهوة العربية الشهية . وقد تشرفنا بالجلوس فى حضرة جلالته عشرين دقيقـة أخرى استمعنا فى خلالها إلى ما كان ينثره من روائع الـكلم وجوامع الحـكم ، ثم التمسنا الإذن بالانصراف ونهضنا مكررين السلام على جلالته رافعين أبلغ الشكر وأخلص الدعاء على ذلك العطف السامى الذى لا يقـدر . وكانت هذه الحفلة بما تقدم وصفه من روعتها وبهجتها موضع سمر القوم وحديثهم تلك الليلة ، ثم موضع سمرهم وأحاديثهم كلما استثارت النفس ذكريات رحلة الربيع ، وهى شىء خالد بخلود النفوس لايبرح خيالها مادامت الأرواح تخفق فى الأجسام والقلوب تنبض بدقات الحياة !!

مأدبة معالى الشيخ يوسف ياسين

وفى ذات صباح تفضل معالى الشيخ ياسين بزيارتنا على عادته الكريمة فى تردده علينا بالزيارة فى أوقات مختلفة بين الإصباح والإمساء ، ففى ذلك اليوم قال لنا إنكم مدعوون عندى لتناول طعام العشاء فى معية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم مساء الغد ، فشكرنا له كريم شعوره وكريم حفاوته ، وقبلنا دعوته شاكرين ، وكان ذلك فى يوم الخميس ١٥ صفر وكان ميعاد الدعوة مساء الجمعة ١٦ صفر ، وعلمنا أنها بالتحديد ستكون فى الساعة الحادية عشرة نهاراً أى قبيل صلاة المغرب بساعة واحدة ، وذلك مراعاة لعادة جلالته فى تناول طعام العشاء ، كما أسلفنا القول فى مناسبة سابقة .

وفى الساعة العاشرة من مساء يوم الجمعة ـ وهو ميعاد الدعوة ـ كنا قد وصلنا إلى خيام معالى الشيخ يوسف ياسين ، فكان يستقبل مدعويه بمنتهى البشاشة والإيناس والدعة ومكارم الأخلاق ، بينما كان فى نفس الوقت يقوم بإدارة ترتيب الحفلة والإشراف على كل كبيرة وصغيرة فيها ، مبالغة فى الحفاوة وحسن الاستعداد للقاء ضيف الشرف العظيم الذى سيشرف الحفلة بعد قليل من الدقائق .

وكان يعاونه فى « الخيمة » ، معاونه فى « العمل » صديقه الأستاذ المحقق رشدى ملحس ، كما كان يعاونهما الكثير من محبيهما وأصدقائهما من موظفى الشعبة السياسية وديوان جلالته وغيرهم وغيرهم. وكان قد أقيم سرادقان أحدهما أعد لتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم واستراحته ومن فى معيته من المدعوين ، والآخر أعد لموائد الطعام ، وقد نثرت فيه على الطريقة التى مرّ وصفها فى مأدبة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

وكان جلالته على عادته اليومية التى وصفناها فيما سلف من القول ، يقضى قيلولة النهار فى الروضة والصيد والقنص ، ويعود إلى مخيامه فى الساعة الحادية عشرة لتناول طعام العشاء ، وما كاد يحين ذلك الوقت ، حتى علا غبار فى أقصى الروضة ، فنهض الحاضرون خفافاً ، وقالوا هـذه سيارة جلالته مقبلة من مقيلها بين الرياض ، وخف الجميع إلى استقبال جلالته ، وما هى إلا دقيقـة أو بعض دقيقة ، حتى كانت سيارة جلالته قد شرفت إلى المخيام، فبادر الحاضرون إلى استقباله بما يليق بمقامه من الحفاوة والإكرام . وبما يكنونه لجلالته فى جوانحهم من عواطف الحب والإخلاص ، ثم شرف جلالته إلى السرادق الذى أعد لاستراحته وقضى فيـــه بضع دقائق بين مؤانسة الحاضرين وتحياتهم وحفاوتهم . وبعد ذلك شرف جلالته غرفة الطعام ـ أو خيمته ـ وفى معيتـــه الحاضرون فتناولوه هنيئاً مريئاً بين أحاديث طريفة هى سلاف الود ورحيق الإخلاص .

وبعد أن انتهى جلالته من تناول الطعام أديرت القهوة العربيـة ، وكانت صلاة المغرب قد أزف ميعادها فغادر جلالته المـكان مشيعاً بمثـل ما استقبل به من الحفاوة والإكرام ، قاصداً إلى المخيام الملكى الخاص لأداء فريضة المغرب وقضاء الوقت هناك إلى ما بعد العشاء حسب عادة جلالته من غير تأخير ولا تقديم .

وبقى المدعون بعـد ذلك فى ضيافة معالى الشيخ يوسف ياسين مدة من الوقت ومنهم من تعجّل وغادر المـكان ، ومنهم من ظلّ مدة أخرى وأدى صلاة المغرب هناك ، وبذلك انقضت المأدبة الحفيلة ، وانفض السّامر ، بعـد أن قام معالى الشيخ يوسف ياسين بتكريم الوفد الملكى أعظم تـكريم ، حيث شرفه بتناول الطعام فى مأدبة عامرة ترأسها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

وفى أثناء الوقت الذى انقضى بين حضورنا إلى الحفلة ، وبين انتظار تشريف المليك المظم ، التقيت بضيفنا الكريم ، فقال لى ماذا عندك ؟ فقلت عندى حولية نجد ! فقال : وماتلك قلت؟ قصيدة عصماء من عيون الشعر أوحى بها إلىّ هذا الوادى الناضر ، وهذا النجد الزاهر ، فقال: أو تنشدها حضرة صاحب الجلالة ؟ قلت: أودّ لو أن جلالته يسمعها ! قال: لوأن فى الوقت فسحة لنصحتك بإلقائها ، ولكن جلالته سيشرف وشيكا وصلاة المغرب قريبة الميقات ، ولهذا فسيتعجل جلالته الذهاب . وقد كان ما قال ، فقد شرف جلالته وانصرف عاجلاً .

نجد ـ وحولية نجد

قبل أن نذكر حولية نجد نريد أن نذكر المناسبة التي عملت فيها ، والمناسبة التي ألقيت فيها، بعد أن تقدم الكلام في ختام الموضوع السابق في مأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين عن هذه القصيدة وهذا هو الذي حدا بنا إلى إقرار الكلام عن هذه الحولية !

لقد سبق الكلام في ثنايا هذه الرحلة عن مبلغ الشعور الذي تولّد في نفوسنا من مظاهر نجد ومشاهدها الرائعة ، ولقد كان لكاتب هـذه السطور من الشعوَر الخاص ما أرق جفونه وسهّدها في التفكير في نجد ، وما هي نجد بعد أن شحذ نفسه وأوقد شوقها ماقرأه في كتب المتقدمين وأشعارهم من الروايات والأساطير عن نجد ومرابعها ومنازلها ورياضها ومن أنجبت من كرام الشعراء ، وما قال فيها كرام الشعراء ، سواء كان تحقيقاً أو تقليداً ، وسواء كان قديماً أو جديداً !! ومَنْ من الأدباء أو الشعراء من لايحفظ عن ظهر قلب عشرات القصائد ومئات الأبيات من الشعر ، فيها الكثير من ذكر نجد والحنين إلى نجد ووصف مغانيها ومرابعها ومفاتنها ومباهجها سواء كان في الحقيقة أو في الخيال ؟!! وسواء كان في القديم أوفي الحديث ، فأما في القديم فقـد انصرف الشعراء إلى ذلك عن طبيعة وعلم وخبرة ، وعن مكابدة وشوق وحنين ، وأما في الحديث قد اندفع الشعراء المعاصرون وغير المعاصرين إلى ذلك اندفاع طبيعـة وسجية لا أثر للتكلف فيـه وإن زعم ذلك المتعمنتون المتزمتون ، والذين يعرفون والذين لايعرفون ، فقد يوجد فريق من الأدباء المجددين يلومون على القديم ويزعمون التجديد فينقمون على الذين يذكرون المرابع والديار ، والمنازل والأوطار ، والأنجاد والأغوار ، لأنها في نظرهم من الكلام القديم الذي لا لزوم لترديده وإعادة ذكراه ،

(٩)

وقد يشترك فى هذا اللوم والتقريع من لم يعرف نجداً من قبل ، أما الذى يعرف ماهى نجد وما هى مرابعها ومنازلها وخيامها ومضاربها ، ورياضها وغدرانها ، وأغوارها وأنجادها ، فإنه يعود لائماً على اللائمين ، مقرعاً المقرعين ، لا أقل من أن يكون هذا شعور شاعر عربى مثل كاتب هذه السطور ، هو وليد نجد وحبيبها ، إن لم يكن بمسّ التراب فلمنازل الأحباب ، ومباءة الأنساب والأحساب، وجوهر الأدب اللباب ، وهو مدين فى ذلك إلى عاطفة الأدب وخصوبة الشاعرية المطبوعة ، وإلى صدق الولاء الذى يدين به لملك عربى عظيم ، وإلى حقوق الوطنيـة فى وطن واحد يستوى المنتسب إلى مشرقه ومغربه أو شماله وجنوبه ! وآية ذلك ساعة أن بشّرت فى مكة باختيارى للسفر إلى هذه الرحلة ، وكان معى إذ ذاك صديقان كريمان هما الأستاذ الـكبير السيد جميل داود معاون أول وزارة الخارجية(١) ، والأستاذ الصديق الـكريم الشيـخ عبد السلام غالى ، فسمعانى أهمس إلى نفسى بترجيع الغناء وترتيب النغم فقالا ماذا تقول ؟ فقلت أقول نجدا !! قالا وبماذا تغنى ، قلت بأقوال خطرت على الذهن من أقوال الشعراء فى نجد ، منها :

ولا تنس نجداً إنها منبت الهوى ... ومرعى المها من سانحات ورتع !

وقول الآخر :

وإنا لقوم ليس فينـا معابة ... سوى أن وادينا بحـكم الهوى نجد

نلين وإن كنا أشداء للمدى ... ونغضب فى شروى نقير فنشتد

بهذا الوصف الموجز تلقيت نبأ الرحلة إلى نجد ، ومن ذلك الوصف المقتضب يتبيّن مقدار ذلك الشعور الذى لازمنى وأخذ يزداد معى شيئاً فشيئاً بزيادة المشاهد والمرئيات حتى رأيت نجداً وشهدت أجزاءها منزلاً فمنزلاً ، ومربعاً فمربعاً ، والتقيت

---

(١) السيد جميل داود يشغل الآن منصب سكرتير أول المفوضية العربية السعودية بلندن .

برياضها التقاء سافراً وضاحاً لا حجاب فيـه ، ولا ستر دونه ، وظللت أعجب بكل ما أشاهد ، وأساعد نفسى على الفتنة والإمعان فى الافتتان بمناظر الروضات وغير الروضات من مظاهر الصحراء وفتنتها البارعة ، وكنت أشعر بهذا الشعور وأسترسل فيـه مع نفسى كأن قد وجدت من يصاحبنى فى خيالى ويلازمنى فيه كل الملازمة ، إلى أن أحسست بنفسى تسيل شعراً وأخذت أقيد مايجول فيها على جذاذات من الورق كان جمع شتاتها قصيدة عامرة الأبيات أصبحت « حولية نجد » فيما بعد !

وتمّ بنيان القصيدة التى أسميتها « حولية نجد » بعـد إنشاء هيكلها من مختلف المشاهد المبعثرة ، والمرئيات الظاهرة والمستترة ، وظهر الملان بعد الخفاء وأخذت فى تبييضها وترجيعها وقراءتها وتنغيمها والتبغيم بها !! حتى لاحظ ذلك واحد من الرفاق بعد واحد !!

وأخيراً لم أر بداً من إعلانها وإنشادها الرفاق ، فكانت موضع إعجاب كل من سمعها أو قرأها ، واقترح الإخوان والأصدقاء أن أنشدها حضرة صاحب الجلالة الملك فقلت إن القصيدة قلتها فى مناسبة خاصة مجاوبة لشعور نفسى نحو نجد ، وليس أحب إلىّ من أن يسمعها مولاى صاحب الجلالة أو يقرأها ، وكان قد سمعها منى أو اطلع عليها كثير من غير زملاء الرحلة منهم سعادة السيد حمزة غوث والدكتور محمد على الشواف وغيرهما من رجال المخيام الملـكى ، وقد أجمع رأى الجميع على إنشادها بين يدى صاحب الجلالة رغم ما أبديته من اعتراضات أهمها طول القصيدة وخشية الاملال من سماعها . وبعد انتهاء المناقشات فى هـذا الموضوع تقرر أن أتشرف بإلقائها غداً بين يدى حضرة صاحب الجلالة ، وكان غداً هو يوم السبت ١٧ صفر ، وهو اليوم التالى لمأدبة معالى الشيخ يوسف ياسين .

وفى صباح اليوم المذكور ، بعد أن تشرفنا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة فى

خيمته الملكية تقدم سعادة السيد صالح شطا وقال لجلالته إن « فؤاد » أنشأ قصيدة في نجد ، ونحب أن نستأذن من جلالتكم في التفضل بسماعها ، فتفضل جلالته بالإذن والترحيب ، فتقدمت بين يدى جلالته وأنشدتها ، ومن أكبر الشرف الذى نلته فى ذلك اليوم ، هو تفضل جلالته بالإصغاء إليها وإبداء إعجابه بها وسروره منها ، وما كان يبدو على ملامح وجهه الكريم المشرق الوضاء من علامات الارتياح والرضا وحسن القبول ، ثم ما قوبلت به فى المجلس وخارج الخيام من إقبال أهل نجد على سماعها والإعجاب بها والترنح لمعانيها لما اشتملت عليه من صفات نجد . ولا أطيل فى وصف ماأقول فهذه نجد، وهذهحولية نجد !!

حوليـــة نجد

هذه[1] لؤلؤة من لآلىء الشعر العربى الفصيح ، أشرقت فى روضة الخفس ، أوهى زهرة من يوانع زهره الباسم تفتحت فى تلك الروضة ، عن شاعرية خصبة فياحة لكأنما استمد الشاعر عبير شعره من عبير الروضة ، فجاءت قصيدته وإياها كالحسناء والمرآة ، وهى قصيدة جادت بهـا قريحة شاعرنا الكبير الأستاذ فؤاد شاكر عقب وصول الوفد الملكى إلى المخيام الملكى العامر فى تلك الروضة الفيحاء ، وقد تشرف بإلقائها بين يدى جلالة الملك المعظم فى صباح يوم السبت ١٦ صفر الجارى فحازت من لدن جلالته منتهى الاستحسان والعطف والرضاء السامى ، قال :

أجل هـذه نجد ، فسائل ربى نجد ! ... عن العرب الأمجاد من سالف العهد !
عن الدين والأخلاق والعزم والحجى ... عن الشعر والتاريخ والعز والمجد!
عن الخيل والاصباح والسيف والقنا ... عن الرأى والإقدام والحزم والجد!
عن الليـل والبيداء والظعن والنوى ... عن الدجن والصحراء والغيث والرعد!
عن الصافنات الجرد كالريح ضمراً ... عن النوق والأخلاف والعدو والوخد!
بلاد هى التاريخ أبيض ناصع ... زها مجدها كالحسن فى صفحة الخد
فقل للصبا إذا هب نفح عبيرها ... (ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد)

***

أجل هـــذه نجد ، وهذى رياضها ... وتلك أفاويح من البانـ والرند

---

(١) هذه المقدمة كتبتها جريدة صوت الحجاز حين نشرت القصيدة فى ذلك التاريخ ، وقد حرصنا على إثباتها كما هى لنفاستها ولأنها فى معانيها السامية قصيدة إلى جانب القصيدة .

أجل هذه نجد وهـــذا أقاحها ... تفتح عن نَوْرٍ وأشرق عن ندّ
فمن (روضة الخفس)[١] التى فاح عطرها ... إلى (روضة التنهات) فى الغور والوهد
تطاول فيهـا العشب حتى كأنه ... سنابل أكمام تفتحن عن ورد
زها نَوْرُهُ فى مطلع الفجر مشرقاً ... مع الشمس كالمحبوب، يبسم عن ود
بدا أصفراً فى أبيض، فـكأنه ... سماوة قرص الشمس قد لُفّ فى بُرد
وفاح شذاه بالأريج كأنه ... عبير سرى رياه من جَنَّةِ الخلد
سقاه ولىُّ الغيث صيِّبَ مائه ... كأن قد سقاه الوردَ فى صورة الورد
تروح إليـه الطير وهى أوانس ... تباكره بالشوق بدءاً على عود
فتشتار من أزهاره الشهد سائغاً ... كما[٢] اشتار من أزهاره النحل للشهد
تناوحه ريح الصبا فتهزّه ... فيختال إذ يهتز فى الروض من بُعد
تصافحه شمس الأصيـــل تحية ... كما صافحته الشمس من قبل فى رأد
فتنقـل من مرآه للعين صورة ... تروح جلاء النور، فى الأعين الرمد

***

وهـذا غديرٌ فاض فى أيمن الحمى ... ومن حوله ماء تدفق من عِدّ[٣]
تغضّن وجه المـاء منــه نسائم ... فتبدو كحبات تدحرجن من عِقد

(١) روضة الخفس، وروضة التنهات، وغيرهما، أسماء روضات معروفة من رياض نجد التى يتنزه فيها صاحب الجلالة فى كثير من أوقات العام.

(٢) المشتار هو الذى ينزع العسل عن بيوت النحل

قال النابغة الذبيانى :

كأن مشـمولة صرفا بريقتها ... من بعد رقدتها أو شهد مشتار

(٣) العد هو الماء الجارى قال أحمد شوقى بك رحمه الله :

وافتح أصول النيل واستردها ... شـلالها وعذبهـا وعـدها

وقال أبو العتاهية :

لابد من ورد لأهل الورد ... اما إلى ضحل واما عـد

وإن أهل نجد يستعملون هذه الـكلمة فى التعبير عن السوانى ومجارى الماء وهى عربية فصيحة

أطلّ « طويق »(١) فوقه وكأنه حضينة آرام ، تقوم على ولد
فلو لم يكن إلا (امرؤ القيس) شاعراً تنقل فى الغدران وهداً إلى وهد
لما كان أجدى من تذكّر شاعر طوى ذكره الأحقاب حافلة العد
فحسبك منه والغدير وما جرى وحسب العذارى مالقين على عمد(٢)
فإن تك للآرام والغيد ملعباً ثوت حقباً ، للهو آنا وللجد
فحسبك منها أنها اليوم غابة تعج بأشبال العرين وبالأسد
وأن قيض الرحمن سيد أهلها فولاه فيها إمرة الحل والعقد
فسار عليها سيرة عمرية غدت مضرب الأمثال فى العدل والرشد
هو الملك المعروف بالدين والتقى وبالحلم والإحسان والصون والذود
أجل انه عبد العزيز وحسبه من الله نعمى الدين والعيشة الرغد

* * *

ولما بدا (المخيام) للركب أشرقت خيام تفوق الأنجم الزهر فى العد
تلوح مع الأصباح كالطّير جثما حباها بياض الفجر حُضناً من المهد
وتبدو مع الإمساء زهراً مفتحاً يكاد يضىء الليل من بهجة الوقد
ويغدو عليها بالضياء مسامر وإن كابدت من هجره روعة الصد(٣)
يخال به كبر ، وليس به سوى مناعة مافى البعد ، من لوعة البعد
هو البدر فى ليل من التم مشرق أطل من العلياء مستوفز الحشد
فطارت نفوس الركب شوقاً وطالما قضت ليلها فى الوجد والشوق والسهد

---

(١) طويق هو جبل معروف فى نجد وهو سلسلة عظيمة تتصل بروضة الخفس وغيرها من الجهات حتى قيل أنه يصل إلى نجران .

(٢) لعل الأدباء جيعاً والشعراء على الأخص يعرفون قصص تنقل امرىء القيس وحياته بين الغدران فى مختلف أنحاء البادية .

(٣) المقصود به البدر وقد كان فى ليلة تمامه .

إلى ملك قد أيد الله عرشه فثبت من أركانه راسخ الطود
تناهى إلى (عبد العزيز) ولاؤها بأوسع ما ضمت نفوس من الود

* * *

أمولاى فلتهنأ بما أنت أهله من العز والرضوان والعيشة السعد
وحولك من أبنائك الغر سادة مصابيح هذا الملك فى الصون والذود
هم الجند إلا أنهم جند عزة فأنعم بهم فى طاعة الله من جند
(سعود) وحسبي من مناقب مجده مفاخره اللائى سمون على العد
وإن رضاء الله فيما أناله رضاك، وقد أضحى وليك فى العهد
وفيصل المحبوب والنائب الذى تلاقى به حب القلوب على الود
وسارت له فى الناس سيرة أصيد فضوعت الأفواه بالزهر والشهد

* * *

فيا سائلي عن نجد، أو عن رياضها فديتك، هذا بعض مافى ربا نجد

روضة الخفس فؤاد شاكر

وفود جده، والمدينة، والطائف

وكان المقرر من قبل سفرنا من مكة ؛ أن وفداً من جدة سيسافر إلى الرياض أيضا لمثل الغاية التى سافر اليها وفد مكة ، ومنذ وصولنا إلى الروضة أخذنا نترقب قيام وفد جدة ووصوله ، ثم مضى أسبوع كامل على اقامتنا فى الروضة دون أن يتحرك وفد جدة وفى ذات صباح كنا فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فتناول سماعة التلفون وأصدر أمره إلى رئيس ديوانه بالاستفهام ـ لاسلكيا ـ عن سبب تأخر الوفد المذكور عن القيام ، وفى اليوم التالى ونحن فى حضرة جلالته أخبرنا أن وفد جدة قد تحرك من مكة وأنه يُنتظر أن يصل بعد يومين

وفى تلك الأثناء علمنا أن أهل المدينة التمسوا تأليف وفد منهم والاذن له بالسفر إلى الرياض للتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأذن لهم فى ذلك ، وأن أهل الطائف التمسوا مثل ذلك الالتماس فتفضل جلالته أيضا بالاذن الكريم

وكان حضرة صاحب الجلالة الملك ؛ قد أخبرنا أنه يريد الذهاب إلى الخرج ونحن فى معية جلالته ، وكانت رغبتنا شديدة وأكيدة فى أن نحظى بزيارة « الخرج » بعد أن وصلنا إلى أرض نجد ، لما كنا نعرفه عن ذلك المكان التاريخى الجليل ، وما كنا نعلم عن أنبائه الحديثة وماقام به حضرة صاحب المعالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية من إصلاحات واسعة النطاق فى ذلك الوادى الخصيب ، تنفيذاً لرغبة حضرة صاحب الجلالة الملك ، ومقترحات جلالته العظيمة الاصلاحية السامية ،

وكان معالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية قد غادر مكة إلى الرياض قبل

سفرنا منها بأسبوعين ، فلما قدمنا إلى المخيام الملكى لم نجده ثمة وقال صاحب الجلالة أن معاليه فى الخرج يشرف على أعمال الرى والزراعة هناك ، وبعد بضعة أيام من إقامتنا فى الروضة قدم معاليه من الخرج وتفضل بزيارة الوفد الملكى فى مخيامه زيارة ود وإكرام وترحيب ، وقد أبدى من مكارم الأخلاق فى الحفاوة بنا ما كان دليلا ناصعاً على مافى نفسه من الأدب الرفيع والخلق الكريم .

وكانت الأنباء قد وصلت إلينا عن طريق ديوان جلالة الملك المعظم بأن وفد المدينة قد غادر المدينة فى طريقه إلى الرياض ، وأخذنا نترقب وصوله إلى المخيام بعد أن مضت الأيام المقررة على وجه التقريب لمدة الرحلة فى تلك المراحل ، وهو مؤلف من عشرة أشخاص يتقدمهم سعادة الشيخ عبد الله السديرى وكيل أمير المدينة[1] وحضرات ، الشيخ محمد الحريجى ، والشيخ دياب ناصر ، والشيخ عبد القادر غوث والسيد حسين طه ، والشيخ عثمان حافظ ، والسيد أمين مدنى ، والسيد أحمد صقر .

---

(١) أسرة السديرى من أكرم الأسر فى نجد وهى تتشرف بنسب مصاهرة صاحب الجلالة الملك المعظم . وجلالته كثير العطف عليها والمحبة لها ، ومن أبرز أعضائها الأمير عبد الله السديرى أمير المدينة بالوكالة ، وقد زار مصر فى معية صاحب الجلالة ، وأنعم عليه جلالة الفاروق بالوشاح الأكبر من نيشان النيل . والأمير تركى السديرى أمير أبها ، والأمير عبد العزيز السديرى أمير جيزان ، والأمير خالد السديرى أمير الحدود الشمالية والظهران ، والأمير عبد الرحمن السديرى قائمقام جدة . وفى يوم ١٨ الحجة عام ١٣٦٣ أقام أحمدبك لاري حفلةتكريم للأميرين عبد العزيز السديرى وخالد السديرى بفندق مصر بمناسبة قدومهما للحج بمكة ألقى فيها المؤلف الأبيات الآتية :

لست أدرى ؟ أباقة من ورود ... فاح فينا أريجها والعبير ؟!
أم شموس تنظمت فى بروج ... أم بروج تنظمتها بدور ؟!
لست أدرى ؟! أهم كما قلت حقاً ... أم رجال قد أنجبتهم سدير ؟!
سادة ليس فيهموا غير شبل ... كلهم كابر ، وكل أمير
حسبهم أنهم إذا ما انتماهم ... حسب باذخ ومجد وفير
أنهم من رجال آل سعود ... نسب للعلا ، وعز أثير

وبعـد أصيل يوم السبت المذكور ، تفرق الرفاق إلى ماهم بسبيله من التنزه أو تبادل الزيارات ، وخرجنا إلى ناحية الغدير فى تلك الأمسية كالعادة فإذا بنا نلمح عن بعد سيارات مقبلة متجهة نحو الروضة ، فساورنا شيء من الشك فى أنها قد تـكون سيارات وفد المدينـة ، خصوصاً وأننا كنا على انتظار مقدمها بين اليوم والآخر .

وكان هـذا الشك أو التظنن ، كافياً لأن يبعثنا على أن نلوى أزمّة المطى عن وجهتها ـ وليست هناك من المطايا غير السيارات الوثيرة ـ فأدرنا أعنانها عائدين إلى الروضة لنقتفى أثر الرفاق المدينيين ـ لا المدينين ! ـ ولنقف على جلية الخبر ، ولم يطل بنا المسير حتى وصلنا إلى الروضة ، وحتى رأينا الخيام الذى أعد لنزول أهل المدينـة قد بدأت فيه الحركة وتسرّب إليه نشاط الحياة فأرسلنا من يعود إلينا بجلية الخبر ، وعاد الرسول يقول إن وفد المدينة قد وصل ، وإنه قد قصد إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم للتشرف بالمثول بين يدى جلالته والسلام عليه ، وقد ألقى بين يدى جلالته السيد أحمد صقر معتمد المعارف ـ إذ ذاك ـ بالمدينة خطبة ، وألقى السيد على حافظ قصيدة وألقى السيد أمين مدنى قصيدة فى حضرة جلالته قوبلت جميعها بمنتهى الاستحسان والعطف وكريم القبول .

وطال انتظارنا لقدوم وفد جدة ، وطال ترقبنا لوصوله ، بعد أن علمنا بنبأ تحركه من جدة ومن مكة ، وأخذنا ننتحل لتأخيرهم المعاذير ، فمن قائل إنهم يسيرون بسير ضعفائهم عملا بالسنة لأن فيهم الأشيب ، والذى لا يستطيع تحمل عنـاء مواصلة الأسفار ، ومن قائل إن بين أعضاء الوفد ، الشيخ أحمد باناجة[1] وهو رجل مرفه غير متعود على مشاق الأسفار ووعثائها فلا بد وأن يكون هو سبب هـذا التأخير ، وأخيراً وبعد نفاذ الصبر من تأخرهم فى القيام والسفر ، وصلوا إلى الروضة فى ضحى

(١) توفى إلى رحمة الله فى عام ١٣٦٤ فى طريقه إلى المدينة المنورة .

يوم الثلاثاء ٢٠ صفر ، وهم صفوة أعيان جدة وكبرائها حضرات : الشيخ محمد نصيف الحاج يوسف زينل ، ومحمد بك عبد الله رضا زنيل[1] ، وأحمد افندى باناجة .

وتشرفوا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ساعة وصولهم ، ثم انضموا إلى نفس الترتيب الذى أعد من قبل للوفود جميعها فى مدة إقامتها فى الروضة فكان يتشرف بمقابلة جلالته فى صباح كل يوم ومسائه على ماهو مهيأ من الترتيب مع غيره من الوفود .

وفى المساء تشرف الوفد المذكور بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ، فلقى من لدن جلالته كل رعاية وإكرام ، وكل لطف وبشاشة .

وكان قد عرف أن لفيفاً من أهل الطائف استأذن من حضرة صاحب الجلالة الملك ، فى السماح بتأليف وفد منهم ، للسفر إلى نجد والتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، أسوة بالوفود الأخرى ، وأن جلالته تفضل فأذن لهم بذلك .

وفى مساء يوم الجمعة الذى تقرر السفر فى صباح يومه التالى إلى الخرج ، وصل وفد الطائف ، وهو مؤلف من حضرات ، الشيخ محمد سعيد أبو ناصف ، الشيخ ابراهيم كمال ، الشيخ أحمد قزاز ، الشيخ محمد صالح بن حريب ، وقد قصدوا حال وصولهم إلى المخيام الملكى العامر ، وتشرفوا بالمثول بين يدى جلالته والسلام عليه ، وتفضل حفظه الله على عادته فى مكارم الأخلاق وعلو النفس ، فشملهم بعطفه السامى وأكرم وفادتهم كغيرهم ممن سبق من الوفود .

---

(١) محمد بك رضا زنيل عميد شباب جدة ومن أبرز شخصياتها ، وهو يجمع بين الثقافة العالية والتعليم الرفيع والخلق المهذب ، وقد برز بتفوق فى عالم التجارة والاقتصاد ، مثلما برز فى عالم السياسة والاجتماع ، وقد أسند إليه منصب قنصل تشكوسلوفاكيا قبل الحرب الأخيرة ، كما أنه الآن رئيس الغرفة التجارية بجدة ، ذلك علاوة على أعماله التجارية الواسعة التى يدير دفتها بلباقة لاتجارى ونجاح عظيم، وتوفيق جليل.

الفَصلُ الرّابعُ

إلى الخـــرج

كان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ينتظر وصول الوفود جميعها للسفر بعد ذلك إلى الخرج وهم فى معية جلالته ، وكان المقرر أن تزور هذه الوفود الرياض التى هى العاصمة النجدية ، والخرج ، تلك المنطقة الزراعية الخصبة التى قامت بتجديد إنشائها همة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، لأنه ليس من المعقول أن تصل هذه الوفود إلى نجد وتقتصر رحلتها على روضة الخفس، دون أن تشاهد عاصمة البلاد وأهم مركز اقتصادى زراعى فيها . ولـكن حضرة صاحب الجلالة الملك أبت مكارم أخلاقه إلا أن يتفضل بنفسه فيسافر إلى تلك الأماكن ويصطحب معه ضيوفه من تلك الوفود التى قدمت إلى منازل بلاده ومرابعها ، وكان هذا التفضل من جلالته من أبرز آيات مكارم أخلاقه وأبرز مظاهر عطفه .

وزاد جلالته فى إبراز عطفه ، فـلم يَرَ أن يبت فى أمر الرحلة دون مشاورتهم وأخذ رأيهم ، مع أن الله سبحانه وتعالى قد وهبه من سداد الرأى ما لا حاجة معه إلى مشاورة ! ولـكن هكذا كان وهكذا أبت مكارم أخلاقه إلا أن يكون !

فقد تفضل جلالته قبل الرحلة بيومين ، وأعلن رغبته الـكريمة فى السفر إلى الخرج وأن نـكون فى معيته السامية ، وقال ها هى ذى الوفود قد تكاملت ، ولم يبق

إلا أن نشاوركم فى ميعاد الرحلة وترتيبها ومراحلها . فقلنا لجلالته إن الأمر لكم فيما ترون، وفيما ترتبون وتأمرون !

فقال جلالته : « ما لهذا دعوتكم ولا لهذا تحدثت إليكم ، والصحيح أننى أريد مشاورتكم فى أمر الرحلة فأنا لاأقطع برأى دونكم، وإن أصررتم على ترك الأمر لى، فأنا أخبركم برأيي لأتشاور معكم فى قبوله أو تعديله» ، ثم قال جلالته : « إن المسافة من الروضة إلى الخرج تبلغ ١٨٩ كيلومتراً ويمكن اجتيازها فى مسافة تتراوح بين الأربع ساعات والخمسة ، ولكننى أرى أن نقطع هذه المسافة على جملة مراحل ، فنغادر الروضة فى صباح يوم السبت بعد تناول طعام الفطور ، فإذا صرنا قبيل الظهر نزل فى مكان من الطريق ونستريح به قليلا ثم نتناول طعام الغداء ، وسيكون مطهياً ومعداً ، وبعد ذلك نواصل السفر إلى مكان آخر نستريح به ، ثم نمشى ساعة من الزمن، فنصل إلى روضة من الروضات نبيت بها إلى الصباح ، وبعد تناول طعام الفطور نغادر ذلك المكان إلى الخرج فنصل إليه بعد ساعة من الزمن . فما هو رأيكم فى هذا الترتيب » فاستحسنا من جلالته هذا الرأى السديد الصائب ، وقال «إن الغرض من تقطيع الرحلة على الصورة الآنفة الذكر ، أن لا أدعكم تشعرون بتعب فى الطريق ، وأن أدعكم تتمتعون بمشاهدة ما فيه من رياض يانعة ومناظر رائعة» . فدعونا لجلالته وشكرنا له هذا العطف الذى لايبارح سجاياه ، وكان أن اعتمد جلالته هذا الترتيب وأمر بتنفيذه .

وجاء الشيخ عبد الرحمن الطبيشى رئيس الخاصة الملكية إلى مخيامنا ، لتنفيذ التعليمات التى أمر بها حضرة صاحب الجلالة ، وكان فى نيتنا أن يكون السفر إلى الخرج ومنها إلى الرياض ، ثم نستأذن فى مواصلة السفر من هناك عائدين إلى مكة .

ولكن الترتيبات التى أمر بها جلالته قضت بأن نترك أمتعتنا الثقيلة والخيام فى مكانها وأن نصطحب ما نحتاج إليه من الملابس والأدوات الخاصة ، ذلك لأن الرأى

قد استقر على أن نعود ثانية إلى روضة الخفس ، وأن تكون عودتنا إلى مكة عن طريق هذه الروضة ، وأعدت السيارات للسفر وزودت بما تحتاج إليه من الوقود ، وقضينا ليلة السبت الآنفة الذكر فى إعداد معدات شؤوننا الخاصة للسفر من ملابس وأدوات ، أما الشؤون العامة الأخرى فلم نكلف بمثقال ذرة منها حيث كان كل شىء قد أجرى ترتيبه فى معية مولانا صاحب الجلالة .

وفى الصباح الباكر منذ صلاة الفجر أخذنا نتهيأ للسفر ، وبعد أن تناولنا طعام الافطار والقهوة واسترحنا قليلا ، جاءنا الدليل الذى أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة على أهبة السفر ، وأن علينا أن نستقل سياراتنا إلى مخيام جلالته حيث ينتظم الموكب هناك . وتوجهنا إلى المخيام الملكى تلبية للرغبة الكريمة.

ووقفنا ننتظر تشريف جلالته وبعد قليل أقبلت سيارة جلالته ومن خلفها سيارة حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل وسيارات أخرى للحاشية والأتباع وسار موكب جلالته وتبعته سيارات الوفود ومشينا مدة خمس دقائق فى رياض غناء ، هى الرياض المحيطة بروضة الخفس .

وبعد أن خرج الموكب من ذلك الوادى ، وقفت سيارة جلالة الملك ـ بأمر جلالته طبعاً ـ وأمر بأن ينظم الموكب على الصورة التى يريد جلالته أن يسير عليها فقد أمر بأن تكون سيارات الوفود تسير خلف سيارته وسيارة سمو الأمير فيصل مباشرة وأن تكون السيارات الأخرى فى آخر الموكب ، ولا شك أن جلالته قصد من ذلك تكريم ضيوفه ، كما قصد أن تكون تلك السيارات فى المؤخرة حماية لبقية السيارات من التعطيل والتوقف والانقطاع وكان ذلك أبلغ ما يمكن من حسن الترتيب فى إدارة موكب الرحلة .

واستأنف الموكب سفره محفوفا بعناية الله وجميل رعايته ، يخترق الأودية والرياض ، من وهد إلى نجد ، ومن نجد إلى وهد فى تلك الإصباحة الصاحية الجميلة .

عاطفة الملك الرحيم

ومنذ ابتدأت هـذه الرحلة فيما بين روضة الخفس والخرج ، شهدت ما لم تشهده عيناى ، وإن كانت قد سمعته أذناى ، والرؤية ليست كالعيان على كل حال ! شهدت لوناً من عاطفة هـذا الملك الرحيم كنت من قبل شـديد الرغبة فى التمتع برؤيتها عن كثب ، ولـكن الظروف ما كانت لتسمح بذلك ، لأنه لم يتح لى أن أتشرف بمرافقة جلالته عن كثب هـذه المرافقة الدانية ، فالذين يعرفون حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، يصفونه بالـكرم إلى جانب ماعرف به من الشجاعة ، والـكرم والشجاعة صفتان متلازمتان متفقتان فى المبـــدأ والغرض ، وليس تاريخ جـلالته الحافل ، ولا شخصية جلالته الرفيعة ، بحاجة إلى التدليل على ما طبعت عليـه من الـكرم والشجاعة لأن تاريخ حياته يثبت أن أسباب نجاحه كلها ترجع بعد فضل الله وتوفيقه إلى هاتين الميزتين اللتين امتاز بهما تاريخه وشخصيته ، فهى ليست بحاجة إلى تدليل ولا تأكيد ! ولـكن الشىء الذى نريد أن نتكلم عنه فى هـذه المناسبة والذى شهدناه عن رؤية قريبة ، هو ذلك العطف الرحيم الذى اشتملت عليه نفسه الرفيعة العالية ، والذى لا صنعة فيه ولا تكلف ، ولا عنت فيه ولا رياء .

فلنترك الحديث عن الـكرم جانباً ، ولننظر إلى عاطفة الرحمة فى قلب ذلك الملك الرحيم ، وإلى أى حد بلغت من طبيعته العطف والمروءة والنجدة وحب الخير والمواساة .

فما كاد موكب جلالته يواصل السير فى صميم الصحراء وجوفها الطويل ، حتى كان أول مشهد رأيناه ، هو منظر سيارة كبيرة من سيارات الحمل ، تقف إلى جانب من الطريق بحالة تدل على ما بها من عطل تأدى بها إلى ذلك الوقوف ، وإلى جانبها

سائقها البائس الذى طوّحت به المقادير إلى ذلك الموقف التعس !! وكثير من الناس يمر بمثل هذا المشهد دون أن يعطف عليه بالتفاتة ولو من النظر الشزر ، والكثير من الناس يمرّ بمثل هـذا المشهد فيشيح بوجهه عنه أنفة وكبرياء إن لم يرمه بشيء من بُطل الحديث وسخرية القول فى السر أو العلن ، أو يغض دونه النظر كأنما :

تقـــذى بمرآه العيو ن فلا تراه سوى التماح

ولـكن ماذا فعل ذلك الملك الـكبير ، والعاهل العظيم ؟! لقـد أوقف حضرة صاحب الجلالة سيارته ، فوقفت لأجلها عشرات السيارات الملحقة بمعيتها ، والركب ومن فى الركب ؛ وصاح على السائق وناداه ، ماذا بك ؟! فقال له ، لقد نفد ما معى من الوقود والماء ، فأمر جلالته من فى معيته من الخدم بإعطائه ما يكفيه من الماء والوقود وأمر بإعطائه بعض المال ليصلح به شأنه بعد أن سأله عن أحواله وعن الأسباب التى أدت به إلى ذلك الوقوف ! ومن أين أتى وإلى أين ذاهب !!!

وكأنما تسامعت البادية وتناقلت فى « لاسلكيها » الخفىّ ، أن جلالته سيمر من ديارها فى الوقت المعيّن ، فاحتشد سكانها على أقرب طريق يعرفون أن الموكب سيجتازها ، فأما الموسرون منهم ، فلا هم لهم إلا أن يتشرفوا باجتلاء طلعـة المليك المحبوب الذى هو عندهم الإمام ، والقائد ، والزعيم . وأما الفقراء منهم ، فقـد عرفوا عادة جلالته لا فى الـكرم فحسب ، ولـكن فى العطف والمرحمة ورقة القلب والحدب على الرعية ، فيتعرضون لنفحات بره وعطفه وهو منهم دانى القطوف ، وشيك الجنى، ويصادف أن يرى جلالته فى أثناء الطريق فرداً واحداً أو جماعة بحالها أو أسرة من الأسر ، فلا يمكن أن يمر موكبه بواحد من هؤلاء ، دون أن يقف سيارته ، وتقف بوقوفها سيارات الموكب كله ، حتى ينفحهم جلالته ما يعرف أنه يكفهم مؤونة الحاجة ويسد عوزهم ويردهم إلى ديارهم مسرورين جذلين .

وظل موكب جلالته يتنقل فى البادية طيلة ذلك اليوم ، وكلما اجتاز قليلاً من الأميال التقى بطائفــة من سكان البادية الذين خرجوا لاعتراض نداه واصطياد بره وعطفه ، وهم أفراد وجماعات حسبما يتفق أن يكونوا ، فيقف جلالته وينفحهم بما يستحقون على قدر عددهم ، وينثر عليهم الدراهم نثراً ، وهى عبارة عن كميات من الريالات التى ضرب عليها اسم جلالته ، وقضى الله أن تـكون إلى جانب ذلك قاضية الحاجات ! ومجلبة الأنس والمسرات ، ودافعة الموز والفاقات ، ولا أظن أن سرور جلالته بهذا العطاء السخىّ ، يقلّ عن السرور الذى يغمر تلك النفوس المتعطشة إلى المرحمة ، والبر والإحسان ، ولست أبالغ أن سجية نفس جلالته التى طبعت على الرحمة الخالصة لاتعادلها غبطة مايدخل على تلك النفوس من الفرح بهذا العطاء ، فتلك سجية مطبوعة فى نفس صاحبها منذ الفطرة ، وهــذه حادث يحدثه السرور الموقت فى نفس الضعفاء والمحتاجين .

وليس هــذا الذى شهدناه هو الحادث الفذ ، ولـكن تلك هى خطة جلالتــه وسجية نفسه فى كل حركة من حركات تنقلاته وسفره ، بل حتى فى إقامته ، فجلالته كلما سافر من مكان إلى مكان ، أو انتقــل من بادية إلى أخرى يؤدى تلك الصدقات وينفق ذلك الإحسان قربى إلى الله وزلفى ، ومن الطريف أن نذكر بهذه المناسبة أن رحلة جلالته فى كل عام من الرياض إلى مكة تسير على هــذه الوتيرة منذ يتحرك موكب جلالته من أول محطة إلى أن يشرف المـكان الذى ينزل فيه فى قصره العامر بمكة ، وهو ينفق فى هذه الرحلة عشرات الألوف من الريالات ، وربمــا ارتفع الرقم الذى يبلغه هــذا الإنفاق إلى مئآت الألوف ، ولقــد شهدت فى موسم الحج الماضى بطريق المصادفة حادثاً طريفاً فى هــذا الباب ! حين قدوم جلالته لأداء الحج من الرياض ، فقــد خرجنا فى لفيف من الـكبراء والأعيان لاستقبال جلالته ، ــ فى طريق الطايف ــ ، فعلمنا أن موكبه غادر السيل وأنه عما قليل سيشرف إلى

الزيمة ، وكان الطريق من مكة إلى المحل الذى وصلنا إليــه ، مكتظاً بسكان البادية الذين خفوا سراعاً إلى استقبال جلالته وانتظار مرور موكبه ، كأنما هتف بهم هاتف أو خف إليهم نفير صائح ، نفر بهم من أقاصى الوديان وأعماق الصحراء ، إلى انتظار استقبال جلالته ، والانتفاع بأريحيته الكريمة ، وعطفه الرحيم .

وشرف موكب جلالته « الزيمة » ، وكان أهلها وسكان البادية التى حولها قد انتظموا صفوفاً متراصة وغير متراصة على مراحل مختلفة من الطريق ، وكان جلالته على سجيته الآنفة قد نفحهم بما نثره عليهم من الريالات ، فلما شرف موكبه تفضل بمغادرة السيارة فى المكان الذى أعدّ لاستراحته ، وبعد أن تشرف المستقبلون بالسلام التفت جلالته إلى أمير الزيمة وقال له : لقد نفد مامعنا من الدراهم ، فهل عندك شىء منها على سبيل العارية ؟! ـ السلفة ـ فقال أجل إننى تحت أمر مولاى وكل ما أملك ! فقال إن كان عندك أى مبلغ من الريالات فهات ما عندك لأننى فى حاجة إليها ! ! على أن أردها إليك بعد وصولنا إلى مكة ، وقام الرجل ذاهلاً لايلوى على شىء ، وقصد إلى داره ثم عاد منها بحمل كبير من النقود سلّمه إلى جلالته ، فأمر أحد خدمه أن يستلمها ويضعها فى سيارة ركوبه ! ، وتساءلنا عن السبب الذى يحمل جلالته على الاقتراض وهو على قيد أميال من مكة !! فما أسرع ماعلمنا أن ذلك يرجع إلى عامل واحد ، فقد تغلبت طبيعة العطف فى نفس جلالته ، فأنفق على الفقراء من أعطياته من غير حساب ونفد ما كان معه من المبالغ المدخرة لهذا الغرض[١] ، وكان بينه وبين مكة مرحلة كبيرة تزيد عن الأربعين ميلا ، ولا يمكن لجلالته أن يخلف عادته فيمر بسكان البادية فى هذه المساحة الكبيرة وأهلها مصطفون على قدم

---

(١) من عادات جلالته فى كل رحلاته وتنقلاته سواء فى أسفاره أو فى نزهاته اليومية الخلوية أن يصطحب إلى جانبه فى السيارة كيس نقود ملىء بالريالات ينفح بها كل من يمر بهم من الفقراء وسكان البادية ، وذلك أبلغ مثل على عطفه وحنوه .

الانتظار من غير أن يشملهم ببره وعطفه وإحسانه ، كما شمل غيرهم فى مساحة تبلغ الألف ميل ، فلذلك عمد جلالته إلى هذا « القرض » الحسن لينفقه فى بقية الرحلة ، ولا شك أن جلالته ردّ ما اقترض أضعافاً مضاعفة ! وأن الله جزاه عن إحسانه أضعافاً مضاعفة والله لا يضيع أجر من أحسن عملا !!

هذه خلاصة موجزة عن لون من ألوان العطف الذى عمرت به نفس جلالته نحو رعيته فى المناسبات التى ذكرناها ، ولكن هناك ألوان أخرى ، تبدّت فى مناسبات أخرى ، فقد حدثت ظروف عامة فى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، وظروف خاصة فى غير أيام الحرب الآنفة الذكر ، أظهرت عطف جلالته بمظهر رائع أطلق الألسنة الخافتة وحرك القلوب الصامتة ، فابتهلت إلى الله بالدعاء له بطول العمر . فقد حدثت أزمات مادية لبعض الطوائف من أهالى الحجاز ولبعض الهيئات ، وما كان نبأها يصل إلى مسامع جلالته حتى بادرت سجية العطف فى نفسه العامرة بالإيمان إلى نجدة أولئك المعوزين فأمر بتخصيص مبالغ مالية كبيرة لتوزع على أولئك المأزومين وزاد جلالته فى بره وعطفه فأمر بأن توزع مئآت الألوف من الريالات أيضاً على سكان البادية فى كل مكان ، ثم تفضل فأمر بأن يوزع كل يوم سبعون كيساً من الدقيق ، تطبخ خبزاً وتفرّق على الفقراء فى مكة ، وأن توزع كميات أخرى متناسبة المقدار يومياً على الفقراء فى جميع مدن المملكة ، بلغ مجموعها نحو مائة وعشرين ألف قرص يومياً وهذه المبرة العظيمة الجارية المنظمة يعجز اللسان عن وصف أثرها ومداها فى مجرى حياة الذين يتناولونها فى كل يوم من الأيام ! ذلك فى المدن ، أما البوادى فقد أمر جلالته فوزعت عليهم الحبوب والأقمشة والكساوى فى أكثر جهات المملكة ، فى دورات منتظمة كلما مست الحاجة إلى ذلك !!

وحدث بعد ذلك السيل التاريخى العظيم الذى غمر ـ مكة ـ يوم الأربعاء

٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ ، وترتب عليه إصابة بعض الناس بأضرار مادية ، وما كاد يصل نبأ ذلك إلى مسامع جلالته حتى أصدر أمره الكريم فوراً إلى وزارة المالية بتخصيص مبلغ كبير من المال حدده جلالته بالأرقام ، لتعمير منازل الفقراء التى نالها شيء من ضرر ذلك السيل ! وأمر بإنفاق مبالغ أخرى للذين فقدوا شيئاً من أمتعتهم بذلك السبب نفسه ، وتسامع الناس بعد ذلك بمبرة جلالته هذه ، فخف الكثيرون منهم شاكين ما نالهم من أضرار مادية ؛ فهذا فقد سيارته ، وذاك فقد متاعه ؛ وكان جلالته يعنى بكل شكوى من هذا القبيل ، ويأمر بتعويض صاحبها بما يخلف عليه ماضاع !

هذا كله من الناحية العامة ، أما من الناحية الخاصة ، فإن جلالته ما يكاد يصل إلى مسامعه الكريمة نبأ أى حادث يحدث لأية جهة من الجهات ، أو أية كارثة تحل بجماعة ما حتى يبادر جلالته إلى إنقاذها وتعويضها ، وقد ألف الناس ذلك من عطفه ودرجوا عليه ، فهذا احترق منزله فى حادثة حريق ، وذاك هدمت داره فى حادثة انهيار وغير هذا أو ذاك يصاب بكارثة شخصية فى ماله أو نفسه ، فلا يجد له ملجأ بعد الله غير حضرة صاحب الجلالة الملك ، فيكتب إليه رسالة برقية أو بريدية مستنجداً فلا يكون جوابها إلا العطف والمواساة وإغداق العطاء وتعويض ما أتلف .

والحوادث التفصيلية فى هذا الصدد معروفة لاخفاء بها ، وتفصيلها يحتاج إلى كتاب لايقل عن حجم هذا الكتاب إن لم يزد عليه !!

وبعد الكلام عن عطف جلالته ، تقتضينا المناسبة أن نتكلم عن سجية أخرى فى نفسه المؤمنة ، هى سجية الكرم ، وقد قلنا فى مستهل هذا الموضوع إن الكرم والشجاعة صنوان ، وأن الخلّتين صفتان متلازمتان أو هما صفة واحدة لحالة واحدة ، فكرم جلالته يتجلّى فى أعطياته السخية التى هى عطاء من لايخشى الفقر! ولا يعرف

الفقر ، وقد مرّت بجلالته ظروف مختلفــة من الرفاه والنعمة ، وعكسهما من شظف العيش فى حياته العصامية الحفيلة ، وتـكوين ملـكه العتيد وحروبه المتلاحقة وغزواته الواسعة النطاق ، فـكان حرياً بمن حلب شطرى الدهر ، وعرف طعميه من حلو ومر ، أن يكون مقتصداً ـ على الأقل ـ إن لم يكن بخيلاً ، وإن لم يكن شحيحاً ؛ ولـكن تلك القاعدة التى هى مضطردة بالنسبة لجميع الذين تعرضوا لمثل هذه الظروف، قد شذّت بالنسبة لجلالته ، فهو منذ نعومة أظفاره لايعرف البخل ، وسجيته الواحدة التى لم تتغير أنه « كريم » وكريم بكل مافى مدلول هذا اللفظ من معنى ، سواء كان أميراً أو غازياً أو سلطاناً أو إماماً أو ملـكاً فلم تندّ نفسه عن طبيعتها ، ولم تتغير عن فطرتها ، فهو فى جميع حالاته كريم كل الـكرم ، وبكل مايتسع له هـذا اللفظ من معنى !! ولجلالته فى هذا الباب حوادث متعددة مروية لاتكاد تصدّق عن إنسان ما، يعيش فى هذا العصر المادىّ المتحجّر ، ولولا ما أعرفه شخصياً كل المعرفة من عزوف جلالته عن الرغبة فى نشر تلك الحوادث ، بل وبغضه الشديد وكراهيته لإذاعة ذلك وإصدار أوامره المتـكررة فى هذا المنع لذكرت من قصصها وحوادثها الشىء المعجب الغريب ، بل الشىء المطرب المرقص ، ولـكننى أعرف مالا أقدر أن أقوله وحسبى أن أردد قول القائل :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والمـاء فوق ظهورها محمول

بين الروضة والخرج

غادرنا روضة الخفس صباح يوم السبت ٢٤ صفر في معية صاحب الجلالة ، وكان ترتيب السفر محكماً بفضل ماأصدره جلالته من أوامر وترتيبات ، ومشينا مدة ساعتين ونصف ، سيراً طيباً متواصلاً بين السرعة والهوينا حسبما يعترض الموكب من وفود أولئك المستقبلين أو السائلين !! وحسبما تقتضيه طبيعـة الأرض من تلك الروضات المزهرة اليانعـة المختلفة الألوان والباسقة الأركان وما تستوجبه من الأناة والتمهّل والتنزه وتسريح النظر وشرود الخيال ، إلى أن وصلنا إلى المكان الذى حدده جلالته لنزولنا ، وكان قد أوفد إليـه من ينتظرنا بالطعام ، فلما وصلنا إلى ذلك المكان أمر جلالته بالوقوف ونزل من سيارته ونزلنا جميعاً ، وكان المكان قفراً من كل شيء إلا من شمسه الضاحية المشرقة ، وظهيرته المحرقة اللاذعة ، فأمر جلالته بأن تصطف السيارات الكبيرة صفاً جانبياً واحداً يتألف منها حائط كبير له ظل فى الأرض تبلغ مساحة عرضه مترين فى طول ذلك الموكب ، فتألف ظل وارف ، نزل جلالتـه يتفيأه ومن فى معيته ، وفى لحظة سريعـة من الزمن أديرت أكواب القهوة العربية الحارة الطازجة كأنما هى قد صنعت بنت وقتها ، بينا هى ليس لها وقت يتبيناها !! فكيف صنعت ؟! لقـد كان ترتيبها أعد فيما أعد من قبـل ، فهى محمولة ومصنوعة فى آن ، لأنها من الأشياء الملحوظة بالعناية فى كل ترتيب !

ولم ننته من تناول القهوة حتى بسطت موائد الطعام ، ثم فرقت صحافه فوق تلك الموائد الواسعة ، وكانت هى الأخرى تشتعل اتقاداً كأنها أنزلت فوراً من قدورها ، فكيف أعدت هذه الموائد ، وكيف طهى هذا الطعام ، ولما ينقض على نزولنا فى هذا المكان غير دقائق معدودات !؟ أكان ذلك هو المنّ الذى أنزل من السماء على قوم

موسى ؟! أم تلك هى مائدته التى سأل الله نزولها فنزلت !؟! لاشىء من ذلك فقد انقضى عصر النبوات ومعجزاتها ، وإنما هى ترتيبات حكيمة قدرت نتائجها على أسبابها ويرجع فضلها إلى تعليمات صاحب الجلالة وأوامره وحسن بصره بتصريف الأمور وترتيبها فى الحل والترحال !

وتناولنا الطعام شهيًّا فى تلك الصحراء وفى ذلك الجو الساحر ، وأديرت بعده أوانى اللبن ، ثم نهضنا إلى غسيل أيدينا ، وإذا بحضرة صاحب الجلالة ينادى « راعى الطيب » وهو الشخص المختص بتقديم الطيب إليه فتناول منه الطيب وتطيّب به ، وهو عبارة عن زجاجة متوسطة الحجم فيها ورد زكى من أرق أنواع العطور الزكية ، ثم قال جلالته من أراد أن يتطيّب فليتقدم ! وتقدمنا للتطيّب ، فقال جلالته من أراد أن يتطيّب فليصافحنى ! فقد كانت يداه الكريمتان مضمختان بالطيب[1] ، فتقدم الرفاق إلى مصافحة جلالته ، وكان كلما انتهى من مصافحة أحدهم غمر يده فى الطيب مرة أخرى حتى يصافح بها غيره ، لأن جلالته لم يقصد من المصافحة إلا أن يُطيّب المصافحين !! وأقبل الرفاق جميعاً على مصافحة جلالته والابتسامة لاتفارق ثغره المشرق ووجهه المتهلل ، وهم جميعاً فى نشوة الغبطة والسرور من هذا العطف الملكى الكريم الذى يدل على أرق صفات الخلق الكريم .

وتقدمت من جلالته مصافحاً ، ثم قلت إن سلاماً واحداً لا يكفينى ! ! ولا بد من تكرير السلام على جلالتكم ! وكان المقصود من هذه الدعابة الإشارة إلى الطيب ، وإلى الاستزادة منه ، فقال جلالته سلّم كما تشاء وصافح كما تريد ، فكررت مصافحة جلالته وتفضل فضمّخ يدى وغمرها بما فى يديه من طيب أريج ! وظللت

---

(١) من عادات جلالته كثرة الطيب وعلى الأخص بعد الطعام ، ومن أكرم عاداته أنه يصافح ضيوفه وكبار رجاله بما فى يده من طيب . فتطيب نفوسهم قبل جسومهم بعبيره الزكى الفياح .

واقفاً خلف جلالته أراقب ذلك المنظر الشائق الخلاّب عن كثب حتى انتهى جميع الحاضرين من التطييب بتلك المصافحة والسلام . وبعد ذلك أديرت القهوة العربية مرة بعد مرة ، وجلسنا فى استراحة قصيرة ، ثم نهض جلالته وأمر باستئناف السفر ، وركب سيارته الملكية وظل فيها وانتظم الموكب جملة واحدة كالعادة فى كل مرحلة من مراحل السفر .

وهناك ملاحظة نسيت أن أسجلها فى محلها من سياق هذا الموضوع ، فإننا ساعة وصولنا إلى هـذا الوادى ، وقبل أن يتم نزولنا من السيارات ، تفضل جلالته وسأل رجال حاشيته أن يحصوا جميع السيارات التى فى معيته وعما إذا كانت قد وصلت جميعها أم تخلّف منها شىء لأى سبب من الأسباب ، فتبيّن من الإحصاء أن واحدة من السيارات لم تصل ، فأمر جلالته فطيّرت سيارة إلى عرض الطريق لتبحث عنها ، ولم تمض عشرة أو عشرون من الدقائق حتى كانت السيارة المسعفة والسيارة المتخلفة قد وصلتا إلى المكان ، وبعد ذلك أمر جلالته بالقهوة والطعام .

وسار الموكب مدة ساعتين من الزمن فى سير هيّن تارة ومتواصل طوراً بين الوخد والخبب ، فقد كان جلالته يجدّ المسير فإذا وصلنا إلى روضة من الرياض المزهرة اليانعة وقف للتنزه واستنشاق الهواء واستعراض مناظر تلك الروضات[1] ، ثم يواصل الموكب سفره ، وهكذا دواليك .

وبعد العصر بقليل ، كنا نجتاز روضة يانعة من أنضر الرياض ذات زهر أصفر اللون عبق الرائحة ، ولمح جلالته إلى جانب الوادى شجرة كبيرة فأمر بالوقوف وقصد

---

(١) لاحظ بعض الرفاق أنه يوجد ذباب يتنقل على زهور الأغصان فى بعض الرياض، فسألنى عن ذلك مندهشا من أن يسمع طنين الذباب فى كبد الصحراء ، فقلت إن عنترة العبسى لاحظ ذلك وسجله فى بيتين من الشعر فى سياق معلقته واصفا إحدى الروضات حيث قال :

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعـــه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

جلالته إلى تلك الشجرة وأمر بأن تفرش الأبسطة تحت ظلها ففرشت ، وأدى جلالته صلاة العصر وفى معيته جميع المسافرين ، وبعـــد الانتهاء من الصلاة أمر بمد موائد الطعام ، وكان الطعام فى هذه المرة يختلف عن طعام الغداء ، فطعام الظهر كان أرزاً مطهياً باللحم ومأكولات أخرى ، ولـكن طعام العصر ، كان مؤلفاً من خبز نجدى مدحو كالرقاق يكاد يدفع نفسه إلى الأكل من لذة الطعم ، وإلى جانبه العسل والزبد والبسكويت وغير ذلك ، فتناولناه بشهية لا توجد إلا فى كبد الصحراء ، وفى ثنايا الرحلات والأسفار ، ثم عدنا إلى مجالسنا تحت ظل تلك الشجرة الـكبيرة الوارفة ، لتناول القهوة ، وكان جلالته ينثر على الحاضرين مداعباته ونـكاته مدة نصف ساعة قضيناها فى ذلك المـكان !

ونهض جلالته للسفر وأمر بالمسير إلى المرحلة الأخرى ، وكانت على مسافة ساعة واحدة بلغناها قبيل المغرب بقليل فى غير مشقة ولا عناء ، وكانت هذه المحطة فى مكان يسمى « روضة بلال » وكانت الترتيبات قد سبقت إليها ، فما بلغناها حتى رأينا الخيام منصوبة ، والمضارب ممدودة ، والنيران مشتعلة للطهى ، والأنوار متقدة للإضاءة ، وحركة الحياة تدبّ فى ذلك المخيام طولاً وعرضاً ، وقد أعد لـكل فريق مكان من تلك المضارب فى منازل متقاربة فى طول الوادى وعرضه للمبيت فيه . وما كدنا نصل حتى كانت المغرب وشيكة الأذان فتوضأنا ، ثم نادى المؤذن إلى الصلاة بأذان جهورى هزّ صمت الصحراء وأطربها ، فهرعنا إلى مخيام جلالته لنؤدى صلاة المغرب فى معيته ، وبعد الصلاة عاد كل فريق إلى مخيامه للاستراحة بعض الوقت !

وكنت منـذ صباح ذلك اليوم ، أحس بدبيب من الفتور يتطرق إلى جسمى لا أدرى أيرجع سببه إلى تعرضى لحرارة الشمس فى النهار أم لبرودة الجو فى الليـل ولـكن الفتور أخذ يزيد شدة بمرور الوقت ، وشعرت أنه من أثر التهاب أصاب الحلق ! وما كاد بعض الرفاق يعلم ذلك منى حتى صحبنى رفيق كريم منهم هو الأستاذ عبد الرؤوف الصبان إلى خيمة الطبيب ، وهناك سألنا عن الطبيب فقيل لنا إنه يحضر

الآن ، وانصرف رفيقى يتجول فى المخيام وبقيت برهة فى الانتظار ، فقدم معالى الشيخ يوسف ياسين ، فقال لى ماذا أتى بك إلى هنا ؟ فقلت وما الذى أتى بك ؟ قال إنى مريض وأشكو من التهاب اللوزتين فى الحلق منذ أيام ، فقلت له وإنى كذلك مريض بهذا المرض ولكن منذ اليوم فقط ، ولأجل هذا قدمت إلى مكان الطبيب وما كنت أعلم بمرضك من قبل ، فكأننى وإياك كما قال أبو نواس :

إنى حممت ولم أشعر بحماك حتى تحدث عوادى بشكواك

وكان الحديث عن أبى نواس فاتحة حديث طويل عن الأدب والشعر « وحولية نجد » وغير ذلك من أحاديث النفس ، وانتحينا جانباً من المخيام ، وأخذنا فى غسق ذلك الظلام نتساقى من عذب تلك الأحاديث رحيقاً شهياً مدة نصف ساعة وقدم الطبيب وأسعفنا بما عنده من العلاج ، وكان الطبيب هو الدكتور « رشاد فرعون » الذى لم تكن لى به معرفة إلا منذ هذه الساعة .

وعدت إلى المخيام ، وجلست قليلاً مع الرفاق إلى مابعد الساعة الواحدة بقليل حيث جاء النفير الذى يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء فى معية صاحب الجلالة ، أما كاتب هذه السطور فقد اشتدّ بى الانحراف فلم أستطع تناول العشاء غير أننى شهدته ثم عدت أدراجى إلى خيمتى للاستراحة والنوم ، بعد أن أحسست بدبيب المرض يتدافع إلى جسمى ويتسابق إلى شرايينه وخلاياه .

وقضيت تلك الليلة فى نوم متقطع من بوادر الحمى ، وكانت الليلة باردة كأخواتها لاتمتاز إلا بعاصفة شديدة هبت وظلت على وتيرة واحدة طيلة الليل ، وما أكثر العواصف فى الصحراء سواء بالنهار أو الليل ، وما أكثر هبوب الصبا فى نجد ، تلك الصبا الباردة المنعشة التى خلّدت الشعراء بما قالوه فيها من بديع القول ، ورشيق الغزل!

وفى الصباح الباكر بعد الصلاة وبعد تناول طعام الفطور استأنف الموكب سفره إلى الخرج التى هى بيت القصيد فى هذه الرحلة ! !

حول الخرج

كان الحديث عن الخرج هو الشغل الشاغل لأذهان طبقة كبيرة من الرجال فى مكة ، منذ لفت النظر إليها معالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، عند البدء فى هـذا المشروع الزراعى الكبير المترامى الأطراف ، وكان أهم ما لفت الأنظار إليه فى أول تأسيسه سفر وزير المالية إلى الخرج وعودته منها ورجوعه إليها ، وما أشيع من المعلومات الكثيرة الواسعة عن ذلك المشروع ، سواء منها ما جاء على لسان معاليه أو ما أسند إليه من الرواية ، وما تحدّث به المتصلون به من الآراء والبيانات التى كانت تفضى فى مجموعها إلى شىء واحد هو الإشادة بعظمة هذا المشروع وبما وصلت إليه مراحله من التقدم السريع المبشر بالخير والنجاح . وظل أمر الخرج يتفاقم فى أذهان الناس ومسامعهم بمرور الزمن ، وبتقدم المشروع مراحل جديدة فى سبيل النجاح ، وبزيادة المعلومات التى أصبحت تذاع ويتناقلها الناس خصوصاً بعد أن كثر سفر معالى وزير المالية إلى تلك المنطقة وعودته منها واصطحابه بعض الموظفين وإدلائه بالأحاديث المختلفة الشائقة عن عوامل تقدمها ونجاحها . وكان أول خبر رسمىّ يذاع عن منطقة الخرج ومشروعها هو تقرير فنى مطول كتبته البعثة العراقية الزراعية التى استقدمتها حكومة جلالة الملك من العراق للكشف على تلك الأرض واستخدام وسائل الفن الحديث فى إنتاجها . وقد سجلناه فى مكانه من هذا الكتاب لفائدة الرجوع إليه لمن يشاء .

وانقضت الأيام تباعا والحديث عن الخرج ، يدور على الألسنة وتتناقله أفواه الرواة كلما جـدّت مناسبة أو سنحت فرصة ! أو كلما وصل قادم من تلك المنطقة قد يستطيب إصغاء المستمعين له ويبصر تشوقهم إلى الاستزادة من سماع أحاديثه فيفيض

فى سرد المعلومات التى كثيراً ما تنتهى به إلى تدعيم أقواله بالأرقام عما وصل إليه المحصول ثمة من النجاح والإنتاج ، على أننا لم نكن نظن شيئاً من المبالغة فى أقوال الرواة نظراً لما هو معروف عن خصوبة تلك المنطقة قديماً حتى قيل إنها ما سمّيت « الخرج » إلا لأن محصولها كان « يخرج » إلى الحرمين الشريفين فى أزمنة مختلفة من التاريخ القديم ، ورغم أنه مرت على تلك المنطقة سنة من النوم تبدلت حالها من العمران الزاهر والخصوبة اليانعة إلى الإقفار والجدب ، إلا أن إحياء المشروع على يد حكومة حضرة صاحب الجلالة واتجاه العزيمة إلى إحياء مواتها ، ونهوض معالى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان بتنفيذ رغبة جلالته ، ثم استخدام وسائل الفن والعلم فى الأثمار والإنتاج ، كل ذلك لم يدع ظن المبالغة يتطرق إلى نفوسنا فيما كانت تسرده علينا ألسنة الرواة عن خصوبة الخرج وإنتاجه وأرقام محصوله ، والشىء الذى ثبت عندنا من تلك الروايات كلها ، أن فى الخرج ما يشبه بحيرات الماء أى أن الماء متوفر بكثرة تضمن الرىّ الزراعى على أحسن حال واقترن تصديق الروايات المؤكدة عن مياه الخرج وغزارتها بوقوع حادث رسخ فى الأذهان بعد أن صرف الله شره ، فقد تصادف أن بعض حضرات أصحاب السمو الأمراء كانوا فى زيارة تلك المنطقة فلما وصلوا إليها وقفوا بسياراتهم عند حافة العين الكبيرة التى يُستقى منها للرى ، ولأمر ما يريده الله ، تحركت السيارة من نفسها واندفعت إلى العين فابتلعتها لجة الماء وغاصت إلى القرار ، ولحسن الحظ كان فيها واحد من الركاب أنقذه الله بأن ألهمه أن يقذف بنفسه منها قبل سقوطها إلى الماء !! وضاعت السيارة فى اللجة وابتلعها ذلك اليم الزاخر الذى احتواها فى أحشائه وضن بها على النور والحياة ، وقد كان من الأسباب التى ترتبت على ذلك أن استقدمت الحكومة إخصائيين من الغواصين ودفعتهم إلى سبر غور هذه العين ، فنزلوا إلى ما استطاعوا النزول إليه من مسافات فى الأعماق ، ثم عادوا لا بالسيارة ولا بخفىّ حنين ، ذلك أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى قرارتها ،

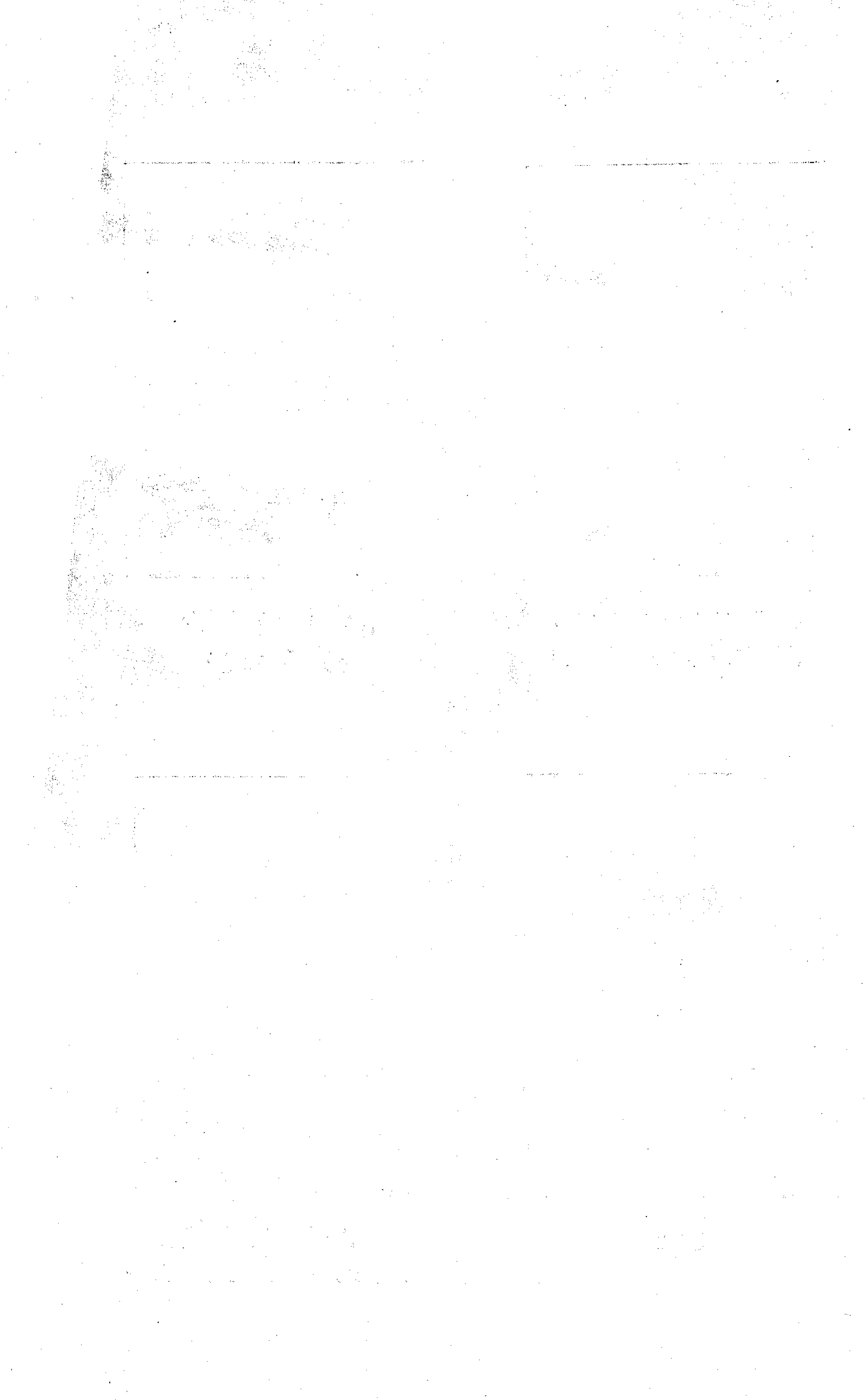
ولا إلى نهاية أعماقها ، وإنهم لو استطاعوا لعادوا بخبر ما ، فإما أن يعودوا بنبأ السيارة وما تأدى إليه مصرعها من التحطيم ، وإما أن يعودوا بخفى حنين بعد أن يكونوا سبروا غور العمق ووصلوا إلى نهايته ، فأما وأن ذلك لم يحصل فما كان هناك سوى الخيبة فى الوقوف على حقيقة الأبعاد التى تصل إليها أعماق ذلك الماء ، ولقد كانت النتيجة الأخيرة هى المطلوبة لأن أمر الحصول على السيارة سليمة أو العثور عليها غير سليمة أمر ميئوس منه ولا أمل فيه ، وكذلك الشأن فيما يتعلق بخفى حنين التى يرجع بها - مجازاً - كل خائب الأمل ولم ترجع بها الحقيقة التى أضاعتها القرون الطويلة الخالية !!

كان هذا الحادث المزعج ، وعاقبته السليمة سبباً مباشراً فى ذيوع المعلومات الواسعة عن حقيقة العيون فى الخرج ، وما تنتجه من المياه ، فالبئر التى تبتلع سيارة وتهضمها أمعاؤها ليست بئراً ، والعين التى تستنديب بمياهها كتلة من الحديد والخشب وتزدردها لقمة سائغة ، ليست عيناً وحسب ، فلم يبق إلا أن نقول أنها بحيرة أو شبه بحيرة !!

وفى يوم من أيام آخر شهر محرم من ذلك العام - ١٣٦٠ - كنت خارجاً من وزارة المالية ظهراً ، فالتقيت بصديقى الشاب الأديب ، والشاعر المستتر ، الأستاذ أحمد موصلى مدير مكتب معالى وزير المالية ، وركبنا السيارة معاً إلى أوتيل مكة ، حيث كانت سيارتى تنتظرنى هناك ، وفى هذه المسافة الصغيرة التى قطعناها معاً كان الحديث يدور بينى وبينه عن الخرج ، ولا أدرى ما هى المناسبة التى دفعتنا إلى ذلك الحديث ؛ لأن سفرنا ورحلتنا هذه لم تكن قد تقررت بعد وأظن أن المناسبة لذلك كانت سفر معالى وزير المالية فى ذينك اليومين إلى نجد وكان المفهوم فى ذلك الحين أن سفر معاليه إلى نجد ، معناه سفره إلى الخرج أيضاً لأنه من غير المعقول أن يزور

معاليه نجداً ولا يزور تلك المنطقة التى تيممته وأغرم بها كل الغرام وكرس كل جهوده لأجلها فى ذلك الوقت .

وكانت خلاصة الحديث أنه سألنى: ألم تكتب شيئاً جديداً عن الخرج ؟! فقلت له ليس لدىّ من معلومات جديدة عنها وإن أكثر ما نسمعه من المعلومات الأخيرة ليس إلا من ألسنة الرواة ، وألسنة الرواة مهما تكون منزلتها من الثقة ـ وهم غير مسئولين ـ بينها فارق كبير وبين الأرقام الرسمية أو الرايات الشبيهة بالرسمية ، وكاتب مثلى حين يريد أن ينشر أقواله على الناس لا يصح له أن يعتمد على الأولى دون الثانية ! ! فقال لى لِمَ لَمْ تسأل حضرات الموظفين الذين يختلفون إلى تلك المنطقة فى مرافقة معالى وزير المالية ؟ ! فقلت قد فعلت وقد سمعت منهم معلومات محدودة ليست هى بُلغَة الكاتب المتعطش فى إيراد معلومات شاملة للجمهور الظامئ ! ! فقال هناك معالى الوزير نفسه افتراه يضن عليك لو سألته عن معلوماته فى هذا الصدد ومعاليه هو جهينة تلك الأخبار ؟ قلت لا ، فإن معاليه لا يضن بذلك ، بل هو كثير الإفاضة فى هذا الموضوع فى كل مناسبة ولكن العقبة الكؤود ، هى أن تضع يدى على معالى الوزير ! فأين هو الآن ؟ ! هو فى جدة ولكنك بعد قليل تسمع أنه فى مكة ، ولا تلبث بعد ذلك أن تبحث عنه فتجده فى الطريق بين مكة وجدة أو لا تجده ، فإذا قدّر لمعاليه تخلية هـــذا الخط بين مكة وجدة ، فدونك والخط الثانى بين مكة والطائف ، فهو يوماً فى الطائف وأياماً بين مكة وجدة ، وأياماً أخرى بين أرباض نجد وربوعها ، لا فى بلد واحد ولا فى مستقر واحد بل فى جميع بادية نجد والاحساء ومدنهما الشاسعة الأمداء البعيدة الأطراف ، وقد لا يكون فى كل هؤلاء فيكون فى الظهران حيث تقوم مناجم شركة استخراج البترول هناك !! أفليس الحصول على رؤية معالى الوزير المشغول ، مشكلة دونها كل المشاكل ، ما لم تتح الظروف وجوده مصادفة فى أى مكان ما من هـــذه الأمكنة ؟ ! وانتهى الحديث بينى وبين صديق



أعظم مشروع انضمت عليه جوانح هـذه المملـكة ، بعد مشروع استنباط البترول الذى تعرفه ! » فقلت لمعاليه مندهشاً : إننى أخشى المبالغـة فيما تقول ، فماذا تعنى ؟! قال أعنى الخرج التى ستشاهدها غداً فهى مشروع خصب وفير الثروة ، كثير النماء ، دانى القطوف ، وإن وزير المالية بذل فى خدمته مجهوداً محموداً حتى وصل إلى ماصار إليه من الإنتاج ، ولا سبيل للمبالغة فيما أقول ، فنحن نصل إليـه فى الصباح الباكر وستشهده بعينى رأسك !! وهنا لذت بالصمت عن الجواب ، ولجأت إلى السكوت للخروج به عن النفى والإثبات ، ذلك لأننى واثق بما يقوله رجل كبير المـكانة كالشيخ يوسف ياسين ، ولا أعرف عليه مبالغة ولا تهويلا ، ولو إننى سمعت هـذا القـول من شخص آخر غـــيره ، لما قابلتـه بمثل ذلك التسليم . أما وقد سمعته بأذنى من الرجل الذى أعرفه ولا أجهل مكانته الشخصية ولا أجهل مكانته الاجتماعيـة ، وهو الرزين الذى لاينطق إلا بمقدار ، ولا يتكلم بغير الحقيقة ، فلا سبيـل إلا إلى التأمين على مايقول ! أو الصمت وهو من علامات التأمين أو الرضا كما يقولون ! وسكت وأنا أشد وثوقاً بما كنت أسمع وأعرف من الأنباء عن « الخرج » بعـد أن زكاها عنـدى رجل من أصدق الرجال وأبرزهم ، ومالى لا أصدّقه وليس بينى وبين مشاهدة مايقول غير سواد ليلة أو بعض ليلة !!

***

وفى الصباح الباكر من يوم الأحد ٢٥ صفر تحرك موكب حضرة صاحب الجلالة قاصدين إلى الخرج ، وكانت كلما اقتربت مسافات الرحلة ، وكلما قطعنا مرحلة من الطريق ، زادت النفس شغفاً بالشوق إلى رؤية الخرج ، وما لنا لانتعجل الوصول إلى مكان يقودنا إليه حضرة صاحب الجلالة قاصدين إلى تلك الغاية التى خفقت من أجل

تحقيقها نفوسنا ، وهفت إلى رؤيتها قلوبنا قبل أن ترنو أبصارنا . أفنحن فى حلم أم فى يقظة ؟! وهل هوسبات أم صحو ؟!!

وكان موكب جلالة الملك يقطع المسافات على سيره المعتاد ، فهو حيناً وئيد ، وحيناً غير وئيد حسبما تقتضيه طبيعة الأرض ، أو وتقتضيه مناظرها الخلابة وما فيها من بواعث الفتنــة والجمال والتريث بين تلك الروضات المبعثرة ، أو بين أناس يقفون إلى جانب الطريق فيقف الموكب لوقوفهم طيلة المدة التى يتفضل فيها جلالته بالسؤال عنهم وتقصّى أحوالهم والسؤال عن حاجياتهم ، ونفحهم بما يشرح صدورهم ويبهج نفوسهم من الفضة البيضاء اللامعــة التى توجت باسمه الـكريم ، وجعلها الله فرجاً للناس من الضيق ، ومخرجاً لهم من الضنك ، ووقاء من الحاجة !!

وأخيراً أقبلنا على عمران أو شبه عمران ، فقــد بدأنا نبصر طلائع الناس المجدين المشتغلين ، الناس الذين يزرعون الحقول وكلهم أمل ، ويجنون الحصاد وكلهم ثقة ، وبدأنا نبصر السواد ، وما أدراك ما السواد؟!! فعلمنا أننا أوشكنا أن نصل إلى غايتنا ، فقــد بدأت طلائع العمران ، والعمران فى الصحراء ليس هو فى بناء القصور ، ولا إعلاء الدور ، ولكنه فى تلمس دبيب الحياة حين تحس دبيبها ، أو فى تحسس مظاهرها حين تبصر مناظرها ، ودبيب الحياة فى الصحراء الجرداء يتلمسه المسافر فى أبسط الحركات ، ومظاهر الحياة فى البيداء ، يتحسسها الضارب فى كبد الصحراء ، فى أهون مظاهر ألوانها وحركاتها !!

وفى هــذه اللحظة اشرأبت أعناق المسافرين إلى اجتلاء طلعة ذلك السواد ، لما كان يبشر به من الوصول إلى العمران ، ولما كان فيــه من مظاهر الخصوبة البادية ، التى لولاها لما أبصرت آدمياً واحداً من أولئك الناس الضاربين فى هــذه البيداء ، وهى لا تحمل من معنى الصحراء غير اسمها ؛ أما هى فى حقيقتها فمكان خصب جميل يكاد يُسلمك منظره إلى تذكر أية قرية من قرى الريف الوارف فى مصر وغير مصر من بلاد الأنهر المتدفقة ، وهذا ما شعر به الرفاق جميعاً وما تحدثوا به وما أطلقوه من الوصف على مستهل الخرج فى مرآها الأول .

إلى زرقاء اليمـامة

أقبلنا[1] على الخرج من بعيد ، فكأننا أقبلنا على قرية خصبة من قرى الريف الخصيب ، ورأينا آثار تلك الخصوبة تتجلى فيما نشاهد من مزارع وحقول ، وكان ذلك المنظر يختلف فى مشهده وعلاماته عن سائر ما رأينا من بوادى الصحراء ، لأن دلائل الحياة والإنعاش فى تلك الصورة الرائعة لها مظهر يبعث فى نفس رائيها اليقين بحقيقة خصبها ، أما البادية الجرداء أو المعشوشبة فمرآها فى العين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فنحن إذ نقبل على الخرج ، لا نشك أننا نقبل على قرية آهـلة بالسكن والخصوبة والعمران ، فهؤلاء المزارعون منتشرون من مسافات بعيدة ، وعلى مساحات مختلفة . ترى فيهم روح الحيـاة والنشاط والعمل ، وتلك مواشيهم وأباعرهم وغيرها من الدواب ، تشاركهم الدأب والسعى والعمل والإثمار والإنتاج ؛ وفى تلك الحالة الزاهية الناضرة لا ترى للفقر شبحاً ولا تشعر برثاء أو إشفاق نحو أولئك السكان ، كما هو الشعور نحو غيرهم من أعراب البادية الرحّل الذين يعيشون على التنقل فى طلب العشب واصطياد الـكلأ والمرعى ، وانتجاع الغيث من مظانه ومراميه السحيقة غير

(١) هذا القسم الجنوبى الشرقى من نجد هو المعروف قديما باسم اليمامة ، واليمامة معروفة منذ القدم بالخصوبة الزاهية ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عبد الوهاب عزام فى كتابه «مهد العرب» بعبارات نقتطف منها : وقد ضرب المثـل بكثرة نخيلهـا كما قال أبو العلاء « وجدت العـلم ببغداد أكثر من الجريد باليمامة » وفى الجنوب الغربى من وادى حنيفة اقليم الخرج وهو من أخصب بقاع نجد وقد عنى به جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فاستخرج مياهه بآلات عظيمة وهو يمتد ثمانين ميلا فى خمسين

وكانت فى اليمامة منازل طسم وجديس من قبائل العرب البائدة ، وكذلك قصة زرقاء اليمامة التى كانت تبصر من مسافة ثلاثة أيام وقد ضرب بها المثل فى الأشعار والأخبار ، وهناك قرية منفوحة التى كان يسكنها الأعشى وفيها دفن . وقال الشيخ يوسف ياسين إن بيت الأعشى معروف فيها إلى اليوم

المستقرة ، بل إنك لتغبط أولئك السكان المستقرين بين الخصوبة وبين وسائل الحياة المواتية ، الريفية الجميلة المستقرة .

وكان أول ماشهدناه من أسباب الخصوبة فى الخرج ، مجرى عين ماء يقع على مسافة ميل منها ، وهو مجرى مستور بالبناء ، وموطأ فى ناحية من نواحيه لاجتياز السيارات ، إذ هو يعترض طريقها ، وقد قال لنا حضرة صاحب الجلالة الملك فيما بعد أن جلالة والده الإمام عبد الرحمن رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، هو الذى أصلح مجرى ذلك العين وأقامه للانتفاع بمياهها فى الرى والسقيا هناك ، وكنا كلما نقترب من المدينة الزراعية، كلما رأينا نشاط مظاهر الخصوبة تدنو إلينا أو ندنو منها حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام حدائق غناء نثرت فيها شجيرات النخيل ومن بينها المزروعات الأخرى من شجيرات الفاكهة ، وبين ذلك كله قنوات عريضة تجرى فيها المياه ، كأنها فروع من نهر ، كما هو الشأن فى توزيع مياه الرى والسقيا فى بلاد الأنهر الزراعية . وبعد دقائق معدودة رأينا أنفسنا أمام قصور شاهقة ، ومبانى عديدة متفرقة فعلمنا أننا ألقينا عصا التسيار ، وأن هذه هى ضالتنا من الرحلة . ولم يطل بنا التفكير حتى وقف الموكب ، أمام القصر الملكى الذى أعد لنزول جلالته ، حيث شرف إلى الطابق العلوى ، ومن فى معيته وقصد إلى مجلسه الحفيل ، وهو عبارة عن غرفة كبيرة المساحة لايقل طولها عن عشرين متراً فى عرض ثمانية أمتار .

وتفرق من فى معية جلالته على غرف القصر وأبهائه الفسيحة وهم يبلغون المئات من الأشخاص ، وهناك فى يمين القصر شرفة مكشوفة تواجه الهواء ، يتألف منها مجلس يزيد طوله عن العشرة أمتار ولا يقل عرضه عن الأربعة ، وهذا المجلس بتلك الشرفة يفصل بين غرفة الاستقبال الكبرى فى القصر وبين غرفة الطعام ، وكلاهما فى مساحة واحدة ، وكانت تلك الشرفة بمثابة مجلس استراحة لتناول القهوة ، بالنظر لجودة موضعها وتعرضها لطلاقة الجو ورقة الهواء الشمالى الذى يهب من ناحيتها .

جلس جلالته فى صدر المجلس ومن حوله الحاضرون ، وكان جلالته على سجيته فى مكارم الأخلاق ، يؤانس ضيوفه بطيب حديثه ، وما هى إلا دقائق حتى حضر إلى المجلس الشاب النشيط « سليمان الحمد » نجل سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية ، يدعو جلالته إلى تناول طعام الإفطار .

و « سليمان الحمد » هو النجل الأكبر لسعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية وهو شاب مثقف ذكى فى الحلقة الثالثة من حياته ـ كما أظن ـ وقدسبق أن أوفده والده إلى بيروت لتلقى العلم فى جامعاتها فمكث مدة غير قصيرة اغترف فيها من مناهل العلم ما شاء له الله أن يغترف ، وقد حال دون رغبة والده ورغبته فى مواصلة التعليم إلى نهايته انحراف طرأ على عينيه فنصحه الأطباء بالعدول عن مواصلة القراءة والكتابة بالمجهود الذى يخشى من تأثيره على بصره ، وبعد ذلك ترك معاهد العلم فى لبنان وسافر إلى القاهرة فقضى فيها بعض الوقت ، ثم قفل إلى بلاده راجعاً . وقد رأى فيه حضرة صاحب المعالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، مخائل النجابة والذكاء ، بعد أن تزوّد بما استطاع أن يتزوّد به من التعليم والثقافة ، فعهد إليه ببعض الأعمال الإدارية فى الدوائر التابعة لوزارة المالية ، فكانت إدارته لها كفيلة بمضاعفة الثقة فى حسن تصريفه للأعمال ، فانتدبه عمه ـ وزير المالية ـ إلى الحضور للخرج ، وظل فيها مدةمن الزمن ناهضاً على تصريف الأعمال والإنشاء والإدارة حتى اكتسب دربة واسعة ومراناً عظيماً ، وأصبح فيما بعد الساعد الأيمن لعمه فى القيام بالأعمال الإدارية المتعلقة بزراعة الخرج وريه وسقياه . وكان من المصادفات أن معالى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان سافر من الخرج هذه إلى منطقةالإحساء لأعمال هامة ، فلم يشهد تشريف جلالة الملك إلى الخرج ، وإنما كان فيها « سليمان الحمد » ابن أخى الوزير ، وهو الذى تشرف باستقبال حضرة صاحب الجلالة

الملك، وهو الذى كان يقوم بخدمة جلالته ، والسهر على راحة الوفود وإكرامهم طيلة الأيام التى قضاها جلالته فى الخرج .

ولقد ظهر لسليمان الحمد فيما بعد شأن كبير فى إدارة أعمال كثيرة عهد بها إليه، وطدت من كفاءاته وجدارته بالنهوض بمختلف الأعباء ماأثلج صدور محبيه وأصدقائه ممن كانوا يتوسمون فيه ذلك ، ويترقبون له النجاح كما أنه زار مصر مرات عديدة ، واختلط بأكثر أوساطها الراقية ، وبيئاتها الكبرى فكان موضع الإعجاب والتقدير حيثما حل لما كان يبديه وهو فى سنه المبكرة من رجولة صادقة لفتت إليه أنظار الإعجاب والتقدير ، وقد زار مصر أخيراً فى معية حضرة صاحب الجلالة الملك وأنعم عليه جلالة الملك فاروق الأول بنيشان اسماعيل .

وبعد الانتهاء من الإفطار وتناول القهوة أذن جلالته لضيوفه ورجاله بالانصراف إلى الأماكن المخصصة لنزولهم للاستراحة من عناء السفر ، وقال جلالته « إننى أدعوكم أولاً إلى المواظبة فى الحضور إلىّ فى مواعيد الطعام للفطور والغداء والعشاء لنتناوله معاً ، ثم أدعوكم بصفة عامة إلى زيارتى فى هذا المكان فى أى وقت من أوقات النهار والليل من غير قيد ولا شرط ، ومن غير إذن ولا حجاب ، فأنا هنا معكم وأنتم معى ، وليس لنا من عمل يحجبنى عنكم أو يحجبكم عنى ، وما حضرنا إلى هذا المكان إلا للتنزه وتفريج النفس والاتصال ببعضنا ، ففى أى وقت تشعرون فيه بالرغبة فى زيارتى فلتتفضلوا ، سواء كلكم جميعاً أو بعضكم ، ولا تتقيّدوا بأى قيد مطلقاً ! » فشكرنا جلالته جلالته على هذا الخلق العظيم والعطف الذى لامزيد عليه .

غادرنا قصر جلالته ــ الحديث ــ إلى القصر الأول الذى كان يسكنه ، والذىأعد فيما بعد لاستقبال الضيوف وهو على مسافة مئات قليلةمن الأمتار من القصر الآخر ، فنزلنا فيه جميعنا كل فريق فى جناح بحيث اتسع لنا من غير ضيق ولا تزاحم ، فقد كان القصر مؤلفاً من أجنحة مستقلة ، فسيحة الأرجاء ، متسعة الغرف ، متعددة

المنافع ، فرش كله بالأبسطة الجميلة فراشاً بسيطاً ليس فيه أى شىء من مظاهر التكلف ، وأعظم مافيه من مظاهر الكمال فى حسن الاستعداد أنه مضاء بالكهرباء ومن أين لك بضوء الكهرباء اللامع فى صميم تلك البادية المفصولة عن العمران بعشرات المئات — أو بمئات العشرات !! — من الأميال . إن الكهرباء زينة فى صميم العواصم وكبريات المدن ، فما بالك بها فى صميم الصحراء وقلب البادية ، أليست زينة الزينات ، وأعظم مظهر من مظاهر الكمال العمرانى البهيج ؟!!

وبعد أن قضينا ساعات عديدة فى الاستراحة والاستجمام غادرنا نزلنا إلى قصر حضرة صاحب الجلالة لتناول طعام الغداء فى معية جلالته ، وعدنا إلى نزلنا للاستراحة إلى العصر . وفى الأصيل أرسل جلالته فى طلب الوفود جميعها ، فلما تشرفت بالمثول بين يدى جلالته امتطى سيارته وهم فى معيته فقصد بهم إلى الحقول والمزارع المترامية الأطراف حول الخرج ، وبعد جولة واسعة حولها جلس جلالته فى مكان وارف الظلال للتمتع بمباهج الجو وجماله ، ثم نهض منصرفاً إلى قصره العامر ، واستأذن الجميع فى العودة إلى نزلهم ؛ وبعد صلاة المغرب جاء الرسول الذى يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء على مائدة جلالته . فقصدوا إلى القصر العامر لتناول طعام العشاء وتناول القهوة والسمر قليلاً إلى الساعة الثالثة حيث يقفلون راجعين إلى نزلهم فيتمّون السمر إلى السحر ، ويظلون فى حديث ممتع ، كل جماعة وجماعة أو يتبادلون الزيارة فى أجنحة القصر وأروقته الفسيحة التى شعّ فيها ضوء الكهرباء . وكان هذا هو « نظام الإقامة » اليومى فى الخرج .

الزراعة فى الخرج

نسوق فيما يلى بعض المعلومات عن الزراعة فى الخرج ، فهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، الأول هو الغلال والحبوب ، وفى مقدمتها « القمح » والقسم الثانى ، هو الفواكه بأكثر أنواعها وفى مقدمتها الموالح ، والقسم الأول هو الأكثر إنتاجاً لما هو معروف من قصر المدة التى يحتاج إليها نضوج الحبوب وأثمارها وذلك غير القسم الثانى الذى هو بطىء الإنتاج فى سنيّه الأولى هو قسم الفواكه والموالح لما تحتاج إليه من زمن طويل قد يبلغ بضع سنين فى بعض الحالات ، وهو قد أنتج على كل حال ولكن إنتاجه لم يصل بعد إلى الحصد الذى ينتظر ، وسيصل إن شاء الله إلى غايته القصوى بمرور الزمن .

أما القمح والحبوب ، فقد حصد ثمرها منذ ثلاث سنوات(١) ، وهذا الثمر يتضاعف عاماً بعد عام ، بمضاعفة الجهود المتوفرة على خدمته وإنتاجه وحصاده ، وبحسن استخدام الجهود الفنية فى الرى وتنظيمه وتوزيعه على حسب الحاجة ومقتضاها ، وبحسن إدارة العمل فى تنظيم تلك الجهود وتوجيهها إلى الناحية الأكثر إنتاجاً واستثماراً . وقد بلغ محصول ما حصد من سنابل القمح ، فى مدة موسم واحد من مواسم أحد الأعوام ، حوالى عشرين ألف صاع ، وقد أخذت تلك الكميات تتزايد فى أرقامها منذ ذلك الوقت ، بعناية الله تعالى ، ثم بفضل الأسباب الأخرى التى ذكرناها آنفاً ، حتى ارتفع المحصول من ذلك الرقم إلى مضاعفات أخرى ، هى بلاشك فى طريقها إلى الزيادة المضطردة بمرور الزمان ومضاعفة العمل فالقمح فى سنابله كان

---

(١) هذه الكلمات كتبت عام ١٣٦٠ هـ - ١٩٤٠ م . ولا شك أن الحالة الزراعية العامة فى تلك المنطقة تقدمت كثيرا عما كانت عليه فى ذلك التاريخ البعيد .

كاملاً ومهيئاً للحصد فى المرة التى زرنا فيها هذه المنطقة وكنا نتجوّل بالسيارة فى قلب مزارع القمح ، فى طرق خاصة مخططة لمرور السيارات تفصل المربعات المزروعة ، وكنا كلما انتهينا من مزرعة أو حقـل ، قصدنا إلى مزرعة أخرى أو حقل آخر ، فى أى اتجاه نريد ، فقـد كنا محاطين بالحقول والمزارع من جهاتنا الأربع ، لايفصلنا عن الزرع غير تلك المربعات الهندسية التى نظمت بها الحقول وخططت فيهـا طرق السيارات وغير السيارات ، من المشاة والمزارعين ، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالرى فى سقيا الزرع ، فقد أنشئت للرى خطوط فنية بعضها أشبه بقنوات الماء المتحدر من الأنهر والجداول الـكبيرة وبعضه فى أنابيب صناعية تصل المـاء إلى المجرى المقصود ومنه ينحدر على حسب الرغبة إلى المزرعة المراد سقيها ، وكفه عن المزرعة المرتوية ، ولا شك أن نظام توزيع المياه بين المزارع ، نظام دقيق يرجع إليه العامل الأول فى كيفية النهوض بإدارة الزراعة إدارة فنية ناجحة بإذن الله ، ذلك لأن الماء هو الذى يقول الله فيه « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ومن هنا وجبت الدقة فى توزيعـه على قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان ، فـكما أن الزيادة فى شرب المـاء بالنسبة للآدميين أو المزروعات توجب التلف ـ والمرء يشرق بالزلال البارد ـ فـكذلك النقص فيها يؤدى إلى نفس النتيجة من الهلاك .

وقد انتفع كثيراً بالمحاصيل الزراعية فى الخرج ، إذ لايخفى أن إنتاج كمية كبيرة كهذه الـكمية من الزراعة ، والحبوب على الأخص ، لها أكبر الأثر فى تموين العدد الهائل من السكان ، فالحبوب هى الغذاء الأساسى للناس ، وتوفير إنتاجها فى مكان قريب مثل ذلك المـكان يكفل تموين المنطقة التى حولها من مناطق نجد ، وعلى الأخص العاصمة النجدية ـ الرياض ـ التى لاتبعد عنها بأكثر من عشرات الأميال ، ووسائل النقل متوفرة غير عسيرة بجميع أنواعها ، إذ يمكن إرسال سيارات الحمل الـكبيرة التى تحمل بضعة أطنان من الحبوب فتنقلها إلى أى جهة أريد النقل إليهـا ، كما أن

وسائل النقل الأخرى على الدواب وفى مقدمتها الجمال متوفرة أيضاً وسهلة التناول إذا لم يكن هناك من الأسباب مايدعو إلى السرعة والتعجيل . وما نقوله عن الحبوب يمكن أن نقوله عن الفواكه المختلفة الأنواع.مما ينتج فى مزروعات الخرج ، فالفواكه فى هـذه البلاد ـ وفى غيرها أيضاً ـ مادة رئيسية من مواد الغذاء ، كما أنهـا مادة رئيسية من مواد الثروة الزراعية لمـا تباع به من الأثمان ولاتجاه الطلبات إليها فى قوانين العرض بالأسواق .

وتتجلى أهمية الزراعة فى هـذه المنطقة إذا قيس محصولها إلى جانب ماتستورده البلاد باستمرار من نظائره من المحاصيل العالمية من الخارج ، وفى الظروف التى يتعذر فيهـا استمرار النقل المتصل بين الأقطار البعيدة وبعضها كما وقع فى ظروف الحرب العالمية الماضية التى اجتازتها هذه البلاد وقاست محنتها إلى أقصى حد[1] ، لذلك تضاعفت الهمة فى العناية بزراعة الخرج وبارك الله فى تلك الهمم بنجاح مجهوداتها ومواتاة ثمرها حتى وصل إلى ماوصل إليه الآن فى مدة قصيرة من الزمن ، ينتظر أن تصل إلى أضعافها المضاعفة فى السنوات القليلة من الزمن إن شاء الله .

وكان من أسباب نجاح هذا المشروع ، تنظيم الرى لسقيا الزراعة ، ذلك بأن مجرد وجود المـاء فى منطقة من المناطق ، لا يكفى لخصوبتها إذا لم تـكن هناك الأيدى العاملة التى تقوم بما تستوجبه الزراعة من حركة ، وإذا لم تـكن هناك أدمغة مفكرة فى استنباط أقرب الطرق وأنجعها لاستغلال ذلك الماء والانتفاع به فى أوسع صورة وعلى أكبر منوال ، فى رى الأراضى وسقياها وإحياء مواتها والرجوع بها من حالة الجدب إلى حالة الخصب والنماء والازدهار . وإلا فالماء وحده من غير عمل يدوىّ أو تفـكير إنسانى ، شىء عديم الجدوى إذا فاض عن حاجة الإنسان بل هو أداة من

---

(١) المقصود بها الحرب الـكبرى الماضية التى نشبت عام ١٩١٤ م .

أدوات التلف بالنسبة لكل شيء إذا أسيء استعماله ، على حد قول الشاعر : « لو بغير الماء حلقى شرق !! » .

لذلك استقدمت حكومة جلالة الملك المعظم بعثة من المهندسين والعمال الفنيين من العراق ، ثم من مصر لاستغلال ذلك الماء وصرفه فى أوجه النفع من الرى والسقيا حسبما تقتضيه الحاجة ، وقد زادت عناية حكومة جلالته بهذا الجانب الخصيب من المملكة ، واستقدمت له بعثات خاصة فى الزراعة وشؤون الرى وما يمت إلى ذلك بالصلات ، فتقدمت كلها وازداد نماؤها وخصبها وريّها ، ولا زال المأمول أن يتضاعف الإنتاج لما تسده محصولاته من حاجات السكان الغذائية ، ذلك إلى جانب الرفاهية المترتبة على خصوبة منطقة كبيرة كهذه المنطقة ، وما ينتفع به أهلها وغير أهلها من المحيطين بهـا ، من رفه المعيشة وخصبها .

والكلام عن الزراعة فى الخرج [1] ، يدعونا إلى الكلام عن المياه فى تلك المنطقة ، الخصوبة والجدب ، وقد تقدم فيما سبق من الكلام وصف موجز لبعض مياه الخرج وأخصها العين الكبيرة التى تسح بالماء المتواصل الذى نهض عليه مشروع الرى فى تلك المنطقة ، ونريد فى هذا المكان أن ندلى بمعلوماتنا عن ماء الخرج .

لقـد وجدت العين الرئيسية فى الخرج ، وهى عين « سمحة » وكان عليها كل الاعتماد فى الرى والسقيا لأنها أكبر العيون ، وكان سحب الماء منها بالطرق الابتدائية المعروفة فلما وجد المشروع الفنى وأحاطته عناية حضرة صاحب الجلالة الملك وأمر

---

(١) جاء فى كتاب قلب جزيرة العرب لسعادة فؤاد بك حمزة عن « الخرج » فى صفحات متفرقة ما يأتى : تسكن قبيلة آل مرة فى منازلها الممتدة من جنوبى الطريق بين الحسا والرياض إلى جهات الخرج والعقير ، وقد استولى جلالة الملك على هذه المنطقة فى تأسيس ملكه فى معركة حاسمة عام ١٣٢٠ هـ . وقعت فى نخيل بلدة الدلم بعد معارك مختلفة بين آل سعود وآل رشيد استعر أوارها فى كثير من سنى القرن الماضى .

بذلك معالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، اهتم معاليه كل الاهتمام بأعمال الزراعة فى الخرج ، وكان من آثار ذلك أن استقدمت حكومة جلالة الملك بعثة فنية من العراق قضت مدة من الزمن فى معاينة تلك المنطقة معاينة « جيولوجية » وكتبت تقريراً بنى على الخبرة والمعلومات الصحيحة . عما يجب عمله فنياً لاستغلال هـذا الوادى الزراعى الخصب .

وفى الخرج كثير من العيون والآبار سنذكر عنه بعض المعلومات فيما يلى [١] :

١ — « عين سمحة » التى تقدم ذكرها وقد ركب عليها ثلاث طلمبات لسحب الماء ويسحب منها مقدار (٦٠٠٠) ستة آلاف جالون فى الدقيقة الواحدة .

٢ — « عين أم خيسة » وقد ركب عليها ماكينة قوة ٢٢ حصان وهى تسحب من الماء مقدار (٨٠٠٠) جالون فى الدقيقة الواحدة .

٣ — « بئر نبعة » وهى بئر حفرها معالى الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، وقد ركبت عليها ماكينة قوتها ١٦ حصاناً ، ومقدار مايسحب منها من المـاء هو ٦٥٠ جالون فى الدقيقة الواحدة .

٤ — « بئر قطيمان » وقد حفرها الشاب النجيب سليمان الحمد ، وركب عليهـا موتور قوة ٣٠ حصان تشتغل مدة ساعتين فى اليوم ويسحب منها من الماء ما مقداره ٨٠٠ جالون فى الدقيقة الواحدة .

٥ — « بئر العوينة » وقد حفرها معالى الوزير الشيخ عبد الله السليمان وركبت

---

(١) أسلفنا القول فيما تقدم أن المعلومات والأرقام الآنفة الذكر هى سابقـة العهد ، فقد سجلت فى عام ١٣٦١ هـ ١٩٤٠م . ولعل الحال الآن قد تغير بتطور الأحوال وتقدمها .

عليها طلمبة فوهتها ١٢ بوصة وموتور يسحب الماء بمقدار (١٥٠٠) جالون فى الدقيقة الواحدة وهى غزيرة الماء باستمرار .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه الآبار ، يسحب الماء منها مدة محدودة من أوقات النهار بحسب الحاجة إليها ، ولكن العين الرئيسية الآنفة الذكر ابتدىء سحب الماء منها بالماكينة التى ركبت عليها من يوم ٥ شوال عام ١٣٥٨ هجرية وهى منذ ذلك التاريخ لم يقف سحب الماء منها ليل نهار ، ذلك بأنه متى أوقف سحب الماء بضع ساعات تطفح العين ويفيض الماء منها .

ومن الضرورى أن توقف الماكينة مدة خمس ساعات مرة فى كل شهر لتنظيفها ومسحها وتفقدها ، وفيما عدا ذلك فالماكينات تشتغل فى مواصلة سحب الماء من تلك العين منذ ذلك التاريخ الذى ذكرناه من غير توقف ولا ركود .

ومما تحسن الإشارة إليه ، أن الماء يصب من العين الكبيرة الآنفة الذكر أو على الأصح من طلمباتها فى مجرى واسع عميق يصل عمق الماء فيه إلى متر ونصف ، والمجرى نفسه ينزل عن سطح الأرض فى نفق طبيعى مقدار ثلاثة أمتار ، وجوانب هذا المجرى تشكّل حائطين طبيعيين مرتفعين ، وقد سقف سطحهما بسقف صناعى جعل جانباً منه فى وقاية من الشمس ، وقد أقيم على سطح ماء المجرى مباشرة دكة من الخشب مثبته فى حائطى المجرى ، وهذه الدكة قد فرشت بالبسط النفيسة وجعلت مكانا لاستراحة جلالة الملك عند تشريفه هناك ، وقد جلسنا فى ذلك المكان أكبر مدة استطعنا أن نقضيها فيها ، وغادرناها ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى إطالة الجلوس فيها بله إلى عدم مفارقتها بالمرة ، فهى جلسة سحرية شعرية لا يستطيع القلم وصفها لبراعة مناظرها الخلابة الساحرة وما فيها من أسباب الاستجمام والهدوء ، ولو استطاع القارىء أن يتصوّر المعنى الذى قصدت إليه من تصويرى ذلك المكان لشاركنى

الشعور الذى كان يدفعنى إلى الجلوس وعدم المبارحة ولعلى أكون على وتيرة الشاعر الذى اتهم بالفهاهة والعىّ فيما تقدم من الزمن حين وقف على منظر كهذا المنظر فلم يستطع وصفه إلا ببيت من الشعر اعتبر مثلا فى الفهاهة والعىّ حين قال وحين كان كما كنا ـ :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء !!

وقد ظل وصفه الساذج هذا ، موضع دعابة القرون والأجيال ، ولكن مالى أتهم نفسى وأجارى من سبقنى فى اتهام الشاعر المتقدم ، وقد جاء شاعر أوربى محدث فقال مثل ما قال زميله العربى ، ذلك أن « لأمارتين » الشاعر الفرنسى الشهير ، بل أرق شعراء العاطفة فى فرنسا فى الجيل الماضى ، كان فى رحلة كبيرة أو صلته إلى شلالات نياجرا ، فلما رآها بهت لجمالها واستخفه حسنها ففقد لسانه فلم يستطع أن يعبر لا عن شعوره نحو ذلك المنظر ، ولا عن وصف حقيقته وما فيه من إبداع ، فما كان منه إلا أن اندفع صائحا وبغير شعور منه قائلاً « نياجراً !! نياجراً !! نياجراً !! » ثلاث مرات ، ثم صاح « إنها نياجرا وكفى » فاعتبر الفرنسيون ، وشاركهم فى هذا الاعتقاد غيرهم ، أن هذا أبلغ وصف استطاع لأمارتين أن يصف به شعوره نحو شلالات نياجرا وما فيها من بهاء وما فيها من جمال !

إذاً رحم الله الشاعر العربى الذى قال ـ :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء !!

ولا تسفيه لرأيه بعد اليوم ، فقد كنا حقيقة عند وصف ما قال من غير زيادة ولا نقصان !! وحسبنا أن نكون كذلك والسلام .

أيام الخرج

قضينا فى الخرج ـ أو فى وادى زرقاء اليمامة ـ أربعة أيام فى معية حضرة صاحب الجلالة ، كانت أنزه أيام الرحلة على الاطلاق وأبهجها بالنظر لما تمتع به ذلك الوادى من الخصوبة وجمال المناظر ووفرة الزراعة ما كان منها طبيعيا كالروضات ، وما كان منها صناعيا كالحقول ، ولكن حدث لكاتب هذه السطور حادث قوّت عليه تلك البهجة وأبدلها بكابوس ثقيل الظل جعله يقضى تلك الأيام متململا طريحا حتى أنعم الله عليه فى آخر يوم من أيامها بما كشف الغمة وأزال الكابوس . فقد تقدم الكلام فى مراحل الطريق ، أننى شعرت بطارىء من المرض وقد قدّر الله لى من النشاط والمقاومة ما احتملت به وعثاء الطريق وهمّ المرض ، حتى وصلت مع رفاقى إلى الخرج وقضيت ثلاث ليال وثلاثة أيام فى سريرى والمرض يهز جسمى هزاً ويكاد يضنى نفسى ويرمضها ، . وكان أول الرفاق عناية بى، هو الصديق الكريم سعادة الأستاذ الرؤوف الصبان الذى ما كان يغمض له جفن دون أن يبذل لى من وسائل العناية بى كل ما يستطيع !!

وأول ما فعله هذا الصديق، هو الاستنجاد بمروءة الطبيب البارع الدكتور رشاد فرعون مدير صحة الرياض وطبيب صاحب الجلالة[1] ، وقد قام على غير تعارف سابق بينى وبينه بمعالجتى وعيادتى بعناية ليست هى مجرد عناية الطبيب الإنسانى البار ، بل عناية الأخ والصديق الكريم، فقد كثر تردده على عيادتى إما للمعالجة أو للزيارة والاطمئنان برغم ما كان مثقلاً به من الأعمال وكانت عناية الرفاق وغيرهم من الأصدقاء هى المؤاساة الكبرى التى خففت من ألم المرض وقد تطوع بتمريضى بصفة أخص شاب رفيق

---

(١) سبقت الاشارة فى صفحة ٩٤ إلى تعيينه وزميله مستشارين لحضرة صاحب الجلالة فى هذا العام .

هو السيد صادق دحلان الموظف بمجلس الشورى بمكة ، فقد تكشف لى عن مروءة فى نفسه منقطعة النظير ، وعن خلق سمح كريم . ولقد كانت ليالى المرض ثقيلة الوطأة من شدة الحمّى وهذيانها ، فذكرت فى ذلك الموقف أبا الطيب حين دهمته الحمّى فشكاها إلى الله فى قصيدة طويلة يقول منها ـ :

وزائرتى[١] كأن بها حياء — فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا — فعافتها وباتت فى عظامى

يضيق الجلد عن نفسى وعنها — فتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتنى غسلتنى — كانا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجرى — مدامعها بأربعة سجام

ويصدق وعدها والصدق شر — إذا ألقاك فى الكرب العظام

وملّنى الفراش وكان جسمى — يمل لقاءه فى كل عام

يقول لى الطبيب أكلت شيئا — وداؤك فى شرابك والطعام

وما فى طبه إنى جواد — أضرّ بجسمه طول الجمام

فإن أمرض فما مرض اصطبارى !! — وإن أحمم فما حم اعتزامى !!

وفى اليوم الثالث ، حين شعرت بدبيب العافية ، نشطت من عقال المرض ، وأحسست بأن علىّ واجبات اجتماعية لا بد من أدائها فأنا لم أحضر إلى نجد لمجرد النزهة والتمتع بالمناظر البهيجة ولكنى مطالب كصحفى بأن أكتب ما شاهدت ، وأنا ككاتب مطالب بأن أدوّن ما رأيت ، وأنا قبل ذلك وبعده لم أغفل حركة من حركات الرحلة ولا منظراً من مناظرها إلا سجلته فى رسالة برقية وطيّرتها إلى صحف

---

(١) يقصد بزائرته « الحمى » التي كانت تطرقه ليلا .

ولا منظراً من مناظرها إلا سجلته فى رسالة برقية وطيّرتها إلى صحف مكة يوماً بيوم، تلك هى أوليات مهمة « عميد الصحافة » فكيف يجوز لعميد الصحافة أن يغفل الصحافة من حسابه !! ذلك مالا يكون ، وذلك ما كاشفت به رفقائى فى الخرج فقد حرمت فى أيام هذا المرض من رؤية كل شيء ، وأنا فى الواقع لم أشهد شيئاً مما جئت لأجل رؤيته فى هذا الوادى البهيج !!

وفى اليوم الثالث غادرت غرفتى فى الصباح الباكر . وأنا مشدود بين لفائف الوقاية من البرد ، وقصدت مع أصحابى إلى قصر حضرة صاحب الجلالة الملك للتشرف بالسلام عليه ، وتناول طعام الفطور ، فلما رآنى جلالته مقبلاً استقبلنى ببشاشته المعهودة ، وقال لى : « إنك محفوظ إن شاء الله لا بأس عليك » فقبلت يد جلالته وشكرت كريم عطفه ، وكان حفظه الله دائم السؤال عنى يومياً ، وقد بُلِّغت سؤال جلالته وعطفه من قبل .

وفى ذلك اليوم طلبت من بعض الزملاء مرافقتى للتجول فى الأماكن التى لم أشهدها فتجوّلت قبل الظهر وبعده وقضيت اليوم فى مشاهداتٍ ، هذا الذى ذكرته هو خلاصة منها .

وقد قيلت هذه الأبيات فى الخرج وفى وصفه :

هذا هو الخرج ، فاسأل صدق مخبره — عن قدرة الله فى تجميل منظره
تدفّق الماء من ميزاب رحمته — بما يضيق الحجى عن وصف أيسره
مشى فأحيا موات الأرض فى سعة — فماد مجدبه يزهو بأنضره
فانظر إلى تلكم الامداء شاسعة — لا يدرك الطرف أقصاها بمجهره

تضاعف البرُّ فى أعـلا سنابله ... فضاعف الله منـه حبّ أكثره
والروض فاح عبيراً فى مزارعـه ... فعطّر الجو منـه ريح عنـبره
تناثرت فيـه روضات مزخرفة ... فى البيـد جناتها تزهو بأنهره
والنخل بمثر فى أرجاء ساحتـه ... يبـدو التواضع منـه فى تكبّره
والأثل قام على حافات روضتـه ... كشاعر الروض يشدو فوق منبره
والزهر خلف لثام الطـل محتجب ... كأنه الحسن يبـدو خلف مئزره
يكاد فى نسمات الصبح ريّقه ... يضفى على الجو مسكاً من تعطّره

* * *

مولاى كم نعمـة لله سابغـة ... تضاءل الشكر فيها عن تشكره
أجرى بك الله أمن النفس فى بلد ... لم يعرف الأمن فى تاريخ أعصره
وأصبح القفـر مأنوساً بوحشته ... وليثـه يتلاقى عنـــد جؤذره
يجوبه المـرء لا يدرى به سغباً ... ولم يذق ظمأ أبان معبره
وأخصبت أرضـه فى كل ناحيـة ... وزاد إنتاجـه خصباً بمثمره
وفاخرت بك تقديراً ولا عجب ... فالغاب يختـال من عجب بقسوره
أدامك الله للإسـلام حارسه ... تذود عنـه وتفرى حد منـكره

إلى الرياض

وفى يوم الثلاثاء ٢٧ من صفر ، تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك ، وأصدر أمره الكريم بأخذ الأهبة للسفر والاستعداد له . وفى الصباح الباكر ، انتظم الموكب فى معية جلالته واتخذ وجهته إلى الرياض ، إلى عاصمة نجد !!

غادرنا الخرج فى الموكب الملكى ونحن مأخوذين بعوامل كثيرة متعددة من الذكريات والحنين ، ومن الشوق والتعجّل ، فقد كنا فى أسف شديد على فراق تلك المنطقة الخصبة العزيزة ، وفراق مافيها من الذكريات من سمر الليالى التى أمضيناها فيها ، فهى ذكريات عذبة عن حوادث سعيدة ، قلما يجود بها أو بأمثالها الزمان ، وأما الشوق والتعجّل ، فقد كان مثاره الحنين إلى الرياض عاصمة نجد ، وهى بيت القصيد فى الرحلة !! فالرياض هى عاصمة نجد ، وعاصمة نجد هى عاصمة الحوادث التاريخية المجيدة — فى القديم والحديث — وإذا كان القديم الغابر لايعنينا كثيراً فى أمر رحلتنا هذه ، فإن الذى يعنينا حقيقة والذى هو منا بمرأى ومشهد ، هو تاريخها الحديث ، ومعنى تاريخها الحديث هو تاريخ آل سعود وما لهذه الأسرة المجيدة من مجد تالد وهناك خلاصة الخلاصة من هذا التاريخ ، وهى تنحصر فى سيرة حضرة صاحب الجلالة ملك هذه البلاد وليثها المغوار ، وبطلها الذى لايشق له غبار .

فتاريخ نجد إذاً ، هو تاريخ الأسرة السعودية ، وتاريخ هذه الأسرة متوّج بتاريخ هذا الملك الذى تكاد سيرته ورواية حوادثه وسرد أقاصيص وقائعه تذهب مذهب الخيال ، لولا أنها حقيقة واقعة لم يستطع الزمن أن يسحب عليها ذيول النسيان ، وكيف يستطيع الزمن أن يعفى على مجد باذخ ولم تزل لبنات تأسيسه تتزايد كل يوم لبنة جديدة ، تزيد فى تدعيم صرحه العتيد ، وبنيانه الراسخ المشيد . فإذا كنا وصلنا

إلى الغاية التى نقصدها ، وقد أصبحنا من الرياض قاب قوسين أو أدنى ، فلا شك أننا سنشهد مصدراً من مصادر التاريخ الحديث . ولا شك أننا نقبل على تحقيق ماهو معتلج فى النفس من الحنين إلى مصدر المجد ، ومبعث الرجولة الصادقة ومأوى العز التليد !! أليست هـذه « الرياض »[1] التى اقتحمها ابن السعود عنوة فى غابر صباه واسترد باستردادها ملك أجداده وحريات شعبه ، ثم وضع فوق كيانها لبنات المجـد الباذخ التى تأسست عليها مملكته الواسعة الأطراف ؟! أليست الرياض هذه هى بلده الأول التى أراد الله أن يتفجر نور الدعوة السلفية الصالحة من جوارها ، وأن تحتضن هذه « الرياض » تلك الدعوة الإسلامية الجريئة الصارخة ، وأن تخرجها طابعاً رائماً يقبل الناس من صحيحى العقيدة كل الإقبال على الانضواء تحت لوائها ؟!!

أليست هذه هى الرياض ، وهذا هو بعض شأنها فى تاريخ المجد ، وتاريخ الدعوة السلفية ، وتاريخ بناء أعمال الرجولة الصادقة والشجاعة الموفقة من الله !؟

أجل هذه هى الرياض ، وهـذا هو بعض شعورنا نحوها ، وشعورنا بالحنين إلى ذكرياتها ، وهى ذكريات لايمكن التعبير عن كيفيـة اعتلاجها فى نفوس القادمين عليها ، وقد تشاركنا السيارات التى نركبها فى مثل هذا الشعور بالحنين ، فهى تسابق الأرض سبقاً ، وتطويها طياً وتـكاد تنهبها نهباً . أفتكون سياراتنا هـذه من مطايا « ابن معتوق » الشاعر حين قال ـ :

---

(١) الرياض هذه كانت مسرح شجاعة جلالة الملك ابن السعود حين فتحها بعد أن تم لجلالته الاستيلاء عليها مرتين فى قصة تعد من أروع قصص البطولة ، ومن أروع ما فى قصة فتح الرياض الصراع اليدوى الذى دار بينه وبين عجلان عامل الرياض من قبل ابن الرشيد عام ١٣١٩ هجرية. حين سار إلى اقتحام الحصن فى نفر من قومه لا يتجاوز عـدهم الأربعين جعل ثلاثين منهم للرديف ، وعشرة للهجوم والصراع ، وقد أشار إلى هذه الواقعة سعادة فؤاد حمزة بك فى كتابه «قلب جزيرة العرب» صفحة ٣٦٣

قد براها للسرى جذب براها فذراها يأكل السير ذراها
ودعاها للحمى داعى الهوى فدعاها ، فالهوى حيث دعاها
يالهـا من أحـرف مسطورة تسبق الوحى إذا الحادى تلاها
ترتمى شوقاً فلولا ثِقْـل ما فى صدور الركب طارت فى سراها
سحب صيف قدح أيديها الحصى برقها والرعد أصوات رغاها
كلما حنت لأرض المنحنى وكلاها ، أقرح الشوق كلاها
ذات أنفاس حرار صيرت فحمة الظلماء جمراً من لظاها

قد يكون ذلك أو قد لا يكون !! ولـكن الشيء الذى لاشية فيـه ولا مرية ، أننا نغالب فى أعماق نفوسنا ذلك الشعور بالحنين إلى مانحن مقبلين عليه من مرئيات الرياض ومشاهدها ، ونتعجل الخطى ونستبق « المطايا » إلى الوصول السريع !!

وما زلنا نجد السير ، ويطوى الله الأرض لنا طيًّا ، ونحن نعـد الدقائق ، ونستنطق الساعات التى فى أيدينا أو فى جيوبنا ، ونـكثر من لهفة التشوف فيهـا والتطلّع إليها !!

فى الرياض

بعد سفر متواصل ، فى مدة تقرب من الساعتين ، أقبلنا على شبه مزارع عرفنا لأول وهلة أنها مظاهر القرب من الرياض ، ولم نلبث أن تبينّا مظاهر العمران بما لاح أمامنا من مناظر الخضرة والزراعة ، ثم بمنظر ساريتين عاليتين فى كبد السماء ، هما ساريتا اللاسلكى اللتان ترتفعان إلى علو ثلاثمائة قدم فى الجو ، وبدت خيام سكان البادية الضاربين حول الرياض . وبعد دقائق معدودة فى استدارة من السير اجتزنا بها بعض المرتفعات ، رأينا « الرياض » وجهاً لوجه ! فحمدنا الله ، ثم حمد القوم السرى ، وعرّج الموكب ، على القصر الملكى العامر .

وشرف جلالته إلى الطابق العلوى فى القصر وفى معيته الحاضرون ، فاسترحنا قليلا ، ثم تفضل وأذن لنا بالانصراف إلى نزلنا من الاستراحة وكان قد أمر جلالته بأن يكون نزولنا فى القصر الملكى الذى كان يسكنه جلالته قبل تشييد القصر الحالى الذى يقيم فيه .

ولجلالة الملك فى الرياض ثلاثة قصور ، أولها وأقدمها القصر الملكى القديم المبنى داخل المدينة ، وهو القصر التاريخى الذى كان يسكنه جلالته وجلالة والده من قبل ، ومن تقدمهما من الأسرة السعودية[1] ، وثانيها : القصر الملكى الذى بنى خارج سور الرياض والذى يطلق عليه اصطلاحاً اسم « المربعة » وقد ظل هذا القصر مسكناً خاصاً لجلالته خارج سور الرياض مدة طويلة من الزمن ، ثم منذ بضع سنوات أمر جلالته ببناء قصر جديد آخر ، فى المكان الذى سمّى « المربعة » خارج السور ، وهو

---

(١) شهدنا فى هذا القصر آثار ضربة سيف تاريخية ضربها البطل المجاهد ــ الملك عبد العزيز ــ يوم صراعه في اقتحام حصن هذا القصر فى فتح الرياض ، كما تقدم ذكره .

يقع في مواجهة باب القصر السالف ، وبعد الانتهاء من تشييده شرفه جلالته بالسكنى ، وتم إنشاء ملحق لهذا القصر ، ليتسع لجميع أعضاء أسرته الكريمة ، وهذا الملحق هو بمثابة قصر كبير جداً أنشئ من وراء القصر الذى يسكنه جلالته على شكل مربع وألحق به فتألف من الجميع قصر واحد كبير مربع يتوسطه حوش كبير لا تقل مساحته عن بضعة أميال . وقد أحيط ذلك المربع كله من خارجه بسور كبير هو واجهة البناء الذى تتألف منه واجهة القصر من جهاته الأربع ، وأقيم فى القصر المذكور مسجد فسيح الأركان عالى البنيان تؤدى فيه الصلاة ، ويؤدى صاحب الجلالة الصلاة فى الطابق العلوى منه فى جميع الأوقات وهو مسجد فطرى لا أثر للإناقة فيه وقد أدينا فيه صلاة الجمعة .

وتتصل القصور الملكية المذكورة بالمدينة ، بواسطة شارع مرصوف بالحجر ، كما أن هناك بعض المزارع الحديثة أنشئت على مسافة أميال قليلة من الرياض ويرجع السبب فى إنشائها إلى ما أبداه جلالته من الاهتمام بإيجاد المياه وتوفيرها فى تلك الأمكنة فقد أنشئت بأمر جلالته آبار ارتوازية عديدة وتصب الماء ليل نهار ، فى المجارى التى أعدت لجريانه والانتفاع به وتوصيله إلى المزارع .

وقد أصبحت مدينة الرياض فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك ، مدينة شامخة البنيان ، عامرة بالسكان ، وأصبحت سوقاً تجارية نافقة ، ومركزاً مهماً للتصدير والتوريد ، وكعبة مقصودة من كثير من الطبقات العاملة ، نظراً لما لقيته فى عهد جلالته من الازدهار والعمران ونشاط الحركات فى شتى مرافق الحياة العملية ، ولا شك أن هـــذه المدينة ، مدينة لجلالته ولعهده الزاهر السعيد بذلك النشاط الآنف الذكر ، وفى الرياض ، مركز للاسلكى ، وإدارة للبرق والبريد والتلفون وإدارة للصحة والمستشفى الأميرى وإدارة للبلدية ، وإدارة لسيارات النقل الحكومى والأهلى ، عدا إدارة سيارات الخاصة الملكية ، وعدا الإدارات التابعة لديوان جلالته .

ومما زاد فى نشاط الحركات التجارية والعمرانية فى الرياض ، تواد الوفود بين فترات مختلفة من أجزاء السنة على تلك المدينة من ضيوف جلالة الملك وزواره وغيرهم من كبار رجال حكومته وموظفيها فى شتى فروع الدولة الذين تقتضيهم أعمالهم التردد عليها وما تقتضيه تلك المناسبات من ارتياد الأسواق والإنفاق وتدعيم الحركات التجارية ، وهناك فى موسم معيّن من مواسم السنة — فى كل عام — يفد على الرياض بضعة عشرات الألوف من أهالى نجد على مختلف طبقاتهم ، فينزلون ضيوفاً على أريحية صاحب الجلالة ، وقد تمتد إقامتهم إلى شهرين أو ثلاثة أشهر تباعاً ، يتفضّل جلالته أثناءها بضيافتهم ومنحهم الأعطيات السنوية التى تعودت أريحيته أن تجود بها عليهم وقد تبلغ مئات الألوف من الريالات ، وقد يكون ذلك عاملاً من عوامل النشاط التجارى فى تلك المدينة .

وبالجملة ، إن وجود حضرة صاحب الجلالة فى مدينة الرياض علاوة على ما أكسبها إياها من المجد التاريخى ، فقد أكسبها حياة تجارية وعمرانية لم تصل إليه فى أى عصر من العصور ، وحسبك أن تكون «الكهرباء» إحدى صنائع جلالته على هذه المدينة النائية فى قلب الصحراء وصميمها .

وهناك حقيقة ثابتة يعرفها أهل هذه المملكة جميعاً ، وهى أن كل مكان يقطن فيه جلالة الملك أية مدة كانت ، يصبح « رياضاً » بالمعنى الصحيح ويصبح «موسماً» على وجه الحقيقة لا المجاز ، وذلك يرجع إلى سخائه وبذله بما يعود نفعه على جميع سكان المدينة التى يشرفها بالإقامة فيها .

قلت : إننا بعد أن وصلنا إلى الرياض أذن لنا جلالته بالانصراف إلى نزلنا ، وهو فى القصر الملكى السابق ، وقد تفرّق الوفود فى مختلف غرفه الفسيحة وأبهائه المترامية الأطراف ، فاستوعب ذلك الطابق وحده جميع الوفود بسعة وتبسّط .

وفى أصيل ذلك اليوم ، جاءنا من أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة حفظه الله ، سيتفضل بعد دقائق قليلة بتشريف هـذا القصر الذى نحن فيه ، لزيارة ضيوفه . وقد سرى هذا النبأ فى الرفاق مسرى البهجة والحبور ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لجلالته على هذا الخلق الـكريم ، وعلى هذا التشريف الذى أولاهم به منتهى الفخر وغاية المجد .

وبعد قليل لمحنا ، موكب جلالته مقبلاً ، نخف الجميع إلى استقباله عند باب القصر فلما شرف قصد إلى مجلسه العلوى وأخذ يغدق عبارات الترحيب والأنس ، وتفضَّل جلالته على عادته بالتبسّط فى الحديث مع جلسائه ومداعبتهم بكل طريف من رائع القول وجميل الدعابة ، ثم قال جلالته إن سروره بقدوم ضيوفه لا حدّ له وإنه يزداد ذلك السرور بقدوم أولئك الضيوف فى كل عام ، وإن جلالته منـذ الآن يأذن لهم سلفاً بالقدوم إلى نجد فى مثل هذا الوقت من كل عام ، وإنه يرحّب بهم أجمل الترحيب .

وفى ختام تلك الجلسة الطريفة الشائقة نهض جلالته ودعا الوفود فى معيته إلى نزهة خلوية جميلة فى ذلك الأصيل الجميل ، فانتظم الموكب فى معية جلالته إلى جولة بديعة حول أطراف الرياض ، وكان أول منظر شاهدناه بعـد مغادرة القصر الملـكى ذلك « الارتوازى » الذى يجود بالماء وتفيض به ميازيبه المرتفعة الشاهقة ، وقضينا فى ذلك جولة قصيرة وذقنا طعم ذلك المـاء الجارى المتدفق ، ثم مشينا إلى ضاحية قريبة من أرباض الرياض ، وهناك استراح جلالته فى مزرعة ناضرة فرشت أرضها بالبسط ، وبعد أن تناول جلالته القهوة مع الحاضرين نهض مستأنفا المسير إلى حـــديقة « الأمير فيصل بن سعد » على مسافة أميال قليلة من ذلك المـكان ، حيث أدى جلالته بها صلاة المغرب إماماً بالمصلين ، ثم استأنف الموكب الميمون عودته إلى الرياض .

وفى تلك الليلة تشرفنا على عادتنا بزيارة حضرة صاحب الجلالة فتفضل جلالته واقترح علينا أن نتصل بأهلينا فى مكة وفى جـدة بالتلفون اللاسلـكى وأن نتحادث

مع من نريد من أهلنا بتلك الواسطة الرائعة التى تحمل إلينا أصـوات من نريد عبر الفضاء الشاسع الذى يزيد طوله على الألف ميل ، وقد شفع جلالته اقتراحه هـذا بإصدار الأوامر إلى المختصين فى هذا الشأن بإعداد العدة للمخابرة فى أصيل اليوم التالى.

وقال لنا جلالته : إنه فى اليوم التالى سيغادر الرياض عائداً إلى روضة الخفس ، حيث الخيام الملـكى هناك ، وإنه يتركنا فى الرياض لقضاء يومين فيهـا لنصلح من شؤوننا ونتزوّد من معرفتها .

وفى صباح اليوم التالى غادر جلالته قصره العامر الذى هو خارج الرياض، حيث شرف إلى القصر الذى بداخل المدينـة ، وكانت غاية جلالته من ذلك أن يجلس فى القصر الداخلى القريب من سكان الرياض ليكفيهم مشقة التعب فى الخروج إلى القصر الآخر النائى عن البلدة ، للتشرف بالسلام على جلالته ، وفعلاً توافد العلماء[1] ورجال الدين والأعيان على ذلك القصر وتدفقوا للسلام على جلالته هناك وظل جلالته فى ذلك القصر إلى الظهر ، ثم غادره قاصداً إلى روضة الخفس .

أما الرفاق ، فقد قضى أكثرهم ذلك اليوم بداخل مدينة الرياض ، بين التجول فى أسواقها ، ومشترى ماوقعت عليه أنظارهم من الحاجيات والتحف النفيسة ، وبين تبادل الزيارة مع من لهم من الأصدقاء والمحبّين هناك ، وقدتقدم الـكلام على أن مدينة الرياض مركز تجارى هام لـكثرة الوافدين عليها ، والمقيمين فيها .

وقضى الرفاق بقية اليوم فى نزلهم بالقصر العامر إلى الأصيل، وكان الشيخ عبد الرحمن

---

(١) فى نجد كثير من العلماء العاملين من آل الشيخ محمد بن عبـد الوهاب ، عرفوا بعلو المـكانة وجلالة الملك يحب العلماء ويقدرهم لمـا فطره الله عليه من التقوى ، ومن العلماء المبرزين المشار إليهم أصحاب السماحة والفضيلة : الشيخ محمد بن إبراهيم ، والشيخ محمد بن عبد اللطيف ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف ، والشيخ عمر بن حسن ، والشيـخ عبـد العزيز بن باز . ومنهم فى الحجاز فضيلة الشيخ عبد الله بن حسن رئيس القضاة ، وفضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف العام ، والشيخ عبد الله بن زاحم قاضي المدينة ، والشيخ محمد الباز قاضي جدة .

الطبيشى رئيس الخاصة الملكية قد وجه دعوة إلى الوفود لتناول طعام العشاء فى داره فى هذه الليلة ، فخرجنا إلى ضاحية خصبة، عامرة بالبساتين والحدائق تسمى «البديعة» تقع على مسافة ثلاثة أميال من الرياض وفيها حدائق ذات نخيل وثمر ، وفيها قصر ملكى ، وقصر آخر للأمير سعود ، وقصور لبعض الأمراء ، وبعد أن تجوّلنا قليلاً فى تلك الحدائق توجهنا إلى دار صاحب الدعوة ، فوجدنا منه ترحيباً واحتفالاً وإيناساً ، وفى الدار حديقة غناء ، هى روضة من رياض الأنس ، تفرق الرفاق تحت خمائلها .

ومن أبرز ما شاهدناه من الثمر فى حدائق « البديعة » هو ثمر النبق ، وهو يختلف عن نظائره فى الحجاز ومصر بما يمتاز به من كبر الحجم ، وحلاوة الطعم ، ولذة النكهة ، ثم رأينا هناك « شجر » الجرجير ، وهذه الخضرة مشهورة فى مصر وغير معروفة فى الحجاز ، وهى عادة تنبت فى حجم صغير ، وقد لفت نظرى وجودها فى نجد ، وأنها تكبر فى شجيرات ترتفع إلى متر وأكثر من متر .

وبعد صلاة المغرب قصدنا إلى دار مضيفنا سعادة الشيخ عبد الرحمن الطبيشى ، فتناولنا طعام العشاء على مائدة فخمة أنيقة ، وبعد تناول القهوة كالمعتاد عاد الرفاق إلى منازلهم ينتظرون الصباح بجفون مسلوبة الكرى ، فماذا ينتظرهم فى الصباح ، أو ماذا ينتظرون من الصباح ؟!!

أجل ! لقد تقدم الكلام أن حضرة صاحب الجلالة كان قد أصدر أمره لهم بأن تتصل الوفود جميعها بأهليهم فى مكة وجدة بطريق التليفون اللاسلكى .

وكان الميعاد الذى حددته إدارة اللاسلكى هو الساعة الرابعة قبل ظهر يوم الجمعة ـ غداً ـ لنتصل بأهلينا فى مكة وجدة . ولهذا فقد كان الرفاق يبيتون تلك الليلة وأهدابهم معقودة باللاسلكى يرون من خلاله الرؤى المتنوعة ، والأحلام الطريفة

اللذيذة ، وينتظرون تباشير الاتصال بأهليهم مع تباشير الصباح حتى لـكان أصوات مناغاتهم زقزقة العصافير لاستقبال الفجر المشرق ، وما لهم لا يكونون كذلك وقد قامت بينهم وبين أعز عزيز لديهم من الأهل والولد، سحابة كثيفة من الأبعاد الشاسعة والزمن الطويل ، فهذه الألف من الأميال ، وتلك الثلاثون من الأيام حجاب لن يخترقه غير موجات اللاسلكى .

لهـذه العواطف المتأججة أقام الرفاق ليلتهم ساهرين ، ثم خلوا إلى مضاجعهم لمسامرة الرؤى والأحلام ، ومناجاة الأفـكار والهواجس .

وفى الصباح تجولنا فى أسواق الرياض ، فلمـا حان الوقت أسرعنا نجر الذيل عائدين ! لا إلى منازلنا ، ولـكن إلى منزل اللاسلـكى فى القصر الذى يسكنه جلالة الملك . ووصلنا مسرعين فى لهفة واشتياق، ولقد كنت طلبت من مكة اثنين من إخوانى للتحدث معهم، أحدهما أخ لم تلده أمى ، وقد قيل قديماً « رب أخ لم تلده أمك » والثانى أخ ولدته أمى ، فذاك شقيق النفس والروح ، وهذا شقيق الجسم والنسب ، أما الأول فهو الأستاذ الشيخ عبد السلام غالى ، وأما الثانى فهو عبد المنعم شاكر ، فلما جاء دورى فى الـكلام ، اضطربت أعصابى هيبة للقاء الرهيب وهو لقاء إن لم يكن بالرؤية فهو بالسماع ، وما كان ولله الحمد بين أخوىّ من هو كالمعيدى ـ السماع به خير من رؤياه ـ فقد كان كل منهما حبيب إلى النفس ، شقيق للروح ، وبعـد تبادل التحيات بينى وبينهم ، أرتج علىّ من هيبة اللقاء المفاجىء ، والرؤية العمياء ، فمـا زدت على ما قلت أن كررت عبارات التحية والسلام ، ولم يكن موقف مخاطبىّ بأحسن من موقفى فقد كان شـعورهم كشعورى ، وقد أرتج عليهم كما أرتج علىّ ، فلم يزيدوا فى الـكلام عن مثل ما قلت ، وكأنهم نسوا مثل ما نسيت ، ما كنت قد أعددته من طيب الحديث !!

وبعد الانتهاء من هـذه المحادثة التلفونية انصرف الرفاق لأداء صلاة الجمعة ،

فى مسجد القصر وهو يقع فى حوش القصر كما تقدم الكلام ، ومما هو جدير بالذكر أن المسجد الملكى المذكور كغيره من المساجد العامة فى الرياض وفى نجد جميعها من حيث الشكل والبساطة والبعد عن زخرف الدنيا وباطلها ، وقد أتيح لى فى عودتى أن أقف قليلا فى قرية «مرات» التى مر ذكرها ، وكان أول ماطلبت الذهاب إليه هو المسجد الجامع ، ومع أن الوقت لم يكن وقت صلاة إلا أننى قضيت وطرى من مشاهدة المسجد من داخله ومن أعلاه ، ورتبت حكمى على تلك المشاهدة بأن المساجد فى نجد تقوم على طراز واحد ونسق متفق من البساطة والبعد عن الزخرفة ، بما يتفق وما للعبادة من الهيبة والخشوع .

وبعد أداء الصلاة عاد الرفاق إلى نزلهم فى القصر الملكى العامر لتناول طعام الغداء والاستراحة[1] ، لاستئناف السفر من الرياض والعودة إلى روضة الخفس ، حيث كان هناك جلالة الملك ، وقد قضى الرفاق تلك السويعات القليلة فى التهيؤ للسفر ، متزودين من مدينة الرياض بالذكريات التى ستكون لهم زاداً فى المستقبل وموردا خصباً للخيال البعيد حين يعودون إلى بلادهم وتقوم الأبعاد الشاسعة بينهم وبين ما كانوا متنعمين به من نجد ، ومن ربى نجد ومن صباها ، ورياضها ، وروضاتها ، وأعشابها ، وأزهارها ، وجبالها ، ووهادها ، وسنابلها ، وأوديتها ، وما إلى ذلك من مترادفات الجمال فى نجد وهو الذى لا تنقطع له مادة فى الوصف ولا فى الخيال !!

---

(١) من المصادفات الطريفة أن حضر إلى مصر الشاب الزكى النجيب إبراهيم بن الأمير عبد العزيز بن إبراهيم عضو مجلس الوكلاء أثناء طبع هذا الكتاب وقد تفضل ببعض المعلومات التى احتجنا إلى مراجعته فيها . وهو شاب كريم الخلق تكلم عنه سعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى صفحة ٤٨٧ من كتاب منزل الوحى وأثنى عليه الثناء الجميل .

العودة إلى روضة الخفس

وفى الساعة العاشرة غادر الرفاق مدينـة الرياض عائدين إلى روضة الخفس ، إلا واحداً منهم هو الشيخ محمد نصيف ، كان قد استأذن من جلالة الملك فى أن يعرج على روضـة من روضات الطريق ، كان فيها فضيلة الشيخ محمد بن عبـد اللطيف من مشايخ نجد وعلمائها مقيماً بعض الوقت ، وقد استأذن الشيخ محمد نصيف من جلالته فى السماح له بزيارة الشيخ العالم المذكور ، لأن فضيلته لم يكن فى الرياض مدة وجودنا فيها ، وإنما كان ضارباً فى جانب من جوانب الصحراء المعشوشبة الزاهرة ، للاستجمام وعبادة الله .

والطريق بين الرياض وروضة الخفس يبلغ الثمانين كيلو متراً ، وهو يخترق سلسلة من الأودية المتصلة ، بينها كثير من الروضات الزاهرة المتناثرة ، وهو كغيره من طرق نجد ، سهل منبسط لا أثر للوعورة فيـه ، وأكثر رياض نجد وأجزائها سهل منبسط لا يلمح الإنسان فيـه جبلاً إلا مايقع نادراً من المرور بجبل متسلسل كجبل « العرمة » أو جبل « طويق » وما عدا ذلك فليس هناك شيء من الجبـال الصغيرة الـكثيرة المتصلة أو المتلاصقة كما هو مشاهد وموجود فى أكثر أودية الحجاز وغيرها من بلاد الجزيرة العربية .

وفى المغرب ، وصل الرفاق جميعهم إلى روضة الخفس ، وقصدوا إلى مخيامهم ، أو قصد كل وفد وفد إلى مخيامه ، كما قصد كل فرد أو فريق إلى خيمته ليصلح شؤون نفسه . وبعـد قليل من الوقت ، تشرف الجميع بالسلام على جلالة الملك . وكان لقاء باهراً ، بمناسبة ماتركته زيارة الرياض من الأثر الخالد الذى لايمحى ، وبعـد أن كان الخبر عنها سماعاً وعن بُعـــد حققتها لهم المشاهدة والقرب ، على حد قول الشاعر :
« فلما التقينا صدَّق الخبَرَ الخُبْرُ » .

الفَصلُ الخامِسُ

ليـالي الحنـين

كانت هذه الليالى الثلاث التى قضيناها فى « روضة الخفس » قبيـل السفر منها عائدين إلى الدار والأهل الولد ، هى ليالى الحنين الشديد الذى لم تشعر به نفوسنا إلا فى حالات نادرة ، فهؤلاء نحن قد قضينا مايزيد عن الشهر بعيدين عن الأهل والأبناء وغيرهم من الأصدقاء والمحبين ، وقد انقضى الوطر من الرحلة بتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بالإذن لنا بالسفر والعودة ، ولم يبق لنا دون الوصول إلى أهلينا وإطفاء غلة الشوق بلقائهم ، غير انتظار اليوم الذى حدد للسفر ، كأنما ننتظر معه قدوم السفينة التى تقلّنا ، أو ميعاد القطار الذى يطوى بنا المسافات !! وهى ليلات ثلاث كانت تمر بنا كمر السحاب ، أو كنا نمر بها مر الكرام ، لا نعرف لها قيمة فى عداد العمر ولا فى حساب الزمان ، لو لم تكن ليلات انتظار وليالى حنين ، فكم فيها من الساعات، وكم فيها من الدقائق والثوانى ، إنها عملية حسابية تستنفد جهد الخبير وصبر الصبور، فالأمر لله ولنحاول قطعها بكل ما يمكن اختلاقه من أسباب السلو والنسيان. ولكن هناك شبح يقض مضاجعنا ، وتعقد لأجله أجفاننا ، هو شبح الحنين ؛ والحنين مسامر لطيف يتطرق إلى النفس كالسم فى الدسم ، فهو خيال طريف ، وسمر شهىّ ممتع يخلو به الإنسان مع نفسه فتتلذذ بطرافة خياله وشهى سمره ، وجمال خلوته ، ولكنه يسلب الكرى ، ويستطير باللب ، ويبعث على التفكير ، ويوقظ الأعصاب ، ثم إذا به فى نهاية الليل يسلمك من الأرق إلى السهاد ، ويبدلك السهر بطيب الرقاد ،

فلا تستفيق من حلم فى ذلك الصحو الدائم إلا إلى حلم ألذ منـه صحواً وأكثر يقظة وانتباها .

ولقد كانت نفوسنا تعج بألوان متضاربة من الحنين ، وأشـكال متباينة متناقضة ولا شك أن كاتب هذه السطور كان أشد الرفاق تعرضاً لذلك الداء الوبيل الذى قلنا إنه يقض المضجع ويسلب الـكرى ، حنيناً إلى بنيَّـات قيل فى مثلهم :

لولا بنيات كزغب القطا ... يفزعن من بعض إلى بعض
لـكان لى ملتجأ واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض

ولـكن أين هم منى ؛ وأين أنا منهم ، حين أتمثل بقول القائل :

أحن لهم شوقاً على أن بيننـا ... مهامه يعيا دون أقصرها الربد

وهـذا الذى أقوله عن نفسى ، لست أشك مثقال ذرة فى أنه شعور غيرى من الرفقاء أيضا .

وهناك لون آخر من الحنين غير هذا اللون ، فالشوق إلى روضة الخفس قد بدأ يساورنا ونحن فى روضة الخفس ، أو بمعنى آخر ، إن الحنين إلى نجد ، وإلى ساكنى نجد وإلى ديارها وروضاتها ومعالمها وأرباضها ومنازلها ، قد بدأ يساورنا ونحن فيهـا لما ننتقل منها ولما نتحرك عنها ، فهى فى ذاكرتنا حاضرة قبل أن تبقى خيالاً ، وقد ارتسمت خيالاً قبل أن تطويها الذكريات ، فأين من هذا الشعور قول الشاعر :

أشوقاً ولم يمض السرى غير ليلة ... فـكيف إذا خبّ المطى بنا عشرا

فهذه روضة الخفس ، وهذا غديرها المشهور الذى كان يتلقى أنفاسنا الحرّى ملتهبة بالشوق والحنين ، فيحيلها برداً وسلاماً ، وننسى ونحن فى ظلاله ما كان يعتلج فى نفوسنا من ذلك الشوق والحنين ، وها نحن أولاء مفارقوه بعد لحظات قصيرة تسمّى بالأيام ، فـكيف لا نحن إليه ونحن فيه .

وهذا جبل طويق الذى احتضن روضة الخفس ، وقام عليها كالأم الرؤوم ، وقد كانت لنا جولات ونزهات من حول أرباضه وبين سفوحه ، ولقد أذكر مرة أننى خرجت مع رفيق فى إصباحة باكرة لمحاولة التملق بأهداب ذلك الجبل والتصعيد إليه فقضينا زهاء الساعتين فى محاولات عابثة عدنا منها بالضنى والكلال ، والعجز عن إدراك الغاية ، فقد كان الجبل مقطوع الأطراف كأنه حائط قدّ بالسيف ، أو كأنه برج معلق فى الفضاء ، أو كأنه حصن لم يضع له صانعه مصعداً ، حتى قلت لصاحبى : لعله جبل السموأل ، فإن لم يكنه فهو فى صفته على الأقل ، ولعله كما قال فيه صاحبه :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل

فقال لى ، أجل : منيع يرد الطرف فهو كليل ! ومع ذلك لم نيأس من تلك المحاولة السابقة فقد عمدنا إلى محاولة أخرى أوسع نطاقاً ، فركبنا سيارة وقمنا بجولة التفاف حول الجبل علّنا نبصر منفذاً إليه . وبعد جهد جهيد عدنا أدراجنا من حيث أتينا دون أن نظفر من جبل السموأل بطائل !! وكل ما أمكن أن نظفر به منه هو اقتناء حصباوات غريبة الشكل من حصباء الجبل لفتت نظرنا بأحجامها الدقيقة الغريبة ومناظرها الخلّابة الرائعة ... فمالنا لانحن إلى طويق ، ومالنا لانفعم منه بالذكريات ، بعد أن صحبناه شهراً من الزمن أو يزيد !! وبعد أن كانت لنا معه تلك الجولات الشائقة فى الإصباح والإمساء ، وبعد أن أصبحت قطع من حصبائه تقوم بعملها على مكتبى فى حراسة الأوراق من الهواء !! من تلك الحصباء التى صحبتها من سفوحه .

وهذا « غدير الحويبى » الذى يقع فى شرق الروضة ويحتضنه جبل طويق ، متنزهنا فى كل يوم ، كيف نودعه اليوم ، وكيف لا نحنّ إليه ولنا فيه ذكريات ، فقد كانت تنتظم حلقة الرفاق فى ظِلال أشجاره ، أو تسبح على موجات مائه ، أو تتسامر تحت أغصانه ملتهية بما توحيه تلك الجلسة عن عبق الحديث الذى يختلط نشره

بعبق الروضة وجمال الماء ، ومن الذكريات التى لاتنسى فيه أن الشيخ عبد الله الشيبى يأبى أن يقضى نزهته حول ذلك الغدير إلا مختبئا تحت أغصان أشجاره ، مستتراً بها وفوهة بندقيته مصوبة من خلال الأشجار والأغصان إما إلى كبد الجو الفضاء يتلمس طيراً هائماً ، وإما إلى سطح الماء يتلمس طيراً ظامئاً ، فإن لم يظفر فى كلتا الحالتين بضالته من الطيور الضالة !! فلاأقل من طلقة أوطلقتين يرسلهما مدوّيتين عبر الفضاء ليعرف الرفاق أن الشيخ قام بمهمته خير قيام ، وأنه صوَّب بندقيته وأطلقها ، ولا عليه بعد ذلك ان أخطأ أو أصاب ، فالمرء عليه أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب ، كما يقول الشاعر !!

ومن الذكريات التى لاتنسى فيه أن سعادة الشريف شرف رضا ، وهو رجل رقيق العاطفة ، وقد قلنا فى مناسبة سابقة إنه كاد يصبح شاعراً طيلة مدة الإقامة فى الروضة لما شحذت من عاطفته مناظر الصحراء ، كان يجلس جلسات طويلة فى متنزه ذلك الغدير متفيئاً ظلال أغصانه الوارفة ، فيقول إن جمال هذه الروضة ومناظرها تفوق روعتها « غابة بولون » فى باريس ، ولا يكاد يخلو فى هذا المتنزه إلا ويتذكر غابة بولونيا وجمالها فينشد أبياتاً من قصيدة لأحمد شوقى بك فى وصف جمال تلك الغابة ويستنشدنا بقية أبيات القصيدة فننشده إياها ، فيطرب ونطرب معه من ذلك الوصف ونتمثل الشاعر كأنه قالها فى وصف مجلسنا الحاضر ، لا مجلسه الغابر ، فنستعيد الوصف ونردد منها قوله .

يا غاب بولون ولى	ذمم عليك ولى عهود
يا غاب بولون ولى	وجد مع الذكرى يزيد
هلا ذكرت زمان كنا	والزمان كما نريد
نطوى إليك دجى الليا	لى ، والدجى عنا يذود
فنقول عندك ما نقو	ل ، وليس غيرك من يعيد

نطفى هوًى وصبابة　　وحديثها وتر وعود
نسرى ونسرح فى فضا　　ئك والرياح به هجود
نسق ونسق والهوى　　ما بين أعيننا وليد
والغصن يسجد فى الفضا　　ء وحبذا منه السجود
والنجم يلحظنا بعين　　ما تحول ولا تحيد
حتى إذا دعت النوى　　فتبدد الشمل النضيد
بتنا ومما بيننا　　بحر ، ودون البحر بيد !!

وفى ذات إصباح ، قابلنى سعادة الشريف شرف رضا ، فانفرجت أساريره الوضاحة عن مداعبة رقيقة كخلقه الرقيق ، فقال : أين أنت يا فؤادى ؟! ولماذا لم تظهر اليوم ولم تبن ، فقلت لسعادته :

أنا فيما علمته من مكانى　　رابض منك فى حنايا الجنان
لذت بالقلب،فاحتجبت عن العين　　جلّت رؤياك عن أن ترانى !!

أما الأستاذ عبد الرؤوف الصبان ، فقد اشتهر بالتخصص فى كل الأبحاث والمواضيع ، فهو يجول فى العلوم الاقتصادية والمالية والتاريخية واللغوية أيضاً ، وقد سبق أن قلنا فيما تقدم إنه كان يصطحب قاموس المنجد فى جعبة كتبه إلى جانب ما اصطحب أو ما لم يصطحب من الكتب الأخرى ، أما ولعه بالأبحاث التاريخية ، فلا أدل عليها من أنه أخذ يحقق ويدقق منذ وصلنا إلى نجد عن رحلة الصحابى الجليل والفارس الإسلامى العظيم خالد بن الوليد على رأس سراياه العسكرية فى حروب الردة ، وعن الطريق التى سلكها من مقر القيادة فى يثرب إلى اليمامة لغزوة بنى حنيفة ، ويحقق فى البلاد التى اخترقها أو مر منها ، وكانت عدته فى تطبيق الاستشهاد على الواقع ، نسخة من كتيّب الشهر اسمه « خالد بن الوليد » بقلم الفريق

طه باشا الهاشمى ، وقد تشرف فى أثناء زياراته لحضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل نائب جلالة الملك بعرض خلاصة بحثه ورأيه ، فكان سموه يناقشه فى رأيه ويبادله الملاحظات حول ذلك الموضوع .

وأما أبحاثه الاقتصادية والمالية ، فلا أدل على براعته من وقوع الاختيار عليه جملة مرات لانتدابه فى مهمات من ذلك القبيل ، وأجدر مايلفت النظر من الأدلة على ذلك ، تشرفه بالاختيار الملكى الكريم للسفر إلى الاحساء فى عمل يتعلق بمهمة اقتصادية إدارية ، ولقد وفقه الله إلى النجاح فى كل عمل عهد به إليه ، لما فيه من حسن البصر بتصريف الأمور ، وما فيه من الحزم المقرون بالعزم ، والجرأة المصحوبة بالإقدام ، ولقد كان له فى مناصب الحكومة بعد ذلك أوفر نصيب من النجاح ممادل على بعد نظره وأيد ماعرفه به أصدقاؤه ومحبوه من الرغبة الصادقة فى خدمة مليكه وبلاده ، وخدمة المجتمع العربى السعودى ، سواء يوم كان عضواً فى مجلس الشورى أو رئيساً لمجلس المعارف أوفى مديرية الأوقاف العامة، أوحيث هو الآن مضافاً إلى عمله أمين العاصمة ـ مكة المكرمة ـ وذلك غير المهمات الأخرى التى كثيراً ماتسندها إليه حكومة صاحب الجلالة فيخرج من أدائها موفور النجاح .

ليلة السفر

الكلام على « ليلة السفر » يحتاج إلى تقدمة وبيان ، ذلك بأنها ليلة فذة فى حياة الإنسان بالنسبة لما هو مترتب عليها من فراق ولقاء ، والمسافر غالباً لا بد أن يفارق حبيباً أو يلاقى حبيباً ، وأشد ماتكون لوعة الفراق حين يكون الإنسان موزع القلب بين توديع حبيب عزيز ، إلى لقاء حبيب عزيز . وكذلك كان شأننا ، فنحن سنفارق اثنين من رفقائنا الذين زاملونا فى الرحلة من مكة إلى هذه اللحظة ، سنفارقهم وهما يسافران إلى رحلة طويلة ، ثم إننا سنفارق هذه الروضة التى أصبحت لنا مألفاً وأصبح لعبير أعشابها فى أنوفنا مسكة من العبق لاتفارقها لافى ظعن ولا فى إقامة ، فكيف نفارق هذا المكان وهذه الحياة التى ألفناها ، وهذه النعمة التى نعمنا بها ، دون أن يكون الحنين إليه ، قد دب إلى نفوسنا قبل أن نفارقه وقبل أن يصبح ذكرى من الذكريات !!

لهذا كله كانت ليلتنا تلك ليلة سهر وسمر ، وليلة شجو وحنين ، فنحن نصطخب فى نفوسنا بين عوامل مختلفة من التأثر ، لا نحب الفراق ، وإن كنا نطرب للقاء ، وتستطير ألبابنا أسًى على الفراق ، وتحن نفوسنا شوقاً إلى اللقاء ، وقد قال النابغة الذبيانى فى قصيدته التى يصف بها المتجردة ــ :

قالوا غداً يوم الرحيل فمن لهم   ببقاء نفس المستهام إلى غد

وعارضه البارودى ببيت مماثل من قصيدة مماثلة بقوله ــ :

قالوا غداً يوم الرحيل فمن لهم   خوف التفرق أن أعيش إلى غد

وعارضهما كاتب هذه السطور قبل خمسة عشر عاما بقوله ــ :

قالوا الرحيل ضحى غد فأجبتهم ربّاه لاتدنى إلىّ ضحى الغـد !

وعلى هذا النحو كانت ليلتنا من السمر والسهر ، والشجو والحنين .

فى تلك الليلة التى هى أولى ليالى الحنين ، وكان التأثر متبادلاً بين عواطف جميع الرفاق ، تجلّت عواطف الأستاذ عبد الرءوف الصبان ، واستطعنا أن نستشف صبابة نفسه نحو داره وأهله وأولاده من وراء ستار الوقار والرزانة الذى كان مسدولاً على تلك الناحية العاطفية الفنية فى نفسه ، فجلس إلى رفقائه ، وخص من بينهم زميليـه الشاعرين السيد عبيـد مدنى وفؤاد شاكر ، ينشدهما ويستنشدهما أقوال الشعراء فى الصبابة والحنين ، وقد طلب إليهما أن ينشداه قصيدة ابن زيدون ، ولم يكن معنا أى مرجع يشتمل عليها ، فرجعنا ورجع معنا إلى المكتبة التى يرجع إليها عنـــد الحاجة ، وهى الذاكرة ، فعصرناها ، وهصرناها ، واستقطرنا منها أبيات القصيدة وأمليناها عليه فكتبها فى سجل ضمه إلى محفوظاته ، وأخذ يرددها ويتلوها فى ترنم موجع واستذكار وحنين ! فى تلك الساعة الشاجية الرهيبـة . وها هى ذى القصيدة عساها أن تكون مرجعاً لطالب غلبته الصبابة وأشجاه الحنين ، فى لحظة من اللحظات التى تطوف بأكناف الحياة على غير ميعاد !

أضحى التنائى بديلا من تدانينـا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فمـا ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لبعـدكم أيامنـا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تآلفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانيـة قطوفها فجنينا منـــه ماشينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنـا إلا رياحينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لايبلى ويبلينا
إن الزمان الذى قد كان يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره دينا
لاتحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طالما غير الرأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً عنكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا
يا سارى البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
لا غرو إنا ذكرنا الحزن حين نهت عنه النهى وتركنا الصبر سالينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً مكتوبة وأخذنا الصبر تلحينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله شرباً وإن كان يروينا فيظمينا
لم تجف أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناك عن كثب لكن عدتنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنانا مغنينا
لاأكؤس الراح تبدى من شمائلنا سيما الارتياح ولا الأوتار تلهينا
دومى على العهد مادمنا محافظة فالحر من دان انصافاً كما دينا
ولا ابتغينا خليلاً منك يحسبنا ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
أولى وفاء وإن لم تبذلى صلة فالذكر يقنعنا والطيف يصبينا
وفى الجواب قناع لو شفعت به بيض الأيادى التى مازلت تولينا

عليك منا سـلام الله مابقيت صبابة منك نخفيها فتخفينـا !!

وهـذه القصيدة كما ترى ، فى حلتها الأنيقة الرشيقة ، وفيما عرفت به من سمو المعانى ورقة العبارة وشبوب العاطفة كفيلة بأن تهدىء ثورة جامحة من ثورات النفس أو أن توقظ فتنة نائمة من أحاسيس الهوى والفتون ، وقد جاء فى كلام العرب قديماً أن من لبس البياض ، وتختم بالعقيق ، وحفظ قصيدة ابن زيدون فقـــد حاز الظرف كله !!

* * *

وفى ليـلة السفر تشرفنا بتوديع حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وداعاً حاراً مؤثراً بليغاً لاتستطيع وصفه أسلات الأقلام ، ولا ريشة الرسام ولا ترق إليه بلاغة لسان ، ولا نبضات جنان ، ولو كان الواصف فى بلاغة قس أو فصاحة سحبان !!

وفى تلك الليلة طافت برؤسنا أخيلة الذكريات والحنين عن الماضى القريب الذى سلخناه فى هـذه الروضة ، وعن المستقبل الوشيك الذى ننتظره من لقاء الأهل الأولاد ، فـكانت ليلة فذة من ليالى العمر التى لاتنسى ، وكانت ليلة صاحية مصبحة ساهرنا فيها الذكريات والنجوى . وسامرنا فيها الأمانى والأحلام .

يوم السفر وذكريات الروضة

أصبحنا ـ يوم الاثنين ٤ ربيع الأول ـ نسرف الهمة فى الاستعداد للسفر ، فهذه السيارات الكبيرة قدعبئت من الليل ، وهذه السيارات الصغيرة تعبأ للسفر ، وهانحن أولاء نتهيأ للركوب ، وفى عشرات من الدقائق كنا قد أخذنا أهبتنا وانتظم الموكب فى استقبال طريقه إلى السير ، فقال لى صاحبى ماذا تقول ، قلت ـ :

عليك سلام الله يا روضة الخفس ويامن لها فى النفس منزلة النفس

نودعها والقلب بالشوق مفعم إليها ، فهل عود إلى «روضة الخفس» ؟!!

فقال لى صاحبى ـ أجل « فهل عود إلى روضة الخفس » قلت نعم إن شاء الله وكانت فى العمر بقية .

وكانت هذه الأبيات على صغرها وقصرها ، سلوة كثير من الرفاق فى سياق السفر وحين التوديع ، وكانت هى النغمة التى ترجمها أصواتهم الهامسة معبرة عن دفين الشوق وكامن الحنين .

* * *

ومن أجمل ذكريات الروضة ، أننا كنا فى « غدير الخويين » ذات ليلة نتنزه على عادتنا ، وكان ذلك ليلة ١٥ صفر ، ولا يعنينى من تحديد التاريخ إلا أن أقول إنها كانت ليلة تمام البدر ، فشهدنا منظراً لم نشهده من قبل وهو منظر طلوع القمر وغروب الشمس ، ذلك فى المشرق وتلك فى المغرب وقد تقابلا وجهاً لوجه ، فلفت نظرى هذا المشهد الذى يمثل أسمى معانى الجمال وأبهاها ، فقلت لصاحبى ماهذا ؟ فقيل لى إن هذا المنظر لا يتاح إلا فى مثل هذه الليلة من كل شهر أى فى النصف منه ، فقلت إننى لم أشهده من قبل ، فقال ولكنه لا يتاح إلا فى منتصف الشهر ، وفى مثل هذه

الصحراء التى لايحجبها حجاب ، والتى يستشف منها الإنسان صفاء نفسه ، فيستشف فيها صورة النيرين متقابلين ، هذه الشمس وذاك القمر ، ولولا الصحراء ومواجهتها للفضاء ، لما استطعنا أن نشهد هذا المشهد الجليل الرائع ، فلما رأى الرفاق إعجابى بهذا المنظر وشغفى بجماله ، قالوا ماذا ترى فى هذا المنظر من الشعر وأين منه الشاعرية قلت أجل ومن للشاعرية بمثل هـــذه المواجهة المصافحة ، فها أناذا أقول ولعلى أوفق فيما أقول ـ :

أطل علينا البدر فى ليلة الخفس لعشر من الليلات عدّت على خمس

تلاقى وقرص الشمس فى الأفق غارب كوجه إلى وجه ، ونفس إلى نفس

ولا أدرى ماذا قوبل به هذا الوصف المنسجم مع الواقع ، ولـكن الذى أدريه أن هناك من حفظه وردده عن ظهر قلب! أما أنا فقد نسيت ماقلت لولا جمال الذكرى وما تشحذ به القريحة من إرهاف وإصغاء ، وها أنذا أحن إلى نجد قبل مفارقتها فأردد متمثلا بقــول القائل :

يا سعد قل لى وأنت حر متى رعان العقيق تبدو

أشتاق نجدا وساكنيه وأين منى الغداة نجد ؟ !

وفى معرض هذه الذكرى ، وفى سورة من سورات الحنين خلوت إلى نفسى ، وذكرت ماأنافيه من نعيم طريف ، ومَنْ أنتظر لقاءهم من الأهل والأولاد ، فقارنت بين الحالتين فلم أستطع تقديراً وغلبنى الشوق إلى ما أنا فيه ، كما غلبنى الحنين إلى من أنتظر لقاءهم ، وتدافعت نفسى تصطخب بشتى اللواعج والآلام ، فقلت بيتا من الشعر أو بيتين ـ :

لم أدر أىّ الهوى فى مهجتى بارى من روضة الخفس أو من شعب أجياد

هنا رفاق وأصحاب غطارفة وذاك فى سفحه أفلاذ أكبادى

وظللت أهمس بهذه الأبيات ، وظل رفاق يتناقلون كلماتها ، ثم استرسلت فيها فى لحظات فينات متتابعة من ذلك اليوم ، فقلت ـ :

لم أدر أى الهوى فى مهجتى بادى | من روضة الخفس أو من شعب أجياد[1]
هنا رفاق وأصحاب غطارفة | وذاك فى سفحه أفلاذ أكبادى
الله فى مهجة أودى بها شغف | وفى « فؤاد » إلى « أكباده » صادى
كم وقفة فى خيال الشعر رائعة | كأنها روضة فى شاطىء الوادى
سبحت منها بأحلام منمقة | كأنها فى ليالى الدهر أعيادى
أصغى إلى الطير فى الأوكار ناغية | ترتل اللحن فى ترجيع إنشاد
كأنها شاعر الروض الذى هتفت | على قوافيه حسناً روعة الضاد
أو أنها الشعر أجنى من مزارعه | ثمار ما أنتجته كف حصاد
أو أنها النوق تزجى السير دائبة | إلى الحبيب وشمرى وحده الحادى

واستأنفنا المسير من الروضة فى ذلك الصباح الباكر ، وكان أسلوب السفر فى العودة غير أسلوب السفر فى الذهاب ، فقد واصلنا السفر بهمة بعيدة ، ونشاط عظيم، ولست أعرف على التحقيق مرجع ذلك النشاط ، أكان هو بدافع الشوق إلى الأهل والدار ، أم كان بعامل آخر هو عامل التخشن والتعود على حمل المشاق والتجلّد على مواصلة الأسفار ، اكتسبناه فى مدة ذلك الشهر من تلك العوامل ؟ !

أجل ، فقد واصلنا السفر ، وطوينا الأرض طياً ، ونهبنا المسافات الشاسعة نهباً، حيث مشينا فى اليوم الأول من الروضة إلى الدوادمى على مرحلة فيها استراحة قصيرة لقضاء الليل فى قصر الدوادمي حسب البرنامج الذى اتفقنا على تنفيذه ، والمسافة

(١) كاتب هذه السطور يسكن فى شعب اجياد بمكة ، وهو مألف سكنه ومكان حنينه .

فى هذه المرحلة هى ٣٢٠ كيلومتراً ، وهى مسافة قلّ أن يقطعها مسافر فى يوم واحد مرحلة واحدة !!

وقضينا ليلة الثلاثاء فى قصر الدوادمى ثم استأنفنا السفر فى صباح يوم الثلاثاء ، مواصلين السفر بنفس الهمة العالية التى قطعنا بها المسافات فى اليوم الأول ، فقد كان المقرر فى برنامج هذا اليوم أن نواصل السفر إلى المويه ، لنقضى الليل فى قصر المويه وكانت المسافة جد شاسعة ، والشقة جد بعيدة ، إذ هى تزيد عن مرحلة اليوم الأول، ولـكن الله المستعان ، فقد أعان بحسن توفيقه على مواصلة السير فاجتزنا فى هـذه المرحلة الشاسعة جملة مراحل ومحطات لم نتوقف إلا فى واحدة منها لتناول طعام الغداء ، وفى بعضها للتزود من الماء وهى: « القاعية وعفيف والدفينة ثم المويه ، وقد بلغناها بعد المغرب بقليل فى جو ممطر بعض الشىء . وقد بلغت المسافة التى قطعناها فى هذا اليوم بين تلك المراحل ٣٧٦ كيلومتراً هى المسافة بين الدوادمى والمويه . وكان المقرر فى برنامجنا أن نستأنف السفر فى صباح اليوم التالى ـ الأربعاء ـ من المويه فنصل إلى مكة فى مسائه ، والمسافة فى هذه المرحلة ٢٧٢ كيلومتراً أى أقل من مرحلتى اليومين السابقين ، واسترسلنا فى الأحلام الذهبية بضع ساعات بعد أن منينا النفس بالوصول إلى الدار والأهل فى مساء ذلك اليوم الأربعاء ، فنكون قد قطعنا الطريق فى ليلتين أو ثلاثة أيام ، وهى مدة أقل من نصف المدة التى استغرقناها فى الذهاب !! وكان سرورنا عظيماً بمـا سينسب إلينا من علو الهمة فى مواصلة السفر وبما ترتب عليه من سرعة العودة وسرعة اللقاء !!! ولـكن حدث كما قال الشاعر : « وتقدرون فتضحك الأقدار »

ذلك أن المطر الرذاذ الخفيف الذى صحبنا فى أصيل يوم الثلاثاء وظل يصحبنا إلى وصولنا للمويه ، قد استأنف هطوله بغزارة طيلة تلك الليلة ، وكان المعروف لنا ولمن استرشدنا بآرائهم أن قبل المويه وبعدها مساحة كبيرة من الأرض السبخة التى إذا

غمرها قليل من ماء المطر ـ فضلا عن كثيره ـ عادت غير صالحة للسير مطلقا فإذا غامرت سيارة بالمرور فيها ساخت أقدامها ـ أى عجلاتها ـ ورفارفها وجوانبها فى أرض طينية مالحة رخوة ، وكذلك الشأن فى الجمال والمشاة وقد رأينا ذلك فى أنفسنا فقد حدث فى اليوم التالى أن خرجنا لنزهة قصيرة حول القصر ، ـ وحول القصر فقط ـ فكان من بيننا من ساخت رجلاه إلى حد الركبة .

وقد ورد فى كتاب « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد بك حمزه ، ذكر لأهم السبخات الموجودة فى المملكة فذكر تسع سبخات سمّاها بأسماء أماكنها ، ولم يذكر سبخة المويه هذه ولعلها لم تكن قد عرفت من قبل ، أو انها ثانوية الأهمية بالنسبة لغيرها ، والذى حدانا إلى تسجيل هذه الملاحظة هو أهمية كتاب قلب جزيرة العرب ومكانته الرفيعة فى موضوعه ، ثم أهمية هذه السبخة بالنسبة لما شهدناه فيها رأى العين ، ولعلنا لو لم نشاهد هذه السبخة فى حالتها الممطرة ، لكننا مررنا بها مر الكرام من غير أن نقدر لها من الأهمية ما تستحقه ، لأنها فى حالتها العادية لا تلفت النظر مطلقاً أكثر من أن لونها الأسمر ولمعة الملوحة فى بياض سطحها ، يدل المسافر على أنه يقطع أرضاً سبخة ، ومما حدانا أيضاً إلى تسجيل هذه الإشارة أن هذه السبخة من أمهات السبخات نظراً لكبرها وسعة مساحتها ، فهى فى المسافة التى قبل المويه أو بعده تزيد عن عشرات الأميال ، وتلك مساحة لا يستهان بها بالنسبة إلى غيرها ، وهى لهذه الأهمية قضت علينا بالاحتباس فى المويه مدة ٤٨ ساعة لم نستطع معها مغادرة غرفنا فى القصر ، وتفصيل ذلك أننا أمضينا ليلة الثلاثاء فى المويه ، فلما كان الصباح عوّلنا على استئناف السفر بعد أن كفّت المطر قليلا ، ولكن بعض ذوى الرأى والخبرة ومن استشرناهم من الرفقاء ومن سكان البادية ، أشاروا علينا بعدم السفر وتأجيله مدة ٢٤ ساعة أخرى حتى تجف أرض السبخة التى لا يمكن اجتيازها مطلقاً وهى رخوة لينة ، هذا على فرض انقطاع المطر ، أما إذا لم ينقطع فسنظل

محتبسين فى غرفنا بالقصر أياماً أخرى إلى أن تجف أرض السبخة من لينها ورخاوتها، ولذلك قضينا يوم الأربعـاء مقيّلين فى قصر المويه والمطر ينهمر أحياناً ويخف أحياناً أخرى إلى أن انقطع بعض الشيء ، ثم واصل الانهمار فى فترات متقطعة من الليل ، فقضينا طيلة يوم الأربعاء فى القصر ، كما قضينا ليلة الخميس ساهرين ساهدين ! ومالنا لا نسهر وما لأجفاننا لايجفوها الـكرى ، وهذه مكة ومن فيها لنا من أهل وأولاد ، على قيـد مرحلة واحدة من مراحل برنامج سفرنا ، وهـذا الطريق إليها موصد فى وجوهنا لانستطيع منه دنواً ولا قرباً .

لقد كانت ليلة المويه هـذه من أمهات ليالى الدهر ، وكانت ليلة نابغية طويلة مملة لم تنفع معها حيـل السمر ، ولا اصطناع البهجة ولا اختلاق الحبور ، لأننا أكرهنا على البقاء فى مكاننا هذا إكراهاً طويلاً بلغ الثمانية والأربعين ساعة ، وكنا عولنا على السفر فى إصباح تلك الليلة ، فليس عجيباً أن تـكون طويلة وأن تـكون مملة إلى ذلك الحد من الطول والإملال ، وأن ننشد فيها مع ابن معتوق :

يا ساكنى الجرعاء لا أقوى الغضا	منـكم ولافقـدت مها كم توضح
هل فى الزيارة للنسـيم أذنتموا	فلقـد أشم المسك منـــه ينفح
لا تنـكروا قتـل الرقاد ببينـكم	أو ليس ذا دمـه بخدى يسفح
لله كم فى سربكم من مقلة	تغضى ، وبيض صفاحها لا تجرح
رفقاً بمنتزح إليـكم روحـه	تغـدو بها ريح الصبا وتروّح
يصبو إلى برق الحجون فتلتظى	ويصوّب الدمع المتون فتسبح
رعياً لأيام الحمى ، ورعى الحمى	وسقت معاهـده المهاد الروّح
كل الموارد بعـد زمزم حلوها	بفمى يمـج ، وكل عـذب يملح
لا تطلبوا عنـدى الفؤاد فداره	إما ربوع منى ، وإما الأبطح

أجل ، لقد قضينا تلك الليلة الليلاء ، بطول السهر ، واصطناع السمر ، واختلاق البهجة والحبور ، وكان ينسل أحد الرفاق بين الفينة والأخرى مرسلاً بصره إلى السماء ليتبيّن فيها النجوم ، بين الأمل والوجوم ، فإن لمح نجماً فى أقصى السماء انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضى والاطمئنان إلى مواصلة السفر فى الغد ، وإن أبصرها مغيمة مكفهرة ، عاد مغماً مكفهراً !! وقضينا الليل فى تلك الحال وعلى ذلك المنوال ، حتى ضحكت السماء عن ابتسامتها الواضحة ، وأشرقت النجوم بإذن ربها ، وجفت من مآقيها الدموع المرسلة التى غمرت بها الأرض ، فكأن ضحكات السماء هى ضحكات نفوسنا التى استبشرت بها ، بعد ما كان بكاء السماء بدموعها المنهمرة ووجوم نجومها ، كآبة فى نفوسنا ووجوماً فيها ، وزادت السماء وضاحة وإشراقا بما استمدته من وضاحة الشمس وإشراق نورها بإذن الله ، وهناك انفرج الأمل فى نفوسنا وضحكت إلى مصافحة الجو وإشراقه ، ثم اجتمع مؤتمرنا وقرر استئناف السفر والتوكل على الله سبحانه وتعالى .

وبعد أن قضينا ليلتى السجن المكره فى المويه ، ويَوْمَيْه ، قررنا مواجهة الأمر الواقع واستئناف السفر ، حيث لم يكن منه بد ، وحيث قد نفد الصبر ، وها هى ذى إشراقة الجو قد لاحت فلاحت فى نفوسنا إشراقاً ، وقد سطعت فبعثت فى نفوسنا عزماً دفاقاً .

وفى الصباح الباكر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول ، شددنا رحالنا وليست هى غير السيارات ، وغادرنا المويه قاصدين إلى عشيرة فمكة ، وقد أعان الله على مشقة الرحلة وعلى مشقة السبخة فلم نصادف صعوبة تذكر ، واستعمل سائقو سياراتنا كل مافى وسعهم من دهاء الصناعة ، وذكاء الحيلة ، فى تفادى الاصطدام بتلك السبخات فكانوا يمرون بها مر الكرام بجميع مافى هذا المثل من معنى ، والاسراف فى السرعة

حتى يفتقدوا سياراتهم ـ وركابها أيضاً ـ من أن تسوخ أقدامها ـ وركابها ـ فى باطن الأرض ، وكانت تلك حكمتهم طيلة الأرض الرخوة الليّنـة ، حتى قدّر الله لنا السلامة فى اجتيازها . ومن أعجب المناظر فى تلك السبخة هو منظر تراكد مياه ذلك المطر الغزير فى شمالها بما كان يشبه البحيرات ، فمررنا بها وقلوبنا واجفة ، وأبصارنا زائغة طيلة بضع ساعات من الزمن حتى اجتزناها إلى الأرض الصماء الجلد الشديدة .

وخرجنا من االسبخة إلى سهل فسيح هو سهل ركبة الذى سبق أن ذكرنا وصفه فى الذهاب بين المشيرة والمويه ، وفساحته وامتداد رقعته ، وهذا السهل يلفت النظر بجماله الأصم ، فلا هو مزدحم بالأشجار والغابات ، ولا هو مأهول بالجبـال والهضبات ، ولا هو مشاب بالنواتىء والوعورة ، فهو من هذه الناحية فى جمال أصم إن صح هذا التعبير ، لأنه جميل بخلوه من تلك الوعورة والجبال والنواتىء ، وغير جميل بخلوه من الروضات والغابات والمزارع ، فلذلك قلنا إن جماله أصم ، كما قال العـرب قديماً عن جمال شهر رجب بأنه « رجب الأصم » لخلوه من قمقمة السلاح ، التى هى غير محببة إلى النفس على كل حال .

وقد ورد فى كتاب « قلب جزيرة العرب » لمؤلفه سعادة الأستاذ فؤاد بك حمزة فصل خاص عن السهول والسبخات ، جاء فى الصفحة رقم ٤٢ منـه عن سهل ركبة البيانات الآتية :

« وتوجد فى المناطق الداخلية فى البلاد سهول مترامية الأطراف ، واسعة الأرجاء يسير فيها الإنسان مسيرة أيام دون أن يجتاز آخرها . ومن أهم هذه السهول فى جهة الحجاز سهل ركبة المشهور الذى يحده من الشرق جبل حضن ، ومن الجنوب جبال عشيرة والمرجية والطائف ، ومن الغرب سلسلة جبال الحجاز العليا ، ويمتد من نواحى عشيرة التى تبعـد عن الطائف ٦٥ كيلو متراً إلى جهات المويه وأرض هـذا السهل

الواسع مؤلفة من الطبقات الرسوبية الصلصالية تعلوها فى أماكن قليلة حصباء وسوداء وخلافها » اه .

وهذا الوصف الذى ذكره فؤاد بك حمزة ينطبق تمام الانطباق على حقيقة سهل ركبة الذى مر ذكره !!

* * *

وبعد متابعة السير ، أسلمنا سهل ركبة إلى العشيرة ، فتنفسنا الصعداء بالوصول إليها لأنها طليعة مكة ، وقد آذنتنا برؤيتها تلك الحرار السوداء المحيطة بها والتى تعتبر بشيراً بها لكل صادر ووارد ، فهى تلوح للقادم من مكة مثلما تلوح للقادم من نجد ، وهى فى الحالتين علمٌ على المكان وإيذان بالوصول !!

وصلنا إلى عشيرة بين الظهر والعصر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول ، فقصدنا إلى محطة البنزين لنستريح فى إحدى غرفها مدة من الوقت حتى تصل بقية سيارات الرفاق جميعهم ، وحتى نتزوّد منها بما تحتاج إليه سياراتنا من طعام وشراب ، وليس هما غير الوقود من زيت وبنزين !!

وقضينا مدة ساعتين فى تلك الاستراحة الهانئة حتى اجتمع الرفاق وحتى قضينا وطرنا ووطر سياراتنا من التزوّد بالوقود ، وبعد الساعة التاسعة بقليل تحرك الموكب قاصداً إلى مكة ، فمررنا بالسيل الكبير ومنه إلى الزيما ، ثم إلى الشرايع ، وقد بلغناها حول المغرب ، وهناك نزلنا لأداء فريضة الصلاة ، وللسلام على المستقبلين الذين خرجوا لاستقبالنا على غير ميعاد ، وكان فى مقدمتهم الشيخ أمين الشيبى وغيره من بعض الأصدقاء ، وقد جاء لاستقبال والده ، واستقبال أصدقائه من أعضاء الوفد المكى . وبعد صلاة المغرب ، نهضنا من الشرايع قاصدين إلى أم القرى ، وبلد الله الحرام ، وموئل الأهل والأولاد والأصدقاء ، فبلغناها قبيل صلاة العشاء ،

وكنا قد أحرمنا من الميقات لدخول مكة معتمرين ، فقصد الجميع إلى المسجد للطواف ثم إلى المشعر الحرام للسعى ، ومن ثم تفرقوا إلى منازلهم على متون سياراتهم التى لا أظن أنها كانت تسير بوقود من البنزين ، وإنما كانت تسير بوقدة من الشوق ، وبحرارة من الحنين إلى حيث الأهل والدار ، فى لوعة الشوق والانتظار ...

* * *

وقد حدث أن بعض الرفاق ، وبقية الوفود الأخرى كانت سياراتهم متأخرة عنا فى الطريق بضع ساعات ، وقد قلنا إن المطر قد هطل قبيل المويه فعاقتها السبخة التى مر ذكرها عن متابعة السير بضعة أيام وكان طريقها يختلف عن طريقنا .

فذلك وفد المدينة قد اختار طريق المهد ، وهو يتفق مع طريقنا من نجد إلى عشيرة ، ومن ثم يأخذ سبيله إلى المدينة المنورة ، وقد لقى هذا الوفد عقبات فى عودته بسبب هطول الأمطار وآثارها فى بعض السبخات بما أدّى إلى تأخيره .

وهذا وفد الطائف يتفق طريقه معنا من نجد إلى العشيرة أيضاً ، ومن هناك يختلف عنا فى سلوك طريقه إلى الطائف من أحد جوانب سهل ركبة الفسيح ، وقد وصل متأخراً عنا أربعة أيام . ولم يصل معنا غير وفد جدة ، الذى كنا نلتقى به فى فترات من الطريق حتى اتفق لنا اللقاء به فى السيل الكبير ، ثم فى مكة أيضاً ، وكان من أعضائه الشيخ محمد حسين نصيف وأحمد بك باناجه ، حيث تخلف الحاج يوسف زنيل فى الروضة وقصد منها إلى الظهران والإحساء والبحرين .

ختام الرحلة ـ الربيع فى الحجاز

قلنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إن من الأسباب والعوامل فى تكوين الرحلة وجود الربيع فى نجد فى ربيع هذا العام ، بحالة جيدة من الخير والرخاء اللذين ترتبا على فضل الله بالغيث العميم ، وجوده بالمطر الغزير ، حتى استحالت الصحراء بنعمة الله إلى جنات زاهرة ورياض أنيقة مشرقة ، وخصوبة معشوشبة ناضرة ، وقلنا إن الله أراد بالمملكة كلها خيراً ، وأن يكون ختام الرحلة مثل بدئها ، مقروناً باليمن والخصب والخير الوفير ، فكان ختاماً رضيًّا بهيجاً ، وذلك بإرساله الغيث إلى الحجاز ، وإلى جميع أنحاء المملكة بحالة نادرة قليلة المثال ، ترتب عليها الخصب العام لجميع أجزاء المملكة ، وبذلك كان البدء مثل الختام ، خير فى الأول وخير فى الآخر وفيما يلى نذكر كيف كان الربيع فى الحجاز .

قلنا أن دخولنا مكة كان مقرراً فى برنامج سفرنا أن يكون ـ على الأرجح ـ فى يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول ، وقلنا إن الأمطار التى هطلت علينا فى الطريق احتجزتنا فى « المويه » مدة ٤٨ ساعة حتى سكنت الأمطار وجفت سبخة الأرض التى حول ذلك المكان . وفى الأقوال المأثورة « لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » فقد كانت نفوسنا تلحّ علينا فى السفر بغية الوصول إلى مكة فى ذلك اليوم ، حتى أراد الله أن نحتجز فى المويه إلى اليوم التالى ـ الخميس ـ حيث بلغنا مكة فى مسائه ، فهل يعلم القارىء كيف رأينا مكة حين بلغناها ، وهل يعلم مقدار فضل الله علينا ونعمته فى تأخير وصولنا إلى مكة مدة الثمانية والأربعين ساعة التى تأخرناها مكرهين فى محطة المويه؟!

أجل ، لقد كان من أكبر نعم الله علينا وبره بنا أن أرغمنا على مخالفة هوى نفوسنا فى الوصول إلى مكة فى اليوم السابق ، وإن أبقانا برغمنا فى محطة المويه إلى

اليوم التالى ، فقد كانت مكة فى ذلك اليوم الذى كنا نطمح بوصولنا إليها ، غارقة بين أمطار السماء التى فتحت ميازيبها ، وأمواج البحيرات التى تدفقت بها بحالة لم تعهدها ولم تعرفها منذ عشرات السنين ، بحيث كان الدخول إليها متعذراً ، والوصول إلى بيوتنا أشد تعذراً ، فكانت حكمة الله فيما اختاره لنا من الأمر الواقع ، وذلك لما أحدثته من أضرار فى الطرق ، كانت الأخطار فى ارتيادها محققة مكفولة !

فقد صحا الناس من نومهم بمكة فى الفجر من يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول على صوت الغيث وهو يهطل رذاذاً من السماء ، ثم أخذ ينهمر قليلاً قليلاً ، ثم كف بعض الشىء ، إلى قبل شروق الشمس حيث تلبدت السماء بغيوم داكنة ممطرة ، شحنت أطرافها بطبقات كثيفة من تلك الغيوم القاتمة المنذرة ، وكانت السماء فى حالتها وفى معناها ، أشبه بمظاهر القِرَب السوداء التى انتفخت أوداجها من شدة ماتحمل بين جلودها من المياه الحبيسة المتدافعة ، أو كأنها فوهات الأنابيب المتدفقة ، التى تندفع منها المياه مجنونة صاخبة ثائرة ، أو كأن كل قطرة من قطراتها تفتحت عن ميزاب من الميازيب ، أو عن بئر من الآبار . وأخذ المطر ينهمر على تلك الصورة الرائعة من اعتدال النهار إلى أصيلة ، وقد أحصيتُ المدة التى انهمرت فيها الأمطار فكانت تسع ساعات سوية إلى أن خفّت سوْرتها ، وهبطت حدّتها واعتدلت حالتها ، وخفّت وطأة شدتها !

فهل يعرف القارئ ، عم تكشفت تلك الأمطار الغزيرة التى تقدم بعض وصفها فى إيجاز مخل لايمكن أن يصل إلى حقيقة التعبير عنها بحال من الأحوال ؟!!

لقد تكشفت تلك الأمطار عن حوادث لاتحصى من الخير والشر ، وإن كان جانب الخير فيها هو المطلق الأعم ، ولقد تكشفت عن معلومات واسعة بما لحقت الناس من الخيرات والأضرار ، وكان فيها إلى جانب تلك الحوادث جوانب أخرى

للعظة والتنادر ، وجوانب للجد والفكاهة ، أظنها ستكون حديث الجيل بأسره ، ولا أبالغ فأقول إنها حديث الدهر ، فقد طغت على الدهر حوادث الحرب وويلاتها بما ينسى كل شيء ؟!!

١ — أما جانب الخير فيها ، فهو ماترتب على هذا الغيث من الخير للبادية بصفة خاصة ، ثم المجموع بصفة عامة ، حيث انتفع الناس بما أنتجته الحقول من ثمار وبما انتفعت به من النمو والازدهار وخصوبة المرعى .

٢ — وأما جانب الشر فيها ، فهو ماحدث من الأضرار المادية الفردية التى أصابت بعض الناس ، وهى أضرار وإن كانت فادحة بعض الشيء ولكنها لاتكاد تذكر بجانب ما أفاضت من الخير .

٣ — وأما جانب العظة والاعتبار ، فقد ترجم عنه حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل فى حديث من أحاديث مجلسه العامر الحفيل ، فقد قال إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعظ عباده وينذرهم فى هذه البلاد المقدسة التى رفلت فى بحبوحة الأمن من الخوف والجوع ، لتقابل نعمته بحقها من الشكر فتفضل سبحانه وتعالى ، فجعل إنذارهم عن طريق رحمته ، ووعظهم عن طريق بره ، فأراد أن يريهم الشر من طريق الخير ، وأن ينذرهم من حيث يبشرهم ، فأرسل الغيث فيه رحمة ، وفيه نذير فانتفع به الأعم ، وأصاب به الأخص ، ليتنبه الناس إلى دينهم ودنياهم ، وفى ذلك أسمى معانى الرحمة من الله فى الإنذار والتحذير .

٤ — وأما جانب الفكاهة والتنادر فينحصر فى بعض حوادث فردية ترتبت على وقوع السيل ومفاجأته للناس ومداهمته لبعض شئونهم وهم فى غفلة عنه ، ومن الأمثلة على ذلك منظر سيارة جرفها السيل بسائقها فكانت كالزورق العاطل حين تتقاذفه الأمواج ، أو منظر بعض الأمتعة التى جرفها السيل فكانت تتقاذفها أمواجه

على مرأى من الناس ، ومنها صناديق حديدية وأمتعة أخرى وأوانى منزلية وحاجيات إلى جانب مايماثل هذه الحوادث من المظاهر ، مما سيأتى ذكره فى محله .

* * *

ظل المطر ينهمر كأفواه القرب على مكة وضواحيها طيلة تلك المدة من الساعات التسع فى يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول ، وقد شمل مكة من أقصاها إلى أدناها وانحدرت حَباته على رءوس الجبال بأصوات مدوية ، ونبرات متدافعة ، ثم اندفعت إلى السفوح فالسهول حيث تحوّلت إلى سيول فى كل مجرى من مجارى الماء ، ومن ثم تكوّن السيل الرئيسى العظيم الذى يخترق وادى إبراهيم . ولما كانت ضواحى مكة قد أمطرت أيضاً إلى مسافات بعيدة شاسعة فى البادية ، فقد انحدرت مياه الأمطار من رءوس الجبال وتكوّنت منها سيول عظيمة متدفقة اندفعت كلها إلى مكة وزوّدت سيل وادى ابراهيم بما لم يكن معه حاجة إلى زيادة لمستزيد ! فجملته شبه بحيرة عظيمة تتلاطم فيها الأمواج الصخابة المرغية المزبدة وأخذت مياه تلك البحيرة الهائجة المائجة، تهاجم كل من اعترضها فى طريقها ، أو كان على حوافيها وضفافها من إنسان أو حيوان ، أو بناء أو متاع ! ومن لم يعترض طريقها لم تضن عليه بلفتة من لفتات مياهها تجذبه بها أو تقصيه عنها !!

فهناك كثير من البيوت التى هى على ضفاف سيل وادى إبراهيم أو غيره من مسالك السيل هاجمها الماء ، أو على الأقل هاجم مبانيها السفلى فاغترف مافيها من الأمتعة وجرفها ، فكان منظر تلك الأمتعة وهى تتراقص على نغمات المطر ، وتتدافع على حركات الأمواج ، من المناظر التى تبعث على الضحك والرثاء فى آن ، وكثير من الحوانيت وهى معرضة لسهولة تناولها على الأمواج ، هوجمت من السيول وانجرف ما فى باطنها من الأمتعة والأوانى والأدوات ، حتى أن صندوقاً من الصناديق الحديدية التى يستعملها الصيارف لحفظ نقودهم ، لم يستطع ثقله وثقل ما فيه من فضة وذهب

إن يستعصى على تيار المياه التي جرفته إلى مسافة عشرات من الأميال ، ثم حطمته شر تحطيم .

وكثير من البيوت التى كانت بمنآى عن مسيل الوادى ، وبمرتفع من المسايل عامة ، لم تسلم من أذى الأمطار ، وانهيار قواتها ، فأصيبت الضعيفة الواهية ، بنصيب ضعفها من الأضرار ، ولذلك فقد كانت الخسائر المادية المترتبة على هذا الحادث فادحة إلى حد ما ، ولـكنها خسائر لاتذكر إذا قسناها إلى جانب الفائدة العـامة التى عادت على البلاد والعباد من هذه الرحمة الإلهية الـكريمة .

أما الخسائر فى الأنفس فلم تقع إلا فى غرق ثلاثة أشخاص ، منهم رجل زنجى دهمه السيل فى ناحية من نواحيه الغزيرة،واثنان غرقا بعد بضعة أيام بينما كانا يستحمان فى أحد المستنقعات العميقة التى تخلّفت عن ذلك السيل العظيم .

وهناك بعض خسائر طفيفة أصابت عدداً من المواشى فى بعض جهات العاصمة، وفى بعض جهات البادية ، لم يتأثر بهـا أصحابها ، كما أصابت بعض المزارع والحقول بتلف بسيط لم يؤثر فى موسم الزراعة لخلو أكثر الأرض منها .

وهـذا المطر الغزير الذى تقدم وصفه فى العاصمة ، هو جزء من كثير ممـا غمر البادية[1]،ولم يقع فيها مطلقاً أى خسارة فى الأرواح وإن كان قد وقع بعض الخسارة فى المواشى دون الآدميين . وقد تحدث إلينا بعض الذين قدموا من البادية يومذاك عن الأمطار فى ديارهم ، فقالوا إنها أمطار عامة غمرت بلادهم بمياهها المتدفقـة

---

(١) نسمع فى بعض بلاد الأنهـر الزراعيـة الخصبة عبارات غاية فى الغرابة ، تثير العجب ، وتبعث الضحك فى القلب الحزين ، فقـد هطلت أمطار فى إحداها ، وسمعنا من يقول لزميله : إن الناس لايرعوون عن غيهم ولا يعتبرون بالمطر ، ولا يتعظون منه ، فـكأن المطر نـكبة من النكبات التي يصبها الله على عباده ! بينا نراها نحن رحمة ورخاء .

من السماء ، كما غمرتها بالسيول الجارفة التى ارتفعت فى بعض المضايق إلى علوعشرات الأمتار فسدّت مابين جبلين فى كثير منها !!

والأمطار وإن كان ينتج عنهـا أحياناً بعض الضرر فى المدن العامرة بالسكان والبنيان ، ولـكنها لاتـكون كذلك فى البادية ، بل هى للبادية حياة وانتعاش لـما يترتب عليها من الرى والزراعة والسقيا والرخاء ، وما يعود نفعه بعد على المدن فى جميع الحواضر من الرخاء العـام والانتفاع بمباهج البادية وثمرات غرسها ونتاج مواشيها . فلذلك كان خير هـذه الأمطار للبلاد عمياً وفيراً . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون خيره على البلاد عمياً وفيراً ، فـكان هـذا المطر عاماً شاملاً غمر البلاد كلها ، بعـد أن تقدمه ربيع نجد بالأمطار التى عمت ذلك الجانب من المملـكة ، وبذلك تم الرخاء كله للبلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وتلك هى معجزة الله سبحانه وتعـالى فى شموله هـذه البلاد المقدسة بما فيها المملـكة كلها بنعمتى الأمن من الخوف والأمن من الجوع .

وقد تقدم الـكلام عن وصف سيل وادى إبراهيم الذى يشق مكة من أولها إلى آخرها ، ومن خصائص هذا السيل أنه يمر على طائفة من أبواب المسجد الحرام التى هى فى طريقه ، فـكانت تلك الأبواب هى السبيل إلى دخوله المسجد ، وقد تـكوّن السيل فى أثناء انهمار المطر التى ظلت تهطل ساعات كثيرة من النهار ، وكان مروره أمام أبواب المسجد غزيراً فتدفق منها إلى داخل المسجد ، فـكانت تلك الأبواب وهى تصب المـاء فى المسجد أشبه بميازيب البحيرات ، أو فتحات الخزانات ، أو هى بحيرات صغيرة تندفع بحيرة من كل باب ، أو كأن كل باب بحيرة ، فإن شئت قل إن كل باب بحيرة أو كل بحيرة باب . ومن هذه الميازيب الهائلة تدفقت المياه إلى المسجد الحرام ، وما أدراك ما المسجد الحرام ؟!

فالمسجد الحرام وهو أكبر مسجد وتبلغ مساحته الألوف من الأمتار غمرته المياه وطغت فيه وطغت على أرضه وحصبائه ، فكيف يكون إذاً ؟!(١) لقد كان بحيرة عظيمة صخابة الأمواج ارتفعت فيها المياه إلى علو مترين أى إلى باب الكعبة ، ولا تسل عن المصلين والعاكفين من العباد ، وكيف انتهى بهم الحال ، ولكن أظرف مناظر هذا السيل على الإطلاق ، هو أن سبح الناس الذين كانوا فى المسجد على وجه ذلك البحر فمنهم من قصد النجاة عن طريق الأبواب للخروج من مأزق الغرق ، ومنهم من اتجه شطر الكعبة للطواف حولها سابحاً ، ومنهم فريق ثالث التجأ إلى الله فإذا هناك دكاك خشبية أعدت قواعد لشراب ماء زمزم طاف بها السيل وعامت عليه فالتجأوا إليها وركبوها وسيروها بأرجلهم فكانت كالزوارق طافوا بها حول الكعبة طوافاً منظماً حتى إذا ما انتهوا منها تركوها بعد أن أوصلتهم إلى ساحل النجاة ، ساحل النجاة من المعاصى بالطواف حول البيت ، وساحل النجاة من الغرق بالالتجاء إلى الأبواب والخروج منها إلى اليابسة ، وكان هذا أروع مافى مناظر السيل من الطرافة وتأصل العبادة والتقوى فى النفوس ، وأروع ما استرعى الانتباه ولفت الأنظار(٢) .

---

(١) لقد اتخذ معالى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ، عقب حادث هذا السيل طريقة عاجلة لوقاية المسجد الحرام من أخطار السيول ، وذلك بأن أمر معاليه بعمل حواجز حديدية خارجية تركب خارج فتحات كل باب من أبواب المسجد عند حدوث الأمطار ، ومن خصائص هذه الحواجز أن ترد الماء المندفع من الخارج ، وتحول بينه وبين اقتحام الأبواب ، وقد نجح فعلا فى أداء مهمته وكلما أنذر الجو بمطر بادر خدم المسجد وحراسه إلى تركيب هذه الحواجز ، ورفعها بعد انتهاء خطر السيول .

(٢) على أثر هذا السيل تدفقت أريحية حضرة صاحب الجلالة بمشروع عظيم لوقاية مكة والمسجد الحرام من أخطار السيول المتدفقة ، فأمر بإنشاء سد فى أعلا مكة بالطريقة الفنية الهندسية =

وبالجملة فقـد كانت هذه الأمطار شاملة لجميع البـلاد ، وامتدت إلى جنوب المملـكة فغمرت المدن والحواضر ، وفى مقدمتها مكة وجدة والمدينة على ما بينهما من أبعاد شاسعة ، وما بينهما من بادية متعطشة إلى السقيا ، وأودية متعطشة إلى الرى ومواش تنتظر المرعى الخصيب !! ، ولقد كان النصيب الأوفر منها للعاصمة ـ مكة ـ حيث غمرتها مياه الأمطار ، ومياه السيول على النحو الذى تقدم وصفه !! ، فـكيف كانت حالة الإنقاذ فى العاصمة ؟!!

ولقـد ابتدئت حالة الإنقاذ منذ استهل الخطر ، وقد استهل الخطر بهطول المطر وهلول السيول ، فـكانت أعمال المـكافحة متـكافئة فى ابتدارها وسرعتها وقوتها بالبداهة العاجلة المتـكافئة مع سرعة الحادث وقوته وخطورته ، حتى تمت الوقاية من الأخطار بإذن الله ، وأعيـد تنظيف المسجد وتطهيره فى ساعات قليلة لا تتجاوز عدد الساعات التى نجم عنهـا ذلك الحادث الخطير المستطير ، إذ خف إلى العمل السريع جميع رجال الدولة وفى مقدمتهم معاون نائب جلالة الملك الشيـخ عبـد الله الفضل ، ووكيل وزارة المـالية الشيـخ حمد السليمان ، ومدير الأمن العام مهدى بك المصلح ، ومدير عام وزارة المـالية الشيـخ محمد سرور الصبان ، حيث قصدوا إلى مكتب مدير الأمن العام مهدى بك فى دار الحـكومة ، وقام كل منهم بنصيبه من الواجب المشترك فى تلك الحالة الرهيبة العاجلة ، وكان مهدى بك مدير الأمن العـام يبذل من ذات نفسه مجهوداً مشكوراً فى هذا الصدد جعل له اليد الطولى فى هذا العمل الجليل .

= وخصص له أكثر من مليون ريال ، وتضافرت همم المخلصين من رجال المملـكة على سرعة إقامته للانتفاع بفوائده ، وأقيم احتفال كبير لوضع الحجر الأساسى فيه بيد سمو الأمير عبد الله الفيصل نجل الأمير فيصـل شهده ألوف من الأهلين فـكان احتفالا مهيباً رائعاً يتناسب مع أهمية موضوعه أنشدت فيه الخطب والقصائد، وقد وضعت فيه رسالة جمعت كل ما قيل فى هذا الحفل تخليداً لذكرى هذا العمل الهام فى حياة هاتك المملـكة ، كما بذل الشيخ عباس قطان أمين العاصمة فى ذلك الوقت ، همة كبرى ، وسهراً متواصلا ، وجهداً عظيما فى هذا العمل .

وتضافرت الجهود الموفقة والهمم المبذولة فى مكافحة السيل وتصريفه من المسجد الحرام بهمة عاجلة متواصلة ابتغاء رضاء الله تعالى وقياما بالواجب حتى لا تتعطل الصلاة فى المسجد ، بحيث لم يمض الشطر الأكبر من سواد تلك الليلة حتى تم تطهير صحن الكعبة من أكوام الرمال وتصريف تلك المياه الغزيرة حتى استطاع الناس أداء فريضة الصبح فى وقتها بصحن الكعبة وفى الأجزاء التى تم تطهيرها من المسجد.

وقد أمر سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية بتقديم عدد وفير من السيارات الكبيرة نقلت عليها جبال الأتربة التى تركها السيل فى الحرم طيلة الثلاثة أيام التى تلت هطول ذلك المطر وما تبعه من السيول ، وظل سعادته يشرف بنفسه على عملية الإنقاذ والتطهير مدة ساعات عديدة من ذلك الليل الأليل[1] .

وهناك مروءة جديرة بالذكر ، وجديرة أن يسجلها التاريخ ، فهى صفحة ناصعة لمروءة الأهلين من كافة الطبقات ، وغرة مشرفة فى جبين النجدة الإنسانية لا يمكن إغفالها . فقد وُجِّـه النفير إلى الأهلين من أبناء المحلات والاستنجاد بهم وبمروءتهم وشهامتهم للمساهمة فى ذلك العمل الخطير السريع الذى يحتاج إلى الأيدى العاملة الكثيرة وإلى سرعة الإنجاز فى أقرب وقت ، وقد لقى النفير الأذن الصاغية ، ولبت

---

(١) سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية شخصية عاملة عرف بالجد والمثابرة على العمل ، وقد زار مصر فى العام الماضى وأقيم لسعادته حفلة تكريم فى « دارة قريش » وهى منزل الوجيه الكبير إبراهيم بك شاكر بحدايق القبة أنشد فيها كاتب هذه السطور الأبيات التالية :

روض بإنداء الأحبة عاطر	كالزهر غب المزن ، زاه ، زاهر
الشمل مجتمع به ، بمعاشر	غره الوجوه ، من الرجال عباقر
« حمد » تصدره ، وحسبك أنه	من تعلمون ، صنائع ومآثر
فى حفلة هزجت لها أنفاسنا	ورنت إليها أنفس ومحاجر
رقصت بهجتها وبهجة ربها	بين الضلوع جوانح وخواطر
هو « شاكر » بصنيعه ، وأنا الذى	باسم الأحبة فيه أيضا « شاكر »

همم المروءة فى القلوب والصدور ، نخف مئات الأشخاص من شباب المحلات عن طيبة خاطر ، وبادرت كل من أمانة العاصمة ومديرية الأوقاف العامة بأدوات الإنقاذ والتطهير من زنابيل ومساحى وما إلى ذلك ، وفى ساعات قليلة كان مئات من الأهلين يعملون ليل نهار فى تطهير المسجد الحرام حتى انتهى تطهيره تماماً فى مدة لا تتجاوز اليومين بحيث لم يتعطل فيه ولا وقت واحد من أوقات الصلات الخمس ، ومن ثم انصرفت إليهم إلى تطهير الشوارع الرئيسية الملتفة حول المسجد من هضبات الرمال والأوحال التى خلفها السيل وظلوا يعملون فى ذلك بضعة أيام وبضعة ليال حتى تم تطهير العاصمة من آثار ذلك السيل التاريخى الخطير .

وفى الحق ، أن ذلك العمل وما فيه من سداد الرأى وسلامة التفكير فى الإستنجاد بمروءة الأهلين ، كان عملا جليلا جديراً بالتسجيل لأنه أظهر سجية الشهامة وطبيعة النجدة والمروءة ، الكامنتين فى نفوس أبناء هذه الأمة ، علاوة على ما أدى إليه من أطيب النتائج من إنقاذ العاصمة والمسجد الحرام - بإذن الله - من خطر داهم خطير فادح الضرر بعيد الأثر ، وكان لذلك كله فى نفوس الشعب العربى السعودى أحسن الوقع وأنبل التقدير !!

بين يدى صاحب الجلالة

وهذه هى الكلمات والقصائد التى ألقيت بين يدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فى مخيامه العالى بروضة الخفس .

كلمة فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم .

مولاى : أرجو أن يسمح جلالتكم بهذه الكلمة المتواضعة الوجيزة عنى وعن إخوانى الوافدين الماثلين بين يدى جلالتكم فنالوا شرف الوفادة الأسمى من بلد الله الحرام إلى قصركم العامر ، بهذا البلد الطيب ، مجدد عهد السلف الصالح فى عهد الملك الصالح ، لنعرب عما تكنه قلوب أبناء الشعب على اختلاف طبقاته من الحب والإخلاص والولاء لعرش جلالتكم المفدى بالمهج والأرواح ، وتلهج ألسنة جيران البيت الحرام بالدعوات الصالحات ، وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بدوام بقاء جلالتكم فخراً للعرب والمسلمين .

مولاى : إن هذا الوفد الذى تشرف بالمثول بين يدى جلالتكم هذه البقاع الكريمة ، يسره أن ينقل إلى جلالتكم حقيقة وإن كانت معروفة للخاص والعام إلا أنه لمس فى مظهرها من فيض الشعور ما حمله على الإعراب منها وترجمتها فى هذا المقام العالى .

مولاى : إن الأمة كتلة واحدة تمثل شعور رجل واحد فى الشوق إلى اجتلاء طلعتكم الباهرة المحبوبة ، وكان هذا الشعور بمجموعه يتمنى لو أتيح له أن يكون

بذاته ماثلا أمام جلالتكم ، وذلك أقل ما يمكن أن يكون مميراً عن حقيقة شعوره في هذه المناسبة السعيدة .

فأما وأن ذلك ليس في المستطاع ، فقد شعرنا ونحن نتلقى تحايا المودعين المرفوعة إلى مقام جلالتكم ، أن قلوبهم التي في صدورهم تتهادى إلينا بخفقاتها ، وتتصل بنبضات قلوبنا فإذا بنا نحمل رسالة من قلب أمة إلى قلب مليك ، ونتهادى بخفقات ولاء شعب مخلص ، إلى عطف والد شفوق فها نحن نحاول أن ننهض بأداء هذا الواجب الخطير ، وهو واجب لا يمكن أداؤه إلا إذا توج من لدن جلالتكم بجميل العطف وحسن القبول .

مولاي : إننا مع عجزنا عن دقة التعبير في تصوير حقيقة ما لمسناه من شعور الأمة في هذه المناسبة السعيدة ، فإننا نستنير بما أودعه الله في قلب جلالتكم من نور الإيمان ونتخذ منه نبراساً نستهدي به إلى حسن الأداء فنقول في إيجاز جامع إن الأمة بأجمعها تشعر بشعور واحـــد ، هو أنها تدين لله سبحانه وتعالى بالتوحيد والعبادة وتدين لجلالتكم بالولاء والإخلاص وأن الأمة التي تشعر هذا الشعور نحو ذات جلالتكم، يسرها أن تسجل شعورها أيضاً نحو هذا الجزء من وطنها العربي الكريم ، وهو الجزء الذي أنجب للإسلام والعروبة أسرة آل سعود الكريمة ، وعلى رأسها جلالتكم فكتب لها على أيديكم النهوض والتقدم في عصركم الزاهر ، فإذا بها تضارع غيرها من الأمم الأخرى في مدارج الفلاح .

ونسأل الله تعالى أن يمد في حياة جلالتكم حياة طيبة يعز بها الإسلام والمسلمين ويعلي بها شأن العرب والعروبة وعلى الأخص رعاياكم جيران بيت الله الحرام وجميع سكان هذه المملكة وأن يبقي حضرات أصحاب السمو الملكي أنجال جلالتكم الأمراء الغر الميامين محروسين بعناية الله تعالى ورعايته تحت ظل جلالتكم .

قصيدة الأستاذ السيد عبيد مدنى شاعر المدينة وعضو مجلس الشورى

بدت (المعالم) من شفير الوادى ... فاستوفز (الركب) الشعاع البادى
حيث الجلالة فى أجل صفاتها ... موصولة الأسناد بالأسناد
حيث الحمية والبطولة والقوى ... محفوفة بكماتها الآساد
حيث التقى والدين فى أوجيهما ... ومناهل التقويم والإرشاد
حيث العروبة مشمخر مجدها ... فى طارف من عزها وتلاد
حيث الفصاحة فى روائع سبكها ... متصور فيها جمال الضاد
حيث السماحة والطلاقة والندى ... ومراتع الأزوار والرواد
بل حيث (عاهل يعرب) وإمامها ... ورئيسها فى الأمن والارعاد
(عبدالعزيز) ومن إذا ذكر اسمه ... قام الجميع له ودوّى النادى
(ملك) يرى فيه الملوك صحيفة ... يستلهمون بها الصواب الهادى
يترسمون خطاه فى أحكامهم ... فتكون مصدر حكمة ورشاد
قبس يشع الهدى من جنباته ... فيشيع نور الحق للآباد

***

مولاى أنا (وفد) من خلفتهم ... يشكون شجو تشوق وبعاد
أنهلتهم بالقرب منك هنيهة ... والآن كلهم ببعدك صاد
ودوا لو اسطاعوا المثول جميعهم ... ليسكّنوا بك لوعة الأكباد
ما كنت فيهم غير أحنى والد ... حدب وكانوا خيرة الأولاد

وملأت بالإكبار كل نفوسهم — وعمرت بالإخلاص كل فؤاد
والعرش ما ترسو قواعده على — أسس الجوانح لا على الأعواد

* * *

لولا تصبرهم بطلعة (فيصل) — نفدت جلادتهم وأى نفاد
هو مثل ما أملته وعهدته — من رأفة وعدالة وسداد

* * *

إنا نبثك ما تكن صدورهم — من صدق تضحية وعمق وداد
هذى رسالة أمة أنشأتها — فتظللت بلوائك المتهادى
علمتها معنى الحياة فحطمت — بقواك كل عوائق الأصفاد
علقت بعرشك والأمانى جمة — فاسترسلت لطاحها المتمادى

* * *

مولاى قد هز الشعوب ودكها — هول ألم ففت فى الأعضاد
فتكت بها الحرب الضروس وزلزلت — أركانها وأنت على الأطواد
صرع الرجال وغادروا أعراضهم — يلجأن للأغوار والأنجاد
وتشرد الأطفال فى أنحائها — يتسكعون على طوى وقتاد
أما بلادك فهى ترفل غبطة — فى الأمن والنعماء والاسعاد
أما بلادك فهى ـ فى استقرارها — بالراية الخضراء ـ خير بلاد
جنبتها الأحداث حتى أصبحت — رمز الهدوء وصورة الاخلاد
لم تقتنع إن صنتها ورعيتها — وحكمتها فى منعة وحياد
حتى أفضت لها الهناءة شاملا — بالعطف كل ثنية ومهاد

ووسمتها بالصالحات وبالحجى　　وحبوتها بالأمن والإرفاد
هذا سبيل الملك إلا أنه　　وعر لغيرك ـ بالغ الأبعاد
هل كل من قاد الشعوب محقق　　ما نشرئب له من الأمجاد

* * *

لا أسأل الله الكريم لأمتى　　إلا بقاءك فهو خير مراد

قصيدة المؤلف

مولاى خذ صدق الولاء　　رمز المحبة والوفاء
من أمة قد أخلصت　　لك فى الملان وفى الخفاء
قد أعلنت بلسان شا　　عرها أهازيج الثناء
وتمثلت فى وفدها　　لمقام عرشك بالولاء
فكأنها بلقائه　　إياك فازت باللقاء
كانت تود لو أنها　　تجتاز أجواز الفضاء
شوقاً لرؤيتك التى　　تسمو فتبهج كل راء
حتى تؤدى بعض ما　　فى نفسها حق الاداء
فاقبل فداء قلوبها　　فيما تكن من الفداء
واقبل تحيتها على　　ما فى البعاد من التنائى
واقبل تحيتها تكن　　أعطيتها منح الهناء

* * *

مولاى كم لك من يد　　فى الحادثات بلا مراء
جاءت كصبح العيد أو　　جاءت كمنهل السماء
فكأنها وضح السناء　　يلوح فى وضح الضياء
كم منة لك أينعت　　أو كم يد لك فى رواء
واست بجدواها الفقير　　فراح يلهج بالدعاء
وتواترت بالخير فى　　صبح عليه وفى مساء
فإذا العناء يزول عنه　　وليس ثمة من عناء
عمت فأبناء الحواضر　　مثل أبناء العراء
نالوا جداك جميعهم　　فهموا على حد سواء
فجزاك ربك عنهم　　بصنيعه خير الجزاء

* * *

مولاى تلك تحية　　جاءت تميس من الحياء
جاءت لنجد رسالة　　من بطن مكة بالأخاء
فهناك أبناء العمو　　مة فى المودة والرجاء
وهناك شعب شيق　　يزجى أفانين الثناء
مزجت سريرته معا　　نى الود فى معنى الصفاء
من كل قلب فى مودّ　　دته يشع من السناء
أو كل روح فاض جد　　ولها بينبوع الرواء
جادت تحيته بألوا　　ن المودة والبهاء
كالروض فاح عبيره　　متضوعا عبر الفضاء

* * *

يا باعثاً عصر النبوة   في العـدالة والإخاء
ومؤيداً سنن الشريعة   في العيان وفي الخفاء
أمَّن الله بيته   بك فهو محميّ اللواء
وأعاد عهـد الراشد   ين بمـا لعهدك من بهاء
فليبق عرشـك للعرو   بة رمز مجـد واعتلاء
وليبق ملـكك خالداً   في العرب مرفوع البناء
وليبق أشـبال العر   ين بنوك في رغد الهناء
فيهم سـعود المشرقين   وفيصل الحق المضـاء
متفيئين ظلال عر   شك في الأبوة والرضاء

كلمة وفد مكة بعد عودته

وبعدعودة الوفد إلى مكة نشر في صحف العاصمة الـكلمة الآتية ــ :

نحمد الله ونثني عليه ، ونصلي ونسلم على سيد خلقه أجمعين. إن من أعظم ما نغبط أنفسنا عليه ، وما تغبط عليه الأمة ، هو ما نالته وفودها الممثلة لها من مجد باذخ وشرف أثيل بحظوة المثول بين يدي حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أيده الله ، وما حظيت به من عطف جلالته وإكرامه ورعايته ، وهو شرف موجه إلى الأمة بذاتها علاوة على ما وجهه إليها جلالته من الإعراب من عطفه وحنانه .

لقد تفضل جلالته حفظه الله فطوق أعناق هـذه الأمة بمنة جديدة مضافة إلى سابق مننه التي لا تحصى ، وذلك بما أسبغه على وفودها من الإكرام والعطف

وجميل الرعاية ، ولقد قابل الجميع هذه المنة الجديدة بالشكر الجزيل لمقامه العالى والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يطيل فى عمر جلالته وأن يمتعه بنعمة العافية ودوام الصحة والهناء[١].

أيها الإخوان: إنا نزف لحضراتكم قليلا من كثير مما تفضل به جلالته من تصريحات قيمة عن نواياه الكريمة الموفقة نحو شعبه المتفانى فى الإخلاص والولاء وعن عطفه السامى المتواصل ، وأياديه البيضاء المتصلة ودوام إحسانه على هذه الأمة ، مما أطلق الألسنة بمزيد الثناء وجليل الدعاء ، أدام الله جلالته وخلد ملكه ونفع به الإسلام والمسلمين ، آمين .

---

(١) فاتنا أن نذكر فى الكلام عن الرياض، أن فى الرياض مؤسسة كاملة للأشعة للكشف والعلاج تسمى « دار الأشعة » كان صاحب الجلالة أمر بتأسيسها فنهض الدكتور محمد بك الخاشقجى بعبء هذا العمل الجليل بعد أن تخصص فى هذا الفن فى باريس مدة ثلاث سنوات بأمر صاحب الجلالة، وهى فى آلاتها وأدواتها كمؤسسة الأشعة بمكة التى يديرها فى الوقت الحاضر مفتش الصحة العام الدكتور محمد بك الخاشقجى .

تقرير فنى
عن مشروع الزراعة فى الخرج

وهو خلاصة ما كتبته البعثة العراقية التى استقدمتها الحكومة فى عام ١٣٥٤هـ — ١٩٣٧ م. عن مشروع الزراعة والرى فى هذه المنطقة.

مقاطعة الخرج : إن مقاطعة الخرج من أشهر إيالات نجد تقع فى الجنوب الشرقى من مقاطعة العارض فى وادى حنيفة يتوسطها ملتقى خطى ٢٤° من العرض الشمالى و ٤٧° من الطول الشرقى ويبلغ طول المنطقة المسكونة منهـا من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠ ميلا ومن الغرب إلى الشرق نحو ٥٠ ميلا وأما بعـدها من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية فالمسافة بين حـــدها الشمالى والرياض تبلغ حوالى اﻟ ٧٥ كيلومتراً.

أشهر بلدان الخرج الدلم وهى المدينة الرئيسية للمقاطعة وأراضيها خصبة وعامرة بنخيلها وزراعة الحبوب تسقى من آبار عمقها يتراوح بين اﻟ ٣٥ واﻟ ٥٠ قدما ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس يشتغلون بالزراعة.

وهناك بلدان أخرى صغيرة يختلف عدد سكانها بنسبة كميات الميـاه ومساحات الأراضى الصالحة للزرع وسعة بساتين النخيل فيهـا وأهم ما يجدر ذكره من هـذه القرى هو السلمية واليمامة ونعجان والمناصف والضبعية والبدع وفرزان ... الخ.

وما هذه البلدان والقرى إلا سلسلة واحات منفصلة عن بعضها البعض فيها بساتين النخيل والأشجار ويقوم سكانها بزراعة ما يجاور هذه البساتين من الأراضى الصالحة

للزراعة على قدر ما تسمح به كميات مياه الآبار والقابلية المالية لاستثمارها بواسطة الآلات الزراعية الرافعة والحيوانات .

وفى بعض الأماكن تعلو المياه سطح الأرض وهناك تتكون السواقى السيحية فتروى القليل من أراضى المزارع والنخيل الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من الينابيع ومثال ذلك الساقية التى تروى بساتين ومزارع فرزان .

منطقة الخرج ووديانها : إن من يطلع على طوبوغرافية منطقة الخرج يتضح لديه أن المنطقة ما هى إلا منطقة ملتقى الأودية فتتجمع فيهـا السيول وتترك فى أراضيها الترسبات الغرينية ممـا يجعل أراضيها المنبسطة الحوضية غنية فى الدهلة التى تزيد فى خصوبتها وقابلية استثمارها لغرض الزراعة .

أما الوديان التى قلت إن هذه المنطقة هى منطقة تلاقيها فمن أهمها الوادى المعروف بوادى سير الذى ينحدر من سفوح جبل (علام) الواقع على خطى ٤٤° من الطول الشرقى و ٢٤° من العرض الشمالى .

يمر هذا الوادى بين نفود (قنيفنذة) ونفود (داهى) فيمتد شرقاً على حد جنوب جبل برك ويسمى فى هذه المنطقة وادى برك أو شعيب البرك الذى يقع مجراه بين حد جنوب الخرج وحد شمال الأفلاج ثم ينثنى باتجاه منطقة الخرج طولا إلى الشمال محاذيا المناطق الجبلية تاركا جبل طويق إلى الغرب فيسمى فى هذا الاتجاه شعيب عجيمى وهو الشعب الذى تقع عليه سلسلة واحات الدلم .

وأما شعيب العجيمى فتصب فيه فروع عديدة وهى الفروع التى تنحدر من المنطقة الجبلية غرب الخرج ومن أهم هذه الفروع شعيب العين وشعيب النسا اللذان يصبان فى شعيب عجيمى شمال الدلم وبعـد ملتقى شعيب العجيمى بشعيب النسا يستمر الأول بمجراه منتقلا إلى الجهة الشرقية حيث يمر ببلدة اليمامة وبمسافة بضعة كيلومترات شرق اليمامة يلتقى مجراه بمجرى وادى حنيفة ومن ثم ينتهى مجرى الواديين بوادى

السهبى الكبير الذى ينحدر مجراه شرق الخرج باتجاه الخليج الفارسى فيصب فى الخليج جنوب سواحل القطر .

وقال المستر فيلبى عن وادى السهبى المذكور بأنه أحد الأنهر الكبيرة المندرسة فى البلاد العربية القديمة ويبلغ مجموع طوله ما ينيف على الخمسمائة ميل من صدره فى سفوح جبل (علام) إلى مصبه فى الخليج الفارسى .

وكان المستر فيلبى قد قطع هذا الوادى فى رحلته إلى الربع الخالى بالقرب من رمال الجافورة فى مجراه المنحدر شرقا نحو الخليج الفارسى على بعد حوالى الا ١٢٠ ميلا من مصبه فى الخليج وقد سجل مستوى قعر مجراه فى هذا الموقع بحوالى ٥١٠ أقدام فوق سطح البحر كما أنه قد قدر عرضه بمسافة ميل واحد وارتفاع ضفافه بما ينيف على العشرين قدماً .

هذا ولما كان مستوى أراضى الأودية المنبسطة بالقرب من مناصف يبلغ حوالى الا ١٢٧٣ قدماً والمسافة بين مجرى الوادى فى مناصف وقاع المجرى الذى سجل مستواه قرب رمال الجافوزة هو حوالى الا ٣٥٠ كيلومتراً فيصبح بذلك فرق الارتفاع للمسافة المذكورة حوالى ٧٦٣ قدماً أو ٢٣٢,٥٠ متراً مما يجعل إمكان اعتبار انحدار قعر الوادى حوالى الا ١ ـ ١٥٠٠ .

<u>وادى حنيفة</u> : ولا بد من كلمة عن وادى حنيفة الذى سبق ذكره والذى قلنا عنه أنه يلتقى مع شعيب المجيمى فى منطقة الخرج : إنه لواد تاريخى مشهور يبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية الشمالية فيشق مجراه قلب العارض ثم يلتقى بشعيب المجيمى شمال شرق اليمامة فيكون الاثنان مع فروعهما وادى السهبى الكبير المار الذكر .

وعدا ما لهذا الوادى من ميزات الخصوبة بنتيجة حفظ الماء فى باطن مجراه حيث

حيث يمكن الوصول إليـه بحفر آبار قليلة العمق فإنه يعتبر أثراً تاريخياً نظراً لأهميته من الناحية التاريخيـة فهو الذى تقع عليه الدرعية عاصمة نجد القديمة والعيينة مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب وفيه قبور الصحابة وديرة مسيلمة الـكذاب الذى قتل فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ للهجرة .

أراضى الخرج وزراعتها : إن كافة الظواهر تشير بصورة قاطعة إلى أن مقاطعة الخرج مقاطعة خصبة بمياهها وأراضيها بالنظر لتوفر الميـاه فى أراضيها المنبسطة التى تمدها الوديان بالمياه الأرضية ، والرواسب الغرينية فى آن واحد فبين الأودية والمنحدرات توجد مناطق خصبة بمياهها وأراضيها عامرة بالسكان فتـكون سلسلة من الواحات أو (الروضات) كما تسمى محليا منفصلة عن بعضها .

وفضلا عن وجود العمران بين المنحدرات والوديان فهناك آثار تدل على أن زراعة أراضى الخرج كانت فى الأزمنة الغابرة على مقياس واسع ، فهذه الآبارالمطمورة الـكثيرة ، وهذه آثار الأنهر القديمة المندرسة منها سيحية ومنها عميقة يستدل منها على وجود عمران قديم واسع .

ويظهر أن الحبوب كانت تزرع بمساحات كبيرة ، إذ جاء فى معجم البلدان لياقوت (بأن وادى الخرج هو من خير واد باليمامة[1] أرضه أرض زرع ونخل قليل) والدارج محلياً بأن نعت هذه المنطقة بالخرج جاء بسبب ما كانت تثمره من المؤن وتخرجه إلى الحرمين .

وهناك دليل آخر على أن المزارع السيحية كانت واسعة فى هـذه المنطقة وأعنى بذلك ورود تسمية الأفلاج للمنطقة التى تقع جنوب الخرج ، ولا يخفى بأن كل مايجرى

---

(١) اليمامة كانت قديما تطلق على منطقة واسعة ومابلد اليمامة الحالية إلا قسم صغير منها، وقد كتب المؤرخون عن اليمامة بأنها كانت أحسن بلاد الله أرضا وأكثرها خيرا وشجراً ونخلا .

سيحا من عين فهو فلج ، وكل جدول شق من عين على وجه الأرض فهو فلج وجمع الفلج أفلاج .

وأما أسباب اضمحلال هذه المنطقة واندراس آبارها فهو أمر بديهى لا يستوجب الاستغراب ، فإذا راجعنا تاريخ الحروب والشقاق بين القبائل العربية والأمراء نجد كثيراً من مثل هذه الوقائع ، كطمر العيون وتدميرها نكاية وانتقاما لكى لا يشرب أو يستفيد منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزة المحتل ، ومثال ذلك ما قام به عبد الملك بن مروان الأموى حين تمرد أهل البحرين على خلفاء بنى أمية إذ أمر بردم كافة عيون البحرين ليقل زرعهم وأموالهم فيستولى عليهم الفقر ويخضعون ، ويقال إن خمسمائة إلى ستمائة عين كانت قد طمرت فى مقاطعة الخرج ، ولا بد أن يكون فى هذا القول شىء من الصحة رغم ماينطوى عليه من بعض المبالغة لأن آثار العيون لاتزال ظاهرة للعيان بما فيها آثار الأنهر والسواقى .

أراضى الخرج ومجارى مياهها : لا يوجد فى بلاد نجد أنهار يصح أن يطلق عليها هذا الاسم وإنما يوجد فى جهات كثيرة من البلاد ينابيع وعيون فى مناطق الأودية حيث تمتص منبسطات الأراضى ومياه السيول الأمطار فتصبح هذه المناطق شبه بحيرات خفية يمكن الوصول إلى مائها بحفر آبار لأعماق مختلفة حسب اختلاف الموقع والتربة .

وأما اتجاه مجارى المياه فى بلاد نجد فيصح القول بصورة عامة أن مجارى المياه الأرضية والخارجية هى تتجه نحو الشرق ، وبالنظر لامتداد سلسلة جبل طويق فى طول البلاد النجدية من الشمال إلى الجنوب فيصح القول بأن المياه تنحدر من سلسلة هذا الجبل سواء كانت سيولاً أم مياهاً أرضية خفية باتجاه الشرق فالأودية الشمالية منها تنحدر نحو الخليج الفارسى بينما الأودية الأخرى تنتهى فى رمال الدهناء أو رمال الربع الخالى جنوبا .

وعليه فإن أخصب الأراضى بالمياه والتربة هى الأراضى الواقعة على أطراف الجهة الشرقية من سلسلة جبـل طويق تمتد من القصيم فى الشمال إلى وادى الدواسر فى الجنوب وفى ضمنها أراضى الخرج فنجد على أطراف السلسلة المذكورة واحات متشابهة فى التشكيل قرب بلاد مجدبة رملية أو جبلية وهذه تؤلف معظم الأراضى الزراعيـة التى عليها مدار اعتماد أهل البلاد وزراعتهم وأما ارتفاع أطراف المرتفعات عن سطح البقاع فقد قدرت بحوالى ال ٦٠٠ إلى ٧٠٠ قدما .

وتمتد هـذه الجبال من الشمال إلى الجنوب وتمتد من هـذه الجبال نفسها أودية متوازية يأتى أحدها بعد الآخر ، وهذه الأودية بدورها تنحدر فى الاتجاه الشرقى ، وأهم هذه الأودية وادى حنيفة ، ووادى السهبى اللذين مر الحديث عنهما ، ومجموعة أودية الافلاج ووادى الدواسر ووادى نجران .

وقد جاء فى تأليف المستر فلبي عن رحلته للربع الخالى ذكر هـذه الأودية التى يظن أنها كانت مجار لأنهار قديمة فى بلاد نجد فاستطرد قائلا : وإن صح هذا فان الفيافى الجافة المقفرة الآن كانت حوالى سـنة ٥٠٠٠ ق . م مراعى خصبة ترتادها مواشى الإنسان الأول الذى لاشك أنه كان يعيش على صيـد الغزلان والأيائل والنعام وقام بوضع أساس صناعة تربية الجمال وإنتاجها .

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مياه نجد التى تنحدر من المرتفعات المارة الذكر تؤلف مجرى أرضياً بنتيجة امتصاص أديم الأرض لمياه الأمطار والسيول ويمتد هذا المجرى إلى الجهات الشرقية فيصل الإحساء حيث يكون الينابيع الارتوازية الشهيرة فى هذا القطر ومن العجائب أن هـذه المياه الأرضية تجتاز الدهناء والنفود ، ثم تعبر البحر مابين ساحل الإحساء وساحل البحرين أى تحت قعر البحر فتظهر فى البحرين بشـكل آبار ارتوازية ومما يستلفت النظر أن بعض العيون تنبثق من قعر البحر فينبع منها ماء عذب تحت المياه المالحة ومنها ما هى قريبـة من السواحل تفور من القعر على

الدوام يستقى منها مياه الشرب من تحت المياه المالحة .

ويعلم المحليون بأن هـذه المياه العذبة تنحدر من مرتفعات البلاد النجدية بدليل ما يظهر فى بعض الأحيان من أثر روث الإبل وبعر الأغنام فى المياه التى تنبثق من الينابيع المذكورة غير مستبعد جيولوجيا فإذا وجدت ميـاه الأمطار والسيول أرضاً رخوة حصوية أو كلسية فقد تمتص الأرض مع المياه بعض آثار الرواسب السطحية ، وليس ببعيد أن تجد هـــذه المياه الأرضية مجرى خفياً فى تجاويف بعض الأراضى المكونة من كربونات الكلس فتحمل معها بعض هذه الرواسب .

وقد قال المستر هوغارث بهذا الصدد لاشك أن قسماً من هـذه المياه (أى مياه العارض واليمامة) ترشح تحت مايعترضها من ظهور الجبـال فتجرى خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسق واحات الحسا والقطيف ، وتتكوّن منها الينابيع العذبة فى مياه البحرين[١] .

عيون الخرج الحالية : قلنا إن منطقة الخرج غنيـــة فى عيونها ومياهها نظراً لكونها منطقة ملتقى الأودية وعليـه فان عدد آبارها الحالية ليس بقليل رغم ماطمر من الأبار الكثيرة التى لاتزال آثارها وآثار أنهارها ظاهرة فى الوقت الحاضر ، وأما عمق الأبار فى منطقة الخرج فيتراوح بين الخمسة والثمانية أمتار حسب اختلاف الموقع والتربة .

ولحسن الحظ إن منطقة الخرج فيهـا من العيون الغزيرة ما جعل طمرها أمراً متعذراً وكل ما استطاعت يد الإنسان عمله مع مرور الزمن هو ردم العمران الذى كان قد ازدهر بوجود مياه هذه العيون فقط .

وإن هذه العيون لهى من العجائب ، فهى أشبه ببحيرات صغيرة من أن تكون

---

(١) فى كتابه « التوغل فى البلاد العربية » ص ٣٤٢

عيوناً نظراً لمساحتها المائية وغورها الهائل ويوجد فى منطقة الخرج أربع من هـذه البحيرات ثلاث منها تقع شرق شعيب العجيمى فى جنوب اليمامة والرابعة تقع شرق شعيب العجيمى فى جنوب الدلم .

أما الثلاث عيون الأولى وهى مدار الاعتماد فى الوقت الحاضر لإحداث مشروع رى عليها فتسمى محلياً كما يلى .

ا — عين الضلع أو عين العبيد .

ب — عين سمحة .

ج — عين أم خيسة .

تقع عين الضلع جنوب اليمامة وشمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجيمى على قدم سفح التلول التى تمتد بمحاذاة شعيب العجيمى فى الجهة الشرقية منه ، وقد سميت بعين الضلع بالنظر لوقوعها على كتف التل ، ويطلق عليها اسم عين العبيد لسبب استغلالها فيما مضى من قبل العبيد .

وتقع عين سمحة شمال عين الضلع بانحراف قليل نحو الغرب على مسافة ٢٤٠ متراً من عين الضلع ، وقد سميت هـذه العين بعين سمحة لسبب سهولة سحب المياه منهـا بواسطة السيح حسب أقوال المحليين وليس ثمة مايشجع على نقض هذه الأقوال لأن آثار الأنهر القديمة تدل على أن صدور نهر السيح الـكبيرة كانت على هذه العين كما سيأتى البحث عن ذلك فيما بعد .

وأما عين أم خيسة فتقع فى جنوب غرب عين الضلع بمسافة ١٢٢٠ متراً من عين الضلع و١٥٦٠ متراً من عين سمحة ، وقد سميت بهذه التسمية لسبب تميزها عن أخواتها فيما مضى بوجود نخلة على ضفافها والخيسة فى نجد اصطلاح محلى لصغير النخل .

وعليه فإن موقع هـــذه العيون الثلاث يشكل شبه مثلث قاعدته عينا أم ضلع وسمحة بمسافة ٢٤٠ متراً كما جاء أعلاه وضلعا المثلث يكونان الزاوية التى تقع عليهـا عين أم خيسة وطول الضعلين للمثلث المذكور هى ١٣٢٠ و ١٤٦٠ متراً .

وأما المساحة المائيـة لهذه العيون الثلاث فهى متساوية تقريباً وتقدر مساحة سطح الماء فى كل منهـا بحوالى الـ ٤٠٠٠ متر مربع وذلك باعتبار معدل ٨٠ متراً طولا و ٥٠ متراً عرضاً تقريباً ، وعليه فهى بيضوية الشـكل وأغرب ما بهذه العيون أغوارها فأعماق الماء فيها متساوية تقريباً وتبلغ حوالى الـ ٣٦ قدماً ، وإن هذا العمق متساو تقريباً سواء كان على قرب من الضفاف أو فى وسط العين .

عوامل تـكوين هذه العيون : ومما لاشك فيـه أن هذه العيون هى قديمة العهد تـكوّنت بنتيجة عوامل جيولوجية عديدة ومختلفة ، إن المعروف فناً بأن أهم العوامل الجيولوجية التى تحدث تغييرات أرضية هامة هى أولاً خواص التربة التى تعمل فيها العوامل الجيولوجية ، فمثلا وقوع هــذه العيون وسط طبقات كاسية ملحية يشجع على إحداث تفاعل كيمائى ينتج انحلالا وذوبانا فى التربة مما قد يسبب حصول انشقاق أو انخساف أرضى ، وبالأصح انزلاقاً فى كتل الطبقات الأرضية أو زلات صخرية كما يسمى جيولوجيا .

وهناك عوامل جيولوجية أخرى تؤثر فى الأراضى التى من هذا النوع كالزلازل أو الهزات الأرضية أو مفعولات البراكين .

هــذا وتوجد الآن آثار براكين ومواضع كثيرة تدل على بقايا الاندفاعات والسوائل النارية فى الأزمنة القديمة ، وإن هــذه المقذوفات البركانية تركت الحجارة السوداء المؤلفة من السائل البركانى المتجمد ، والتى نشاهدها فى كثير من المواقع فى المملـكة العربية السعودية .

والدارج محلياً بأن هذه العيون حدثت بنتيجة مهوى النجوم .

وفضلاً عن ذلك فإن مناخ نجد الذى نجد فيه الاختلافات العظيمة بين درجتى الحرارة العظمى والدنيا قد يساعد على إحداث انفلاق فى الصخور وقد روى السواح والمنقبون عن كثير من مثل هـذه الحوادث العجيبة سواء كان فى البلاد الباردة أو الحارة وذلك بسبب حدوث الامتداد والتقلص فى طبقات الصخور . لأن تأثير شدة الحر على الصخور يحدث امتداداً وتوسعاً فيها ، ثم البرد يسبب تقلصها وتضييقها . وعليه كثيراً ما ينتج الاختلاف فى درجة الحرارة انفلاقات وانشقاقات داخلية تترك الهوات والفجوات هذا وقد شاهدنا فى خلال مدة مكوثنا فى الخرج بأن الفرق بين درجة الحرارة العظمى والدنيا هناك فى شهر حزيران ١٩٣٩ ما يقارب الـ ٣٠ درجة سنتغراد خلال الأربع والعشرين ساعة .

وهـذه الظواهر والعوامل المهدمة التى تحدث هذه الانشقاقات الهائلة فى جوف الأراضى هى فى الحقيقة مشتبكة مع بعضها ويتعذر فصلها أو اعتبار تأثير الواحد منها بصورة مستقلة وعليه فلا يستطيع المرء أن ينسب سبب حدوث التأثير إلى أحد هذه العوامل الجيولوجية وحده ، وإنمـا قد يصح القول بأنها قد قامت بمفعولها بصورة مشتركة خلال العصور الماضية لأحداث هـذه المزالق الأرضية والانشقاقات الداخلية الهائلة التى أوجدت هذه العيون الطبيعية التاريخية .

وخير مثال لتأثير هـذه العوامل الجيولوجية فى طبقات الصخور الـكلسية هو مانجده من الانفلاقات الأرضية الداخليـة فى مواقع كثيرة من نجد حيث نشاهد انخسافات فى طبقات الأرض لأعماق كثيرة ثم يمتد التجويف من قعر الفوهة لمسافة بضعة أمتار تحت طبقات الأرض فيكون شبه نفق تتجمع فى منتهاه مياه الأمطار أو الينابيع فيزحف المرء على طول هذا النفق للوصول إلى منبع المـاء فى منتهاه وإملاء أجواء الماء منه لمثل هذا التجويف فى وسط الصحراء إذ يقع هـــذا الـكهف على مسافة ٢٠٠ كيلو متراً من الـكويت ويسمى الدحل ومعناه فى العربية النقب الضيق فى أعلاه والواسع فى الأسفل .

مستوى مياه هذه العيون

وتأثيره فى إنشاء مشاريع الرى

ولما كان المطلوب كأول عمل فنى يقام فى منطقة الخرج استثمار مياه هذه العيون الثلاث وإنشاء مشروع رى منتظم سواء كان سيحا أو بواسطة الضخ يستوجب قبل كل شيء معرفة كميات مياه العيون المذكورة ومدى قابلية انبثاقها فى مختلف المواسم إذا ما سحب منها الماء بكميات وفيرة فقد أجرى التحرى قبل كل شيء عن مستوى مياه العيون المذكورة بالنسبة لبعضها للتأكد من درجة ارتباطها مع بعضها فيما يخص مجرى الماء الأرضى .

ولتحقيق هـذا الغرض أنشىء راقم تسوية ثابت بالقرب من ضفة عين الضلع ليكون هذا الراقم أساساً لأعمال التسوية بصورة عامة والمرجع لكافة أعمال المساحة فى المستقبل .

وقد دلت نتائج التسوية لمستوى مياه العيون الثلاث بالنسبة لقيمة الراقم المنوه به أعلاه ما يلى :

سنتمتر	متر	
١٧٠	٩١	مستوى ماء عين أم خيسة مأخوذ بتاريخ ٤ حزيران ١٩٣٩
٥٢	٩١	« « « « الضلع « « « « «
٩٧٣	٩٠	« « « « سمحة « « « « «

ويستدل من ذلك أن عين أم خيسة الواقعة فى جنوب غربى عين الضلع يرتفع ماؤها عن عين الضلع بـ ١١٨/٠٠ متراً ومستوى ماء عين الضلع يعلو عن سطح الماء فى عين سمحة الواقعة شمال عين الضلع بـ ٠٧٩/٠٠ متراً وعليه فمجموع الفرق بين مستوى ماء عين أم خيسة وعين سمحة هو ٠١٧/٠٠ متر وذلك مما يدل على أن مجرى

المـاء الأرضى الداخلى هو باتجاه الشمال أى باتجاه مجرى شعيب العجيمى الواقع غرب العيون الثلاث كما سبق ذكره .

أما حول ثبات أو تغير مياه هـذه العيون الثلاث ، فالمعلومات المحلية متناقضة وعليه فلا يعول عليها . إن أكثرية المحليين يرون أن مستواها الحالى حسب المناسيب المبينة أعلاه لم يتغير قطعياً غير أن الدلائل على ظهر الصخور التى تحد أطراف المـاء ترينا خلاف ذلك إذ توجد آثار تغير بسيط فى مستوى المـاء ، وعليه إنى أميل إلى الاعتقاد بأن سحب المياه بكميات وافرة من هـذه العيون لمشاريع رى كبيرة سوف يحدث هبوطا فى مستوى الماء وربما تأثيراً على مناسيب ماء العيون الثلاث بأجمعها إذا ما سحب المـاء من إحداها لأن ثمة دلائل على اتصال ميـاه العيون الثلاث بواسطة مجارى المياه الأرضية على أن درجة هذا الهبوط ليس فى الإمكان تقديره بصورة مضبوطة إلا بعـد سحب المياه بكمياة وافرة وإنشاء مقاييس على العيون الثلاث لتسجيل حركة ميـاه العيون الثلاث بالنسبة لـكميات المياه المسحوبة وفى مختلف المواسم للسنة .

والدليل الواضح لتوقع انخفاض عام فى مستوى المياه بعد سحب الميـاه بكميات وافرة من إحدى العيون هو مانشاهده من الآثار فى طريقـة إنشاء مشاريع الرى القديمة إذ كان الأقدمون قد حصروا مشاريعهم الـكبيرة على العين الشمالية وهى عين سمحة فصدور الأنهر القديمة السيحية وغير السيحية .

والمقترح أن يكون مجموع قوة المضخات حوالى الـ ١٠٠ حصان فى الوقت الحاضر ، والمرجح أن تستعمل مضختان قوة الواحدة ٥٠ حصانا وذلك لتسهيل نقلها إلى الموقع ونصبها فيه .

وإذا اعتبرنا مجموع العمق سبعة أمتار كما جاء أعلاه ، فالمساحة الممكن أرواؤها من المزروعات الشتوية بواسطة هذه القوة تقدر بحوالى الـ ٢٥٠٠ مشارة وهذه المساحة مع مساحة مقابلة للنير الثانى متوفرة فى هـــذا السهل الواسع الذى يمتد شمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجمى .

حوادث وأرقام

فى تاريخ جلالة الملك عبد العزيز

لم نستطع أن نفرد بحثاً خاصاً فى فصول هـذا الـكتاب ، للتحدث عن شخصية حضرة صاحب الجلالة الملك عبـد العزيز آل سعود من الناحية التاريخيـة ، سوى ما استطعنا أن نورده من المعلومات التى تمت بصلة إلى موضوع هذه الرحلة . ذلك بأن جلالة الملك عبدالعزيز هو العربى الأول وأن سيرة جلالته[1] بما فيها من ماض حفيل، وما فى ماضيها من تاريخ مفعم بالمجادة والبطولة ، لايمكن أن يتسع له نطاق كتاب كهذا محدود الصفحات ، تحدّ دفتيه غلافة مهما انفرجت سطورها فلا يمكن أن تلم بطرف من موضوعه ، فـكيف بفصول أقل حدوداً وأضيق نطاقاً ؟! . ذلك موضوع صال فيه الـكرام الـكاتبون، وجالت فيه أسنة أقلام لم تُجمع فيما عُرف من قبل، إجماعها على ماهى بسبيله من سيرة ذلك الملك العظيم . ولقد كان من حسن حظ هذا الـكتاب ويمن طالعه ، أن شهد طبعه ، واشترك فى مراجعة بعض مواضيعه مواطن كريم هو سعادة الشيخ عبد العزيز بن فوزان أحد رجال حاشية صاحب الجلالة . وقد أبت نزعته إلى الـكمال إلا أن يضع لبنة نفيسة فى صرح هذا المؤلَّف فتحدث إليناعن

---

(١) من أبلغ ما وصف به العرب قول لسان الدين الخطيب :

«العرب لم تفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخر يرفع ، ولا قصر يبنى ، ولا غرس يجنى ؛ إنما فخرها عدو يغلب ، وثناء يجلب ، وإبل تنحر ، وحديث يذكر ، وجود على الفاقة ، وسماحـة بحسب الطاقة .

«فلقد ذهب الذهب ، وفنى النشب، وتمزقت الأثواب ، وهلـكت الخيل العراب ، وكل الذى فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراض تجلى وتصقل» .

شخصية صاحب الجلالة بالمعلومات الطريفة الآتية ، قال :

« إن مولاى صاحب الجلالة الملك الذى أسس ملكه على قواعد من التوحيد والتقوى راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ليس فى حاجة إلى إشادة ولا تنويه بما أتاه الله من بسطة فى العلم والعقل ، وبما وفقه إليه من حسن تصريف الأمور ، ولقد نهض جلالته بأعباء هذا الملك العتيد يافعاً وصبياً حتى صار إلى ما صار إليه من علو المكانة ، ورفعة الشأن ، وما أنا فى حاجة إلى التدليل على ما أقول بالأرقام والتواريخ ، فهو غنى بمجده الغابر ، وتاريخه الحاضر ، ومستقبله الباهر ، عن كل قول لاتأكيد ، وكل مدح وتمجيد ، لأن الأقوال غير الأفعال ، ولكننى أذكر ملخص سيرة جلالته فى سطور وأرقام ، عساها أن تكون عبرة ، وأن تكون سيرة وقدوة !

تاريخ فى أرقام

« ولد جلالة الملك حفظه الله وأطال حياته الغالية بالرياض فى شهر ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠ م ، واضطلع باسترداد ملك آبائه وتأسيس ملكه فى صراع عنيف وحروب متكررة حتى ظفر بتوطيد ذلك الأساس باستيلاء جلالته على الرياض نهائياً فى عام ١٣١٩ هـ الموافقة لعام ١٩٠٢ م ، وظل جلالته فى حروب متكررة ومساجلات حربية لاستخلاص القصيم وجنوب نجد من عام ١٣٢١هـ حتى تم له فتح عنيزة فى محرم عام ١٣٢٨ حيث فتح بريدة عاصمة تلك المقاطعة فى ١٥ ربيع أول عام ١٣٢٨ وبذلك أصبح القصيم كله تابعاً لجلالته . وفى عام ١٩١٣م استولى جلالته على الإحساء وأنشأ منطقة الهجر التى هجر إليها سكان البادية ، فاستقر قرارهم بعد طول رحلة وتنقل وعناء . وفى ٢٩ صفر ١٣٤٠ ـ ٢ نوفمبر ٢٩٢١ تم لجلالته الاستيلاء على حائل ، وفى هذا العام نفسه ـ ١٩٢١ ـ تعرض له ابن عايض باحتلال بيشه فأرسل إليه الأمير بن مساعد فاستولت قواته على عسير وفى شوال سنة ١٣٤٧ ـ يونيو ١٩٢٢ سافر

الأمير فيصل إلى عسير ففتحها . وفى ٦ صفر سنة ١٣٤٣ استولت قوات جلالته بقيادة خالد بن لؤى على مدينة الطايف مفتاح مدن الحجاز ، ثم نودى بجلالته ملكا على الحجاز فى ٢٢ جماد الثانية ١٣٤٤ ـ ٨ يناير ١٩٢٦ . وفى ٢٤ ربيع عام ١٣٤٥ـ ٢١ اكتوبر ١٩٢٦ لجأ الأدارسة إلى حماية جلالته على تهامة عسير .

«وكان جلالته يلقب بالإمام ـ أى إمام المسلمين ـ وهذا لقب يحمله أباؤه وأجداده ثم طلب إليه أهل نجد أن يلقبوه سلطاناً على نجد ، وفى ٢٥ رجب ١٣٤٥ ـ ١٩ يناير ١٩٢٧ بعد استيلائه على الحجاز نودى بجلالته ملكاً على نجد أيضاً . وفى ٢١ جماد أول ١٣٥١ ـ ٢٢ سبتمبر ١٩٢٧ طلب الشعب النجدى والحجازى أن تجعل المملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية لكى لا يكون فارق بين الحجاز ونجد وتكون أمة واحدة ، فصدر مرسوم ملكى بتأسيس المملكة العربية السعودية الحالية .

من نعم الأمن والاستقرار

«ولقد كانت هذه البلاد فيما سبق مسرحاً للحوادث الأليمة المعروفة التى كانت منها عدم استقرار الأمن والنهب والسلب حتى قيض الله لها هذه الشخصية البارزة العظيمة التى ألهمها سداد الرأى وحسن التصرف حيث ساد الأمن فى البلاد وانقطع دابر الفوضى وأصبحت مثالاً للعالم أجمع حتى أصبح الأوربيون يتحدثون بما يشاهدونه فيها من الأمن والطمأنينة ، ويتناقلون أخبار هذا الأمن بدهشة وإعجاب . الشىء الذى ما كان يمكن تصوره عن أية دولة قوية وفى أى أمة أخرى . ويكفى ما يراه القارىء من الحوادث فى الصحف السيارة حتى يعرف الفارق بين الحياة التى يعيشها أهل هذه البلاد وبين الحياة فى سائر أنحاء الدنيا رغم أن جلالته لا يزيد فى معاملته للمجرمين عما يحكم به الشرع الشريف فهو منفذ لسنة الله ورسوله وقائم بحدود الله ، ليس له غاية خاصة ولا يحمل حقداً على أي مخلوق ، فهو راع مسئول عن رعيته ،

ولـكنه فى نفس الوقت لايفضل نفسه عليهم بشىء « رحم الله قوماً يوقرون كبيرهم ويرحمون صغيرهم » فهو يوقر الـكبير ، ويرحم الصغير .

رعاية مصالح العرب والمسلمين

«وجلالته يسهر على مصالح رعيته أناء الليل وأطراف النهار ولقدشهدته شخصياً يستوقفه بعض العامة من الرجال والنساء ويشكون له حالتهم ومعيشتهم ، منهم من يقول ليس عندى ما يقيت أولادى هذه الليلة ، فيمده بالمال فى الحال بما يسد حاجته أياماً معدودة ، ثم يوعز إلى أحد المـكلفين أن يتحقق عما قاله هذا ، فإذا كان ما قاله صحيحاً ويستحق العطف لعجز أو مرض أجرى عليـه من بيت مال المسلمين ـ الذى هو ناظر عليه ـ طول حياته وإذا كان له أطفال صغار قام بتربيتهم وتعليمهم . وتراه يتألم أشد التألم حين يتأ كد ذلك وهذا نتيجة عقيدته الصالحة لأنه يرى نفسه مسؤلاً عنهم ، ولا يلذ له عيش إذا عرف أن أحداً من المسلمين بات جائعاً أو عارياً وإن كان من غير رعاياه . وهو لايفضل أحداً على أحد من المسلمين لأنه يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

«أما اهتمام جلالته بشؤون المسلمين فهى واضحة للعيان ، ومواقفه فيها معروفة لدى الخاص والعام وإننى أعرف منها الشىء الـكثير ولولا معرفتى عزوف جلالته عن الدعاية والإعلان لأوردت منها ما يهز النفوس ويبهج القلوب تقديراً لصنائعه الخالدة وأياديه البيضاء فى خدمة الأمم الإسلامية والعربية .

قوة الذاكرة وصفاء القريحة

«وللجلالة الملك ذاكرة عجيبة ذات مقدرة كبرى فى استيعاب الحوادث وتسجيلها، بحيث تظل منقوشـة فى طياتها ، خالدة فى تضاعيفها فإذا ما عرضت مناسبة من المناسبات لحديث يتصل بالماضى ويحتاج إلى استشهاد ، أفاض جلالته فى الحديث كأنما يقرأ من كتاب أو كأنه يتدفق من نهر وحدث مرة أن كان بسياراته ماراً فاستوقفه رجل كهل يطلب منه المعونة ، فقال له جلالته « هل أنت فلان ؟! » قال نعم ! قال هل تتذكر يوماً أتيتك فيه بدارك ؟ ! قال نعم . ذلك قبل خمس وثلاثين سنة . عند ما أتيتنا ممتطياً صهوة جوادك عند الغروب ، فالتفت إلينا وقال : صحيح ما قال ؟ ! ! ونفحه جلالته بشىء من المال وأمره أن يقابل رئيس ديوانه فيخبره بحاجته وهو من قرية تسمى « البِصْر » من مقاطعة القصيم . أما معرفة جلالته لهذا الرجل ودخوله لداره فهذه حدثت عند ما كان جلالته يحارب خصمه بن الرشيد وكان يخوض المعارك بنفسه على جواده وصادف أنه استمرت المعركة بينهما ليل نهار أياماً متوالية بجوار هذه القرية ، وكان جلالته قام بجولة خاصـة ممتطياً جواده دون أن يعرفه أحـد ليستطلع مدى قوات خصمه ، ومر بهذه القرية ودخلها يستمع إلى رأى أهلها وكان من بينهم هذا الشخص فدعاه إلى بيته ، وهو لا يعرفه أنه الملك ـ ولـكنه يعتقد أنه من أحد رجاله ، تلك هى مناسبة دخوله منزل ذلك الرجل ! التى لم تغب عن ذاكرة جلالته»

الشعر فى بادية نجد

لا يفوتنا فى ختام هذا الكتاب أن نتكلم عن بحث له صلة أدبية بموضوع هذه الرحلة . فقد حرصنا فيما تقدم من الفصول أن نقيّد كل مايمكن أن يسوقنا إليه الاستطراد أو السياق بما له صلة ـ قريبة أو بعيدة ـ بموضوعنا . والذى نريد أن نشير إليه الآن هو الشعر فى نجد إذ لايمكن أن نغفل هذا الجانب الأدبى دون الإشارة إليه بما يقتضيه المقام وما يتسع له النطاق .

أما الشعر فى نجد فله نصيبه الموفور على ألسنة قائليه من الشعراء فى المدن والحواضر كما هو الحال فى أمثالها من مدن البلاد العربية ، وهو شعر عربى فصيح كثيراً ماتنشره صحف المملكة العربية السعودية وصحف غيرها من البلاد الأخرى ، وليس هذا موضوع بحثنا وإنما أردنا الكلام عن الشعر فى بادية نجد . ذلك بأن الشعر العربى الفصيح أشوق ماتكون الأسماع متلهفة عليه حين يصدر من رجل البادية الذى لم تتأثر عربيته بعجمة ، ولم يتطرق إلى فصاحته لكنة . ولكن أهُوَ كذلك فى بادية نجد ؟! الواقع أن الشعر العربى فى بادية نجد هو كغيره فى مختلف البوادى متى ناحية تشابه الأسلوب وتقارب اللهجات ، ومن ناحية عزوفه عن الفصاحة التى عرف بها فى بادية غابر الزمان ، وفى حواضر الأجيال ، فالشعراء فى البوادى ينطقون الشعر بلهجاتهم الخاصة التى هى وإن لم تتطرق إليها عجمة الأعاجم ، فقد غمرها تحريف فى الألفاظ كاد يخرج بها عن محيط الشعر ، وليس ذلك وحده بل ساعده عُدوان آخر هو التحرر من قيود الشعر وأوزانه ودقة قوافيه ، إلى جانب القيود العلمية الأخرى المتصلة بفنون الشعر من نحو وعروض ، وصرف وبيان وغير ذلك.

ومع ذلك فالشعراء فى بادية نجد وغيرها من البوادى يرتجلون الشعر ارتجالاً على الأسلوب الآنف الذكر ، فيجىء حفيلاً بالمعانى المستساغة ، مليئاً بالأفكار والآراء ، وإن كان محرراً من كل قيود الشعر ، على أن هناك طائفة من أهل البوادى ارتادوا الحضر فى مناسبات مختلفة من تجاره أو غيره ، ممن يحملون نفوساً شاعرة ، فتعدلت لهجاتهم فكان لذلك أثره فى منطوقهم . وجاء منظومهم خالياً من التعقيد بعض الشيء . وقد أشار إلى ذلك سعادة الأستاذ فؤاد بك حمزة فى كتابه «قلب جزيرةالعرب» ، وأفرد له بحثاً طريفاً أورد فيه نماذج من شعر البوادى من صفحة ٩٩ إلى صفحة ١٠٥ فليراجعه من شاء المزيد من البحث ، وليست قصة على بن الجهم ببعيدة عن أذهان الأدباء وقد عرفوا منهـا كيف دخل من البادية إلى بغداد بدوى جاف يقول لأميرها فى غير تمثر ولا تلعثم :

أنت كالكلب فى احتفاظك بالود وكالتيس فى قراع الخطوب

حتى همّ أن يبطش به رجال الأمير ، لولا إنه استمهلهم عليه صبراً حتى اجتاحته رقة الحضر ، فعاد يقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولاأدرى

ومن الأمثلة الطريفة التى نحب أن نوردها ختاماً لهذا البحث أبيات رقيقة من الشعر قالها نجدىّ من صميم البادية ، ولكن ليس من أمثال الذين عناهم الأستاذ فؤاد بك حمزة فى صفحاته المشار إليها ، بل هو ممن عنيتهم فى سياق العبارة المتقدمة عن شعراء البادية المتحضرين هو الشيخ عبد العزيز بن فوزان قال :

سر ِحبيب القلب سبقها الرياحْ بالسلامه

واطو وسط الليـل هاتيك البطاحْ والركامه

واترع الأقداح من نخب الملاحْ بالغمامَهَ
واشد يا خلّى ، وغرد للصباحْ ياحمامَهَ
ياعروس الروض نادتك تهامه

* * *

عَبِق الدرب أريج من شذاكِ للرياضِ
واعترت مضناك سراء لقاكى بالتراضى
وانبرى طيفك بالدعج يحاكى ويقاضى
وتصابينا ، فكم قبلت فاكى والأراضى
تحتنا تطوى ولم نخش الفطامَهَ

* * *

ذات دل ما رأت عيناى أروعْ فى الجمالِ
وجنتاها الورد والثغر ترصعْ باللآلى
ريقها المسجد ، ويحى كيف يسطعْ وهو حالى
نَفسٌ فى صدرها ما منه مشبعْ فى الوصال
حبها حلو ولو فيه الندامه

* * *

يا رعى الله ليال طيباتِ فى ركابك
صفّت قلبي بأحلا الذكريات من صفائك
لا أراك الله صرف العاديات وسما بك
فوق أعلا الدرجات وبدارك
ضرب التوفيق والسعد خيامه

فهـــرس

الفصل الرابع

الفصل الخامس

مطبوعات للمؤلف

١ — كتاب : صور الحياة . طبع بمطبعة حوليات مصر السياسية عام ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ م .

٢ — كتاب : الصحفي أو كيف تكون صحفيا . طبع بمطبعة حوليات مصر السياسية عام ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ .

٣ — كتاب : غزل الشعراء بين الحقيقة والخيال . طبع بالمطبعة الفاروقية عام ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥ م .

٤ — كتاب : أدب القرآن . طبع بمطبعة الحكومة بمكة المكرمة عام ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨ م .

٥ — رسالة : تخليد ذكرى إنشاء السد السعودى . طبعت بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه عام ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م .

٦ — رسالة : دار الأيتام والصنايع بمكة . طبعت بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه عام ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ .

تحت الطبع : السياسة والإدارة فى البلاد العربية .

» : أحاديث الربيع .